@ketab_n
Follow Me
19.5.2014

ليو تولستوي

القوزاق

ترجمة: د. سامي الدروبي

التنوير

رواية

ليو تولستوي

القوزاق

رواية

ترجمة: د. سامي الدروبي

التنوير

@ketab_n

ليو تولستوي

القوزاق

الكتاب: القوزاق/ رواية
المؤلف: ليو تولستوي
ترجمة: سامي الدروبي

عدد الصفحات: 256 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9953-582-14-6

الطبعة الأولى الصادرة عن دار التنوير: 2013

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر:
دار التنوير للطباعة والنشر ©.

لبنان: بيروت ـ الجناح ـ مقابل السلطان إبراهيم
سنتر حيدر التجاري ـ الطابق الثاني ـ هاتف وفاكس 9611843340+
مصر: القاهرة ـ وسط البلد ـ 8 شارع قصر النيل ـ الدور الأول ـ شقة 10
هاتف: 27738931(2)20+ - 7332225(100)20+ فاكس: 27738932(2)20+
تونس: 24 نهج سعيد أبو بكر (ط 3) هاتف/ فاكس: 216333714+

البريد الإليكتروني: info@dar-altanweer.com
الموقع الإليكتروني: www.dar-altanweer.com

القوزاق

1863

حين وصل تولستوي الى القوقاز سنة 1851 شعر في أول الأمر بخيبة الأمل، فقد وجد نفسه في قرية من قرى القوزاق، بعيداً جداً عن الجبال التي تغنّى بها الشعراء، يقيم في مسكن غير مريح ويعاشر ضباطاً أفظاظاً لا ثقافة لهم. وفي ذلك الأوان انما شرع في كتابة "الطفولة" هرباً من الواقع الراهن الى الماضي الساحر. ولكن ذلك لا يمنعه من الاهتمام بحياة قوزاق نهر تيريك مزيداً من الاهتمام في كل يوم، ولم يمنعه من الاهتمام بأمر هؤلاء "المؤمنين القدامى" ورثة التقاليد التي عمرها مئات السنين، والاهتمام بأغانيهم الملحمية الغنائية.

لقدأعجبته حياتهم التي تقوم على سلطة الأب. وكان من بين البنات الحسناوات في القرية فتاة اسمها مارشكا، خطفت انتباهه وأثارت عاطفته حتى لقد فكر في الزواج منها والعيش معها بالقرية تلك الحياة البسيطة التي لن يكف عن الحلم بها.

إن هذه الحياة البدائية التي تحتل فيها الأهواء مكاناً كبيراً والتي نرى فيها الحب يترقّبه الموت، هي عند تولستوي نغمة أساسية. ويقرر تولستوي أن يكتب شيئاً عن القوازق. ولكن الأمر الغريب أن الكاتب سيظل يجرِّب ويتلمس طريقه مدة طويلة. حتى لقد احتاج الى عشر سنين ليفرغ من كتابة قصة صاغها اثنتي عشرة صياغة مختلفة على الأقل. حتى أن الصياغة الأولى - ويرجع عهدها الى شهر كانون الأول من سنة 1852 - قد نظمها تولستوي شعراً! وفيها نرى ماريانا الحسناء.وكان قد استقر على تسميتها بهذا الاسم - نراها تخرج من القرية راكضة الى لقاء حبيبها الذي كان يشارك في حملة بالجبال، ولكنها لا تجد إلا جثمانه محمولاً على محفة: لقد قتل في مناوشة.

وكانت هذه الصياغة الاولى قصيرة لا تتجاوز اثنين وخمسين بيتاً من الشعر، وكان الشعر رديئاً في الواقع. لقد كان تولستوي ينوي أن ينظم قصيدة غنائية ملحمية على غرار بوشكين وليرمونتوف في "سجناء القوقاز". ولكنه سرعان ما هجر تجربة كتابة الشعر، وشرع سنة 1853 في كتابة قصة نثرية أراد أن يجعل عنوانها "الهارب"، وهي قصة "ضابط ارستقراطي" شاب جاء من العاصمة فأحب امرأة فتية هي زوجة رجل قوزاقي تافه. فحقد الزوج على الضابط وحاول أن يقتله وهرب الى الجبل (من هنا عنوان القصة: الهارب).

وفي صياغة ثالثة صاغها تولستوي في شتاء عام 1853، نرى ماريانا فتاةً لم تتزوج بعد، ولكنها مخطوبة لفتىً محبب الى القلب، ونرى شخصية العم ياروشكا، الصياد العجوز.

وحين نقل تولستوي الى جيش الدانوب ترك قصة "الهارب" جانباً، ولكنه لم ينس القوقاز. وقد أعاد قراءة ليرمونتوف بمدينة بوخارست، فكتب يقول في يومياته:

"وجدت مطلع قصيدته "اسماعيل بك" حسناً جداً. فلعل مردّ ذلك الى أنني أخذت أحب القوقاز حباً متاخراً لكنه قوي جداً. حقاً ما أجمل تلك البلاد المتوحشة التي يتحالف فيها تحالفاً غريباً طافحاً بالشعر، أمران متعارضان أشد التعارض: الحرب والحرية!". وكتب يقول في يومياته أيضاً: "قصيدة "الغجر" عند بوشكين تخطف اهتمامي وتثير اعجابي. ومن غريب الامر أنني لم أكن قد فهمتها حتى الآن". الواقع أن التشابه كبير بين "القوزاق" و"الغجر". ففي قصيدة بوشكين نرى آليكو، وهو شبيه الشاعر، أرستقراطياً زالت عنه أوهام حياة المجتمع الراقي في العاصمة، كبطل تولستوي في قصة "القوزاق"، وهو يحاول في اندفاعه تلبية نداء روسو أن يتلاءم مع "أبناء الطبيعة" بتبني حياتهم البسيطة في مخيّم، ويلقى هنالك فتاةً جميلة، انسانةً بدائية، فيتولّه بحبها ويتزوجها. ولكن الفتاة لا تلبث أن تجد رجلاً أقرب إليها هو شاب بوهيمي بسيط. تلهب الغيرة قلب آليكو فيقبل العشيقين. ويكتفي كبير الجماعة الذي يحاكمه ويحكم عليه بأن ينفيه من المخيّم لأن هؤلاء الناس البدائيين لا يعرفون، فيما يظهر، لا قانوناً ولا عقاباً. والفرق بين قصيدة بوشكين وقصة تولستوي هو أن الأولى رومانسية الى حد بعيد، أما الثانية ففيها اعتدال وواقعية. ومع ذلك نظل نرى ملامح مشتركة بين هذين الاثرين الأدبيين.

وفي عام 1857 أعاد تولستوي قراءة هوميروس فكتب في يومياته يقول:

"ان الالياذة تجبرني على اعادة التفكير في قصة "الهارب"... انني مستاء جداً من هذه القصة القوقازية. ولا أستطيع أن اكتب بدون فكرة. وليست تكفيني الفكرة القائلة بأن الخير في كل أفق، وأن الاهواء نفسها موجودة في كل مكان، وأن حالة التوحش حسنة." وقد حدَّد تولستوي على وجه الاجمال الفكرة الأم في قصته. فكان أولنين، بطل قصته، يعبر تعبيراً كاملاً عن مشاعر المؤلف حين ألقى بنفسه في مغامرة القوقاز: "كان هذا الشعور الجديد بأنه تحرر من كل ذلك الماضي، يسيطر عليه وسط هؤلاء الناس الاجلاف الذين كان يلقاهم في طريقه ولا يجد وجهاً من وجوه المقارنة بينهم وبين معارفه في موسكو. وعلى قدر ما كان هؤلاء الناس أجلافاً، وعلى قدر خلوِّهم من علائم المدنيّة، كان يحس الواحد منهم بأنه حر." . ومن فرط توحيده بين نفسه وبين هؤلاء البشر الأجلاف الذين يعجبونه ويروقون له، شعر أولنين - مثل تولستوي - باحساس غريب: "... وضح له حينذاك أنه ليس الآن نبيلاً روسياً... وإنما هو بعوضة أو تدرج أو أيِّل. إنه شبيه بكل هذه الحيوانات" . إن أولنين، وقد تعرف الى الطبيعة، يحس بنوع من الغبطة الواسعة، ويعتقد أنه اكتشف طريقه باكتشافه التضحية. فلسوف يصنع سعادة ماريانا ولوكاشكا، ولكن الحب الجسدي ينتصر فيه على هذه الميول الغيرية، فإذا هو يبدِّل موقفه فجأة: "التضحية؟ سخافة، غباء" . وها هو ذا يعترف بذلك: "أنا لا أتمنى السعادة الآن للوكاشكا" . انه يتمناها لنفسه.

ولم يهتد تولستوي الى خاتمة القصة الا بعد عناء. لقد تردد بين عدة حلول، منها حل بقي لنا، وهو حل أشد ميلودرامية من الحل الذي استقر عليه أخيراً. وذلك الحل هو أن لوكاشكا فرَّ من الخدمة العسكرية، فلما جاء ليرى ماريانا اعتقل وحُكم عليه بالاعدام. ويحاول أولنين، الذي خطب ماريانا أثناء ذلك، أن ينقذه، ولكنه لا يفلح. ويعدم لوكاشكا رمياً بالرصاص، وتقتل ماريانا خطيبها أولنين. ولكن تولستوي لم يرض عن هذه الخاتمة. فهجر القصة سنتين. ويبدو أن ظرفاً طارئاً هو الذي حمله على العودة اليها: لقد خسر في لعب البلياردو الصيني مبلغاً كبيراً من المال، فاضطر أن يقترض ألف روبل من ميشيل كاتكوف، مدير مجلة "الرسول الروسي" سلفةً على روايته القوقازية. وها هو ذا يجبر على انهاء هذه الرواية، فيختمها برحيل أولنين. وقد سلَّم المخطوطة الى كاتكوف قبل زواجه بأسبوع، سعيداً بهذا الظرف كل السعادة.

الكسندر سولوفييف

«القوزاق»، وضـع الكاتب هيكل هذه القصّـة سـنـة 1852، ونُشـرت أوّل مـرة فـي مـجـلـة «الـرسـول الروسـي» في شـهر كانون الثاني (يناير) 1863.

1

موسكو غارقة في الصمت. لا شيء إلا عجلات تقرقع على الأرض المتجلّدة، من حينٍ إلى حين، هنا وهناك. النوافذ مظلمة، المصابيح مطفأة. ومن أعلى الكنائس ينتشر صوت النواقيس موجاتٍ عريضة على المدينة النائمة، مؤذِناً بقرب طلوع الفجر. الشوارع مقفرة. رُبَّ زلاّجة ليلٍ تمرّ فتعجن بمزلقيها الضيّقين رملاً بثلج ثم تتوقّف في ركن من الأركان ويغفو حوذيُّها بانتظار راكب. وهذه امرأة عجوز تمضي إلى الكنيسة حيث الضوءُ المحمَّرُ المنتشر من شمعات قليلة مصفوفةٍ على غير اتّساق ينير ذهب الأيقونات. وقد استيقظ العمّال ليستأنفوا عملهم الشاق بعد الليل الذي يطول في الشتاء.

لكن هناك أناساً آخرين ما يزال سهرهم ممتداً. فمن خلال مصراعَي إحدى النوافذ من مطعم «شوفالييه»، يهرب إلى الشارع ضوء متسلّل. وأمام درجات الباب تربط مركبة مغلقة وزلاّجة وعربة ترويكا متراصّة. والبوّاب المتدثر المرتعد قد انزوى عند زاوية المنزل. وفي حجرة المدخل يدمدم خادم مرهق الوجه قائلاً: «ما بالهم يهذرون

هذا الهذر كلّه الذي لا غناء فيه؟ ولا يحدث هذا إلا يوم نوبتي في الخدمة!..».

من الغرفة المجاورة التي تسطع بالأنوار كانت تصل أصوات شبّان ثلاثة. إنهم مجتمعون حول مائدة مثقلة ببقايا عشاء. واحد منهم نحيل الجسم دميم لكنه حَسَن الهندام. إنه يلقي نظرة رقيقة متعبة على صديقه الذي سيسافر. والثاني طويل القامة، قد استلقى غيرَ بعيدٍ عن المائدة المثقلة بالقناني الفارغة عابثاً بمفتاح ساعته. والثالث يرتدي فروة قصيرة جديدة، ويذرع أرض الغرفة، ويتوقّف في بعض الأحيان ليكسر لوزاً بأصابعه القوية التي تتصف ببعض الضخامة لكن أظافرها معتنى بها. إنه لا يكفّ عن التبسّم، متألّق العينين متّقد الوجه. يتكلّم بحرارة ويحرّك بيديه حركات عريضة. ولكن المرء يحسّ أنه لا يقع على الكلمات التي يريدها، وأن الكلمات التي توافيه لا تستطيع، فيما يبدو له، أن تعبّر عن كل ما يعتمل في نفسه. هو يبتسم طوال الوقت. قال مخاطباً الشاب الذي كان يلقي عليه نظرة رقيقة:

- الآن يمكننا أن نقول كل شيء. لست أحاول أن أبرّئ نفسي، ولكنّي أودّ أن تفهمني أنت على الأقل كما أفهم أنا نفسي، فلا تنظر إلى هذه الأمور كما تنظر إليها النفوس التافهة المنحطّة. تقول إنني مذنب في حقهنّ، أليس كذلك؟

أجابه صاحبه، الذي يلقي عليه نظرة رقيقة:

- نعم، مذنب.

وبدا على وجهه مزيد من التعبير عن الرقّة والأسى والتعب. فقال الذي كان يستعدّ للسفر:

- أنا أعرف ماذا يحملك على قول هذا الكلام. لأن يُحِبَّ الإنسان، فتلك في رأيك سعادة كبيرة لا تقلّ عن سعادته بأن يُحِبَّ

هو نفسه، ومتى بلغ المرء هذه السعادة كانت كافيةً له إلى آخر الحياة.

- نعم، كافية يا صديقي. وهي أكثر مما يجب للمرء.

كذلك قال الشاب النحيل طارفاً جفنيه.

فقال المسافر بلهجة بطيئة:

- ولماذا لا تريد للمرء أن يُحِبَّ نفسه؟

ولبث واجماً لحظةً، ونظر إلى صديقه نظرة إشفاق، وأردف يسأل:

- لماذا لا تريد للمرء أن يُحِبَّ هو نفسه؟ ليس الحبّ رهناً بالإرادة. لا، لأن تُحِبَّ فتلك مصيبة تنزل عليك إذا أحسست بأنك مذنب، لأنك لا تقابل الحبّ بحبٍّ مثله، ولأنك عاجز عن أن تستجيب لهذا الحبّ. آه.. ربّاه!..

وحرَّك الشاب يده بإشارة تنمّ عن الكرب واليأس، واستطرد قائلاً:

- ليت الأمور تجري مجرى معقولاً، لا مجرى سخيفاً على خلاف ما نريد. كأنني سرقت تلك العاطفة سرقة. وذلك بعينه هو ما تفكر فيه. لا تعترضّ لا بدّ أنك فتكّر في هذا. صدّقني مع ذلك إذا قلت لك إن هذا الذي فعلته هو، من بين جميع الحماقات والدناءات التي ارتكبتها في حياتي، وما أكثرها! الشيء الوحيد الذي لا أندم عليه ولا أستطيع أن أندم عليه. إنني لم أكذب لا في البداية ولا بعد ذلك، لا عليها ولا على نفسي. كان يخيَّل إليّ أنني أحببت أخيراً. لكنني رأيت ميما بعد أنّ ذلك كان كذباً لا إرادياً، وأنه لا يمكن أن يكون حبًّا، فلم أستطع أن أستمر في المضيّ إلى الأمام، بينما ظلّت هي تتقدّم. أهو ذنبي أنني عجزت عن ذلك؟ ماذا كان يجب عليّ أن أفعل؟

قال الآخر وهو يشعل سيجاراً ليطرد نعاسه:

- نعم، لم يبقَ الآن ما يمكن عمله. ولكن هناك شيئاً محقّقاً هو أنك لم تحبَّ في يومٍ من الأيام حتى الآن، وأنك تجهل ما هو الحبّ.

أراد الشاب الذي يرتدي فروة أن يقول شيئاً آخر، وجعل رأسه بين يديه، ولكنه لم يظفر بالتعبير عمّا في نفسه.

ثم استأنف يقول بعد لحظة:

- لم أحبّ في يوم من الأيام؟ هذا صحيح! لكن نفسي ملأى برغبة قوية في أن أحبّ، رغبة لا يمكن أن تفوقها في قوّتها رغبة. على أنني أتساءل هل الحب كما أتخيَّله موجود؟ إنني أرى كل شيء ناقصاً غير مكتمل! ولكن علام الكلام؟ لقد أفسدتُ حياتي. انتهى الأمر الآن، أنت على حق. وإني لأشعر ببدء حياة جديدة.

قال الثالث الذي كان مضطجعاً على الديوان عابثاً بمفتاح ساعته:

- ... حياةٍ جديدة ستفسدها هي أيضاً.

ولكن الشاب الذي يرتدي الفروة لم يسمعه. وتابع كلامه فقال:

- إني بهذا السفر حزين وسعيد معاً. لماذا أنا حزين؟ لا أدري.

وعاد يتكلّم عن نفسه دون أن يلاحظ أن ذلك يثير اهتمام صاحبيه كثيراً. إن الإنسان لا يكون أنانيًا في أي وقت كأنانيّته في لحظات الحماسة. فهو يتصوّر في تلك اللحظات أن لا شيء أجمل ولا أشدُّ إثارةً للاهتمام الشديد من شخصه!

- دمتري آندرتش، الحوذي يرفض أن ينتظر أكثر مما انتظر. الخيل واقفة منذ منتصف الليل، والساعة الآن هي الرابعة صباحاً!

كذلك قال خادم شاب متدثّر بمعطف ملفَّع الأنف بغطاء يقيه البرد، إذ فُتح الباب فجأة وخاطب الشاب المستعد للسفر بهذه الكلمات.

رفع دمتري آندرتش بصره إلى فانيا الشاب، فبدا له هذا الوجه الغافي، وهذا الغطاء الذي يلفّع الأنف، وهذين الحذاءين الطويلين المبطّنين باللباد، بدا له ذلك نداء حياة جديدة، حياة فعّالة، كادحة، ملأى بأنواع الحرمان.

قال وهو يتثبَّت من شبّاكات فروته:

- فعلاً! أستودعكما الله!

وبدون أن يصغي إلى نصائح صديقيه اللذين يقترحان عليه أن يرسل إلى الحوذي «بقشيشاً» زيادة، تناول طاقيّته المصنوعة من الفراء، ووقف في وسط الغرفة. وتعانق الشبّان الثلاثة مرةً، فمرتين، وتوقفا ثم تعانقا مرّةً ثالثة. واقترب المسافر من المائدة، فأفرغ في جوفه كأساً، وتناول يد صديقه النحيل، واحمرّ وجهه وقال:

- سأقول مع ذلك.. أريد، بل يجب عليَّ، أن أكون صريحاً معك، لأنني أحمل لك محبّة... أنت تحبّها، أليس كذلك؟ ... لقد قدَّرت دائماً أنك تحبّها... هل هذا صحيح؟

فأجابه الشاب النحيل وقد ازدادت ابتسامته رقّة:

- نعم.

- وربما..

- معذرة يا سادة، لقد أُمرت بأن أطفئ الشموع.

كذلك قال الخادم الوسنان الذي أصغى إلى نهاية الحديث فكان يتساءل لماذا ما يزال هؤلاء الشبّان يردّدون ويكرّرون أقوالاً لا تتغيّر؟

وأردف الخادم يسأل:

- لمن يجب أن أسلِّم فاتورة الحساب؟

ثم أضاف وهو يلتفت إلى الشاب الطويل القامة، لعلمه سلفاً بأنه هو الذي سيدفع:

- ربما لك؟

- نعم، لي. كم الحساب؟

- ستة وعشرون روبلاً.

فكّر الشاب الطويل لحظةً، ولكنه لم يقل شيئاً، ودسَّ ورقة الحساب في جيبه.

وفي أثناء ذلك كان الشابان الآخران ما يزالان يتكلّمان.

قال الشاب النحيل ذو النظرة الرقيقة:

- الوداع، إنك شاب طيب!

وكان في أعينهما دموع.

خرج الشبّان الثلاثة إلى درج الباب، والتفت المسافر إلى الشاب الطويل، فقال له وقد احمرّ وجهه:

- ستدفع حساب شوفالييه، وستكتب إليّ، هه؟

فأجابه الآخر وهو يلبس قفّازيه:

- نعم، نعم.

ثم أضاف يقول على غير توقّع وهو يهبط الدرجات:

- لكم أحسدك على أنك مسافر.

ركب المسافر الزلاجة، وتدثر بفروته، وقال بصوت متهدِّج:

- هلمَّ ننطلق.

حتى لقد تزحزح قليلاً، كأنما ليفسح مكاناً للذي كان يحسده. فقال له صديقه:

- الوداع يا ميتيا، أسأل الله أن يهب لك..

وكان كل ما يتمناه هو أن يرحل صاحبه بأقصى سرعة، لذلك لم يكمل جملته.

وساد صمت، ثم صاح أحد يقول من جديد:

- الوداع!

وقال آخر يأمر الحوذي:

- تحرّك!

لمس الحوذي شعره.

ونادى أحد الشابين اللذين بقيا على الباب، نادى يقول:

- إليازار! إليّ بمركبتي.

فانهمك الحوذيون، وتمطقت شفاههم، وصرَّ الثلج تحت عجلات المركبة.

قال أحد الشابين:

- فتى طيب، أولنين هذا، ولكن ما أغربها من فكرة أن يسافر إلى القوقاز، وأن يسافر مجنّداً، ما كنت أقبل هذا مهما يُدفع لي!.. هل تتعشّى غداً في النادي؟

- حتماً.

وافترقا.

شعر المسافر بحرّ، حرٍّ شديد. فجلس في آخر الزلاّجة وفتح فروته. وخرجت الترويكا ذات الأفراس المشعّثة، خرجت من الشارع المظلم إلى شارعٍ آخر لم يكن يعرفه أولنين. وبدا لأولنين أنّ المسافرين وحدهم يسلكون أمثال هذه الشوارع. كان كل شيء حوله معتماً، صامتاً، حزيناً، وكانت نفسه تزخر بذكريات، وعاطفة، وحسرات، ودموع لذيذة..

2

«أحبّهم! لشدّ ما أحبّهم! ما أطيبهم!».. كذلك كان يردّد، وأوشك أن يبكي. ولكن لماذا؟ من هؤلاء الذين يقول ما أطيبهم؟ من يحبّ هذا الحبّ الشديد؟ لقد كان لا يعرف لهذا السؤال جواباً على وجه اليقين. وكان ينظر في بعض الأحيان إلى منزل من المنازل، فيدهشه أن يكون المنزل غريباً كل هذه الغرابة. وكان يتساءل أحياناً ما بال أشخاص غرباء عنه، مثل هذا الحوذي وفانيا، يوجدون الآن بقربه في هذه الزلاّجة المرتجة التي تجرّها أفراس عريش تشدّ الأعنّة المتجلّدة شدّاً مفاجئاً. وها هو ذا يكرّر مرةً أخرى: «ما أطيبهم! لشدّ ما أحبّهم!». حتى لقد قال مرة: «رائع!»، واستغرب ذلك هو نفسه، وبلغ من شدّة الاستغراب أنه تساءل: أهو سكران مثلاً؟ والواقع أنه كان قد شرب وحده زجاجتين من الخمرة. لكن الخمرة لم تكن الشيء الوحيد الذي يُحْدِثُ هذا الأثر في نفس أولنين. وبدا له أنه يتذكّر ما قاله له أصحابه لحظة رحيله من كلمات زاخرة بالعاطفة، مفعمة بالصداقة، قالوها له رغم إرادتهم تقريباً، كأنهم خجلون من قولها. وتذكر تلك المصافحات بالأيدي، وتلك النظرات، وتلك اللحظات من الصمت، والصوت الذي قال له: «الوداع يا ميتيا!» بعد أن ركب العربة. وتذكّر ما ناجاهم هو به، فاكتسب ذلك كله في نظره معنى يهزّ النفس. إن جميع من يعرفهم، من أقرباء وأصدقاء، بل من أشخاص لا يحملون له لا عاطفة محبة ولا شعور عداوة، بل من أشخاص هم أقلّ الناس مودّة عنده وأشدّهم عداوة له كانوا كمن اتفقوا على أن يظهروا له مزيداً من المحبّة، وعلى أن يغفروا له أخطاءه، كما يفعل المرء حين يعترف للكاهن أو حين يوافيه الموت.

قال يحدث نفسه: «من يدري؟ قد لا أرجع من القوقاز!...».

وبدا له أنه يحبّ أصدقاءه، ولكنه يحبّ شيئاً آخر أيضاً. ورقّ قلبه لنفسه. على أنّ محبّته للأصدقاء ليست هي التي رقّقت قلبه وملأته حناناً، وأنعمته بحماسة بلغت من القوّة أنه أصبح لا يستطيع أن يكبح هذه الأقوال المفكّكة التي توافيه من تلقاء ذاتها. لا ولا كان حبّه لامرأة (فإنه لم يحبّ في يومٍ من الأيام) هو الذي ألقاه إلى تلك الحالة. لا. إنّ حبّه لنفسه، هذا الحبّ الفتيّ النضير الحار، الزاخر بالأمل، الممتلئ إيماناً بخير ما تنطوي عليه ذاته (وكان يبدو له الآن أن ذاته لا تنطوي إلا على عواطف نبيلة) هو ما كان يستدرّ دموعه ويجعله يدمدم بأقوال مفكّكة.

لم يكن أولنين قد أتمّ دراسته، ولا كان قد استلم أي عمل (إنه لم يزد على أن سُجِّل في مكاتب إحدى الوزارتين). وقد بدّد جزءاً كبيراً من ثروته، ووصل إلى الرابعة والعشرين من عمره ولمّ يختر لنفسه درباً في هذه الحياة، ولا قام بعمل في يوم من الأيام. لقد كانت حياته حياة من يسمّيه الناس في موسكو باسم «شاب من المجتمع الراقي».

كان أولنين، منذ الثامنة عشرة من عمره، يتمتّع بتلك الحرية التي لا يستطيع أن يتمتّع بها إلا أولئك الشبّان الروس الأثرياء الذين عاشوا في الأربعينات من هذا القرن التاسع عشر محرومين من أبويهم. فلم يقف أمامه لا حاجز مادي ولا حاجز نفسي. فهو يستطيع أن يفعل كل شيء، وهو ليس في حاجة إلى شيء، ولا يقيّده شيء. لا أسرة له، ولا وطن، ولا إيمان! كان لا يعتقد بشيء، ولا يسلّم بشيء.

ولكنه على عدم تسليمه بشيء، لم يكن ممن يفكرون تفكيراً عَقلياً بارداً، ولم يكن ممن لا يكترثون بالأمور ولا يحفلون بها، ولم

يكن مظلم النفس قاتم المزاج، بل كما كان شديد الحماسة دائماً. كان قد انتهى إلى أن الحبّ لا وجود له، ولكن وجود امرأة شابة جميلة كان يحدث في نفسه اضطراباً قوياً لا مناص له منه. وكان يعرف منذ مدة طويلة أن الألقاب والأمجاد سفاسف وترّهات، ولكنه كان إذا شهد حفلة رقص، فتقدّم إليه الأمير سرجي ليكلّمه متودّداً متطلّفاً، لا يستطيع إلا أن يحسّ بشيء من الارتياح والرضى. على أنه كان لا يستسلم لهذه الاندفاعات إلا إذا كانت لا ترتّب عليه التزامات، أو تفرض عليه واجبات. فمتى أوجس أنه يتعرض لبذل جهد، أو لخوض صراع ضدّ الضرورات التافهة التي تفرضها الحياة، أسرع يتحرر بغريزته من العاطفة، أو من الفعل الذي تورَّط فيه، فإذا هو يستردّ حريته.

فبهذه الروح إنما بدأ حياته في المجتمع، وفي خدمة الدولة، وفي إدارة أراضيه، وبهذه الروح إنما شرع في دراسة الموسيقى التي خطر بباله لحظة، أن يقف عليها بنفسه. وبهذه الروح إنما أحبّ النساء، مع عدم إيمانه بالحبّ. كان يتساءل: في أيّ شيء يجب عليه أن ينفق طاقة الشباب هذه التي لا يملكها الإنسان إلا مرةً واحدة في حياته. في الفن؟ في العلم؟ في حب امرأة؟ في النشاط العملي؟ ولم يكن يعني طاقة العقل أو القلب أو الثقافة، بل تلك الاندفاعة التي لا تتكرر، تلك القدرة التي توهب للمرء مرة واحدة، على أن يصنع من نفسه ما يشاء كما يشاء، وأن يصنع من العالم كلّه ما يعجبه ويرضيه. لا شكّ أن بعض الناس لا يملكون تلك الطاقة، فهم حين يدخلون الحياة يقبلون أول رَحْل يلقى عليهم، فيحملون هذا الرّحل، ويظلّون يعملون عملاً متّصلاً مستقيماً إلى آخر الحياة. ولكن أولينين كان يحسّ إحساساً قويًا كلّ القوّة بامتلاكه تلك الطاقة الهائلة التي تجعل

الشباب أشبه بإله قادر على كلّ شيء، كما كان يحسّ إحساساً قويًّا كلّ القوّة بتلك القدرة على أن كلُّه رغبة واحدة أو فكرة واحدة، تلك القدرة على أن يريد وأن يعمل وأن يلقي بنفسه في الهوّة منكَّس الرأس من دون أن يعرف لماذا! فكان شعوره بتلك الطاقة مبعث اعتزاز وسعادة من غير أن يدرك هو ذلك. إنه حتى الآن لم يحبّ إلا نفسه، ولا كان يمكنه أن يفعل غير ذلك، لأنه كان مقتنعاً بأن نفسه لا تشتمل إلا على الخير، ولم يكن قد فقد اهتمامه بعد.

وحين ترك موسكو كانت حالته النفسية هي حالة السعادة تلك التي يشعر بها شاب أدرك أخطاءه الماضية فقال لنفسه فجأة إنها كانت غير ذات بال، وإن مردَّها إلى المصادفة، وإنه في حقيقة الأمر لم يعش حتى الآن، وإن سفره سوف يكون بداية حياة جديدة ليس فيها أخطاء ولا ندامات، وإنما فيها السعادة حتماً.

إن خيال المسافر يبقى مرتبطاً في العادة بالأماكن التي غادرها، وذلك خلال مرحلتين أو ثلاث مراحل من رحلته الطويلة. ولكن ما أن يطلع عليه أول صباح حتى يتّجه خياله إلى خاتمة السفر، ويروح يبني مشاريع متألقة للمستقبل. وذلك ما حدث لصاحبنا أولنين.

فحين ابتعد عن المدينة، وشمل ببصره السهول التي يغطيها الثلج، أبهجه أن يرى نفسه وحيداً بين هذه المساحات الشاسعة البيضاء، وأحكم تدثّره بفروته، واستقرّ مرتاحاً في مكانه من عربته، وهدأ، وألمَّ به وسن. فقد رقّ وداع صحبه قلبه، وأخذت ذكريات الشهرين الأخيرين اللذين قضاهما مقيماً في موسكو تخطر في خياله وتنبجس من تلقاء نفسها مختلطة بأفكار غامضة وملامات مبهمة.

تذكر الصديقَ الذي شيَّعه، وموقفه من الفتاة التي تكلما عنها لحظة السفر، فتساءل: «كيف أمكن أن يحبّها وهو يعلم أنّها

تحبّني؟»، وراودت فكره شبهات وشكوك، وقال لنفسه: «ما أكثر ما في الإنسان من دناءات إذا نحن أنعمنا النظر إليها وأحسنّا التفكير فيها! ولكن لماذا لمّا أحبّ بعد؟ جميع الناس يقولون إني لم أحبَّ في يومٍ من الأيام. أنا إذن إنسان شاذّ النفس؟». وتذكر ما عاناه من ألوان الولوع العاطفي. تذكر خطواته الأولى في المجتمع الراقي، وتذكر أخت أحد أصدقائه. كان يقضي معها سهرات كاملة تحت ضوء المصباح الذي ينير أناملها النحيفة الماضية في عمل من أعمال التطريز، وينير وجهها الجميل الناعم الرقيق. تذكر أحاديثهما الفاترة، والضيق الذي كان يلمُّ بهما كليهما، وشعور التمرّد الذي كان يثيره في نفسه هذا الضيق. كان صوت داخلي ما ينفك يقول له: «لا، ليس هذا هو، ليس هو هذا البتّة!». وحقاً لم يكن هو هذا. ثم رأى نفسه في حفلة رقص، يرقص المازوركا مع الجميلة «د...»: «ما أكبر الحب الذي شبَّ في نفسي تلك الليلة! ما أعظم السعادة التي غمرت قلبي! وما أشدّ خيبة الأمل والحسرة اللتين أحسست بهما حين استيقظت من نومي في الغد فرأيتني حرًّا غير متعلق بشيء!... وتلك الجارة التي كانت تقول مخاطبة إياي ودوبروفين ومارشال النبالة، بدون تفريق، إنها تحبّ النجوم، ألم تكن هي «هذا» أيضاً؟..». ثم ها هو ذا يذكر حياته بالريف في أراضيه. ولكن لا شيء يبرز له من ذكريات تلك الحياة مشرقاً بفرح خاص. وتساءل أولنين فجأة: «إلى متى سيظلون يتكلّمون عن سفري؟ ولكن من «هم» هؤلاء الذين أعنيهم في هذا السؤال؟». لا يدري. وانبجست في ذهنه فكرة أخرى جعلته يجعّد وجهه وينطق ببعض الكلمات المبهمة: مسيو كابيل والمبلغ الذي ما يزال مديناً له به: ستمائة وثمانية وسبعين روبلاً! لقد أراد أن يضرع إلى الخيّاط أن يمهله سنة، فرأى ما لاح في قسمات

وجه مسيو كابيل من تعبير عن الدهشة والإذعان. وجعل أولنين يكرر مراراً وهو يغمض عينيه محاولاً طرد هذه الصورة المزعجة: «يا رب! يا رب!» ثم عاد يتذكر الفتاة التي كلّمه عنها صديقه لحظة الرحيل، فقال لنفسه: «كانت تحبني مع ذلك، رغم كل شيء. لو تزوّجتها لما بقيت عليَّ ديون، أما الآن فما أزال مديناً بمالٍ لفاسيليف». وتلاحقت في خياله صور سهرته الأخيرة في النادي. كان قد جاء إلى النادي بعد خروجه من «عندها»، وقد ابتهل إلى فاسيليف بأشدّ المذلة أن يستمر في اللعب. فرفض فاسيليف بجفاء. قال أولنين لنفسه: «هي سنة أقضيها في اقتصاد وتوفير، فإذا بالديون كلها تُسدَّد. شيطان يأخذهم جميعاً!». ورغم ثقته، عاد يحسب مبلغ ديونه ومهلاتها. «عدا دَيْن شوفالييه هناك دين موريل». وتراءت له تلك الليلة التي تراكمت عليه فيها ديون كثيرة. إنها ليلة السكر مع الغجريات، تلك الليلة التي نظّمها شاسكا ب...، مرافق الإمبراطور والأمير د...، وذلك الشيخ المتعاظم الآتي من بطرسبرج «ما بال هؤلاء معجبين بأنفسهم راضين عنها؟ وبأيّ حق يؤلفون حلقة يعدون الانتماء إليها شرفاً؟ ألأنهم يحتلون منصب مرافق؟ ليس الآخرون في نظرهم إلا بُلهاء أو أوغاداً. شيء فظيع! لقد أريتهم أنني لا أحرص أي حرص على أن تربطني بهم رابطة. ولكن ما أشدّ ما تكون دهشة وكيلي آندره إذا هو رآني أخاطب بصيغة المفرد، من غير كلفة، رجلاً عالي المقام مثل ساشكا ب...، الكولونيل المرافق. لقد علَّمت الغجريات أغنية جديدة، فكان الجميع يصغون منصتين، نعم، أنا شاب ممتاز، على كثرة ما ارتكبت من حماقات.

وصل أولنين إلى المحطة الثالثة في الصباح. وبعد أن شرب الشاي أخذ يتعاون مع فانيا على تنظيم الحقائب والرزم في الزلاجة،

وجلس بين أمتعته هادئاً ساكناً. كل شيء مرتَّب، كل شيء في مكانه، المال، جواز السفر، وثيقة الطريق، وسائر الأوراق. لذلك كان منشرح النفس رائق المزاج، حتى لقد بدت له رحلته الطويلة نزهةً ممتعة.

ظلّ طوال الصباح وشطراً من النهار لا ينقطع عن إجراء حسابات: كم فرسخاً قطع من الطريق؟ ما المسافة بين هذه المحطة والمحطة التالية؟ ما المسافة بين المحطة التالية وبين أقرب مدينة؟ كم بقي من وقت لتناول الغداء ثم لاحتساء الشاي بعد الظهر؟ متى الوصول إلى ستافروبول؟ ما نسبة المسافة التي قطعت من الطريق إلى المسافة الباقية للوصول إلى القوقاز؟ وحسب كذلك مقدار ما معه من مال، وما سيبقى معه في نهاية الرحلة، وما هو في حاجة إليه لسداد ديونه جميعها، والجزء الذي سينفقه من إيراداته كل شهر. حتى إذا حلّ المساء وبعد أن شرب الشاي كان يعرف على وجه الدقة أنه قطع أربعة أجزاء من أحد عشر جزءاً من الرحلة، وأنه إذا اقتصد في نفقاته اقتصاداً شديداً خلال سبعة أشهر استطاع أن يردّ جميع ما عليه من ديون تبلغ ثُمن ثروته. فهدأ باله واطمأنت نفسه، وتدثر بفروته، وجلس جلسة مريحة في آخر الزلاجة، وغشيه الوسن من جديد.

والتفت خياله إلى المستقبل، إلى القوقاز. فكانت تخطر أمامه رؤى عن أملات بك ونساءٍ شركسيات، وجبال عالية، ووديان هائلة، وسيول عارمة، وأخطار رهيبة، وكانت هذه الرؤى تمتزج بأحلامه عن المستقبل.

ذلك كله غامض مبهم. ولكن ما في هذا المستقبل من سحر، إنما يقوم على فتنة المجد وخطر الموت. فتارةً يرى نفسه وهو يقتل جموعاً من الجبليين أو يخضعهم بشجاعة خارقة وقوّة مذهلة، وتارةً

يتخيّل أنه أصبح هو نفسه جبلياً يقاتل الروس مع رفاقه في سبيل الحرية. ومتى أخذت تفاصيل الرؤى تتضح وتدق انبجس في خياله الناس الذين يعرفهم في موسكو، فهذا «ساشكا ب...» يقاتله مع الروس أو مع الجبليين. وهذا مسيو كابيل، الخياط، يشارك هو أيضاً في انتصار الغالب لا تدري كيف! وإذا انبجست في الخيال إلى جانب هذا أنواع المذلة والضعف والأخطار الماضية، كانت ذكراها ممتعة. لأن هذه الأخطاء لا يمكن أن تتكرر هناك بين الجبال والسيول والأخطار والنساء الشركسيات. لقد اعترف هو لنفسه بها وانتهى الأمر!

ثمة حلم آخر هو أغلى سائر الأحلام، انبجس في رؤى المستقبل التي لاحت للشاب: المرأة.. إنها تعرض لخياله بين الجبال في ملامح عبدةٍ شركسية دقيقة القوام ميّاسة القد طويلة ضفائر الشعر، واسعة العينين، خاضعة النظرة. وهو يراها عند عتبة كوخ تنتظره، ويرى نفسه هارعاً إليها وقد جلّله الغبار والدم والمجد، ويحسّ قبلاتها، ويلمس كتفيها، ويسمع صوتها العذب الخاضع. سوف يستغل سهرات الشتاء الطويلة ليشرع في تعليمها. إنها لذيذة، ولكن ليس لها حظ من ثقافة، وهي متوحّشة جلفة. إنها ذكية، قادرة على الفهم، عذبة، تهضم بسرعة جميع المعارف اللازمة. لمَ لا؟ إن في وسعها أن تتعلم اللغات بسهولة، وأن تقرأ كتب الأدب الفرنسي وأن تفهمها. لا بدّ وأن رواية «أحدب نوتردام» ستعجبها. إنها تستطيع أن تتعلم الكلام بالفرنسية. فإذا ضمّها صالون كان يمكنها أن تتصرف تصرفاً فيه من النبالة والمهابة ما تتفوق به على سيدة من سيدات المجتمع الراقي.

قال لنفسه فجأة: «هه! يا للسخافات!». كان قد وصل المحطة

في تلك اللحظة نفسها. يجب تبديل الزلاجة وتوزيع البقشيش. ولكن خياله سرعان ما عاد إلى تلك «السخافات» التي هجرها. فهذه صور النساء الشركسيات، والمجد، والعودة إلى روسيا، وزخارف البزّة العسكرية التي يرتديها الضباط المرافقون، والزوجة الجميلة الأخاذة، تخطر أمامه من جديد. قال لنفسه: «ولكن الحبّ لا وجود له، والأمجاد ليست شيئاً... فماذا عن الستمائة والثمانية والسبعين روبلاً؟...

ماذا عن البلد الذي غزوته فوهب لي من الثروات فوق حاجتي على مدى الحياة؟ على كل حال لن يكون أمراً حسناً أن أستفيد من هذا المال وحدي. قبل كل شيء أردُّ إلى كابيل الستمائة والثمانية والسبعين روبلاً...».

وهوى فكر أولنين إلى رؤى مبهمة غامضة. فكان لا يفيق لحظةً من نومه إلا إذا وقفت الزلاجة أو نادى فانيا. وكان ينتقل من زلاجة إلى أخرى من دون أن يحسّ بما يفعل، وعلى هذه الحال تابع طريقه.

لم يتغير شيء في صباح الغد، محطات، وبقاشيش، وأرداف خيل تهتزّ، وأحاديث مقتضبة مع فانيا، فإذا أقبل المساء كانت أحلام غامضة وكان غفوٌ خفيف، حتى إذا ساد ظلام الليل، غرق أولنين فيما يغرق فيه الشباب الصحيح القوي من نوم عميق.

3

على قدر ما كان أولنين يبتعد عن وسط روسيا، كانت ذكرياته تخبو، وعلى قدر ما كان يقترب من القوقاز كانت نفسه تتفتّح. كان يقول لنفسه أحياناً: «ماذا لو كان رحيلي إلى غير رجعة، ماذا لو لم أعد إلى روسيا أبداً، ماذا لو لم أظهر في المجتمع الراقي بعد اليوم قط! إن هؤلاء الذين أراهم هنا ليسوا «ناساً»، فلا أحد منهم يعرفني،

ولا أحد منهم سيوجد يوماً في المجتمع الذي عاشرته، لا أحد منهم سيستطيع أن يعرف عن ماضيَّ شيئاً. لا أحد في هذا المجتمع سيعرف ماذا فعلت بين أولئك الناس». كان يشعر أنه تخلّص من ماضيه تخلّصاً تامًّا بين هؤلاء الجفاة الذين يلقاهم في طريقه ولا يعدّهم «ناساً» بالمعنى الذي يعدّ به أصدقاءه في موسكو ناساً. وعلى قدر ما كان يحسّ أولنين بأنهم جفاة أجلاف، وعلى قدر ما كانت تتناقص أمامه مظاهر التمدّن والتحضّر، كان يشعر بمزيد من الحرية.

ولكن ستافروبول التي كان عليه أن يخترقها قد أحزنته. فلافتات المتاجر، وكان بعضها مكتوباً بالفرنسية، والسيدات في المركبات الفخمة، والعربات المرابطة في ساحة المدينة، والشارع الكبير، والسيد الذي كان يتجول في ذلك الشارع بقبعة والذي تفرّس في أولنين مستطلعاً، ذلك كله أثار في نفس أولنين حزناً وألماً. قال لنفسه: «ربما كان هؤلاء الناس يعرفون عدداً من أصدقائي».

فإذا هو يتذكّر، من جديد: النادي، والخياط، والقمار، وحياة المجتمع الراقي. ولكن كل شيء في ستافروبول كان عدا ذلك حسناً. كان كل شيء جميلاً ومتوحّشاً في آنٍ واحد، وكان كل شيء يفوح منه جوّ الحرب. فإذا بأولنين يشعر بالفرح يغزو نفسه شيئاً فشيئاً. وبدا له أن القوزاق والحوذيون والقائمون على المحطات أناساً بسطاء يستطيع الإنسان أن يحادثهم وأن يمازحهم من دونِ أن يهتم بمركزهم الاجتماعي. فهم ينتمون جميعاً إلى الجنس البشري الذي كان أولنين يحبه على غير شعور منه، وقد أظهروا له كلُّهم مودّة وصداقة.

منذ أن وصل أولنين إلى قوزاق نهر الدون، استُبدلت الزلاجة بعربة تجرها الخيل. ثم ما أن قطع ستافروبول حتى أصبح الجو لطيفاً عذباً، وخلع أولنين فروته. هذا ربيع، ربيع لم يكن يتوقّعه أولنين،

فهو الآن يغتبط به ويفرح. وقد قيل له إن الخروج من القرى محظور متى أقبل الليل، بل إن الخطر قائم حتى في المساء. فأخذ فانيا يخاف. ولكن أولنين ما ينفكّ يزداد فرحاً، وإلى جانبه في العربة بندقية يستطيع أن يتناولها متى شاء. وقد روى لهم صاحب المحطة قصة جريمة قتل رهيبة وقعت في الآونة الأخيرة. وكان جميع من يلقاهم أولنين مسلحين. كان أولنين الذي ينتظر بفارغ الصبر بلوغ الجبال المكسوّة بالثلج التي طالما حُدِّث عنها يقول لنفسه: «أخيراً بدأت!». وفي ذات مساء التفت إليه الحوذي، وهو رجل من الفوجاي، فأشار له بسوطه إلى سلسلة من الجبال وراء حاجز من السحب. فنظر أولنين بشراهة، ولكن الجو كان غائماً، وكانت السحب تحجب الجبال إلى نصفها، فلم يستطع أولنين، رغم كل ما بذله من جهود، أن يجد في هذا المنظر شيئاً جميلاً. ورأى أن الجبال والسحب مظهرها واحد، فلا فرق في هذا المظهر بين جبال وسحب، ورأى أن ما قيل له كثيراً عن روعة الذرى المكسوة بالثلج إنما هو من صنع الخيال، كجمال موسيقى باخ أو كجمال الحب، وهما أمران كان لا يؤمن بهما. فانقطع عندئذ عن الاهتمام بالجبال. ولكن حين أيقظته في الغد طراوة الفجر، نظر إلى يمينه بغير اكتراث، وكانت السماء صافية كلّ الصفاء، فإذا هو يرى على مسافة عشرين خطوة منه- فيما خيِّل إليه أول الأمر- كتلاً ضخمة من بياض ناصع، تبرز حواشيها المتعرجة الدقيقة في السماء الشفافة، حتى إذا ما عرف المسافة التي تفصله عن تلك الذرى حقاً، وأدرك أبعادها الكبيرة الهائلة، وأحسّ بما فيها من جمال لا نهاية له، خاف أن يكون هذا الذي يراه حلماً، فهزَّ رأسه ليستيقظ... لكن الجبال بقيت ولم تختفِ!

قال يسأل الحوذي:

- ما هذا؟ ما هذا؟

فأجابه الحوذي بدون اكتراث:

- جبال.

وقال فانيا:

- إنني أنظر إليها منذ مدة طويلة. ما أجملها! لن يصدقني أحد عندنا إذا حدثته عن جمالها!

كانت العربة تجري مسرعة على الطريق السهل، ولكن الجبال تظل تُرى هاربةً عند الأفق، متألقة الذرى تحت أشعة الشمس التي أخذت تطلع. دُهِش أولنين في أول الأمر، ثم افتتن افتتاناً، فكان يتأمل هذه القمم الساطعة التي تنبجس من الفيافي رأساً، ثم إذا هو يغرق في هذا الجمال شيئاً فشيئاً، وها هو «يحسّ» الجبل إحساساً. ومنذ تلك الدقيقة أصبح كل ما يستطيع أن يراه وأن يفكر فيه وأن يسمعه يكتسب في نظره مظهراً جديداً، هو مظهر الصرامة والعظمة في هذه الجبال. وامَّحت ذكريات موسكو، وزال الشعور بالخزي، وذهبت الندامة، وتبدّد عذاب الضمير، واختفت الأحلام الحمقاء... مضى ذلك كله ولم يرجع.. وقال له في نفسه صوت مستتر خفي: «الآن إنما يبدأ الأمر». فلا الطريق، ولا خط تيريك الذي يُلمح في البعيد، ولا قرى القوقاز، ولا السكان، لا شيء من هذا الآن بمزاح!

صار أولنين يتأمل السماء، فيتذكر الجبال، وصار ينظر إلى نفسه وينظر إلى فانيا، فإذا الجبال أيضاً هي التي تحاصر ذهنه. ويرى اثنين من القوزاق قد أخذت بندقية كل منهما تترجح في غمدها فوق ظهره على إيقاع خبب الحصانين، الأشهب والكميت، فإذا هي الجبال!... وتظهر الشمس فتلألئ أشعتها صفحة الماء في نهر تيريك

الذي يُرى من خلال أعواد القصب، فإذا هي الجبال!... وتخرج عربة نقل من قرية، وتذهب نساء وتجيء، نساء شابّات جميلات، فإذا هي الجبال! ويحوم رجال من الآبريك، ويتقدّم أولنين غير خائف، فإن معه بندقيته، وإن له قوته وشبابه ولكنها الجبال، الجبال!...

4

إن هذا الجزء من خط نهر تيريك، الذي تصطف عليه ضياع «القمة»، ويمتد على نحو ثمانين فرسخاً، له طابع واحد سواء من حيث السكّان أو من حيث الأرض. إن نهر تيريك الذي يفصل القوزاق عن الجبليين الشراكسة يجري مضطرباً سريعاً، ولكنه أخذ الآن يتسع ويهدأ: ففي الضفة اليمنى التي يغطيها القصب ترسّب مياه النهر رملاً أشهب بغير انقطاع، على حين أنها تأكل الضفة اليسرى التي هي قليلة الارتفاع لكنها وعرة مزدحمة بجذور أشجار السنديان المسنّة وأشجار الدّلب العفنة وبأشجار أخرى صغيرة. إن قرى الشراكسة، وقد رُدُّوا إلى الهدوء والسلم بعض الشيء، يشغلون الضفة اليمنى. وفي أراضي الضفة اليسرى، على بعد نصف فرسخ من النهر، يقيم القوزاق في ضياعهم التي تبعد إحداها عن الأخرى مسافة تتراوح بين سبعة فراسخ وثمانية فراسخ. ولقد كان أكثر هذه الضياع يقع في الماضي على شاطئ النهر. ولكن النهر الذي ينحرف مجراه سنة بعد سنة قد خرّب هذه الضياع فلا ترى منها الآن إلا أنقاضاً اجتاحها نبات كثيف، بساتين مهجورة ملأى بأشجار الكمثرى والخوخ والصفصاف الإيطالي، التي يتسلّق عليها عوسج الكرمة البرية. لا أحد يسكن الآن هذه الضياع، ولكن الأيائل والذئاب والأرانب وطيور التدرّج تحب هذه الأنحاء فتُرى آثارها على الرمال.

وضياع القوزاق يربط بعضها ببعض طريق شُقّ في الغابة على

مرمى مدفع. وهذا الطريق تحرسه سلسلة من المخافر يشغلها قوزاق. وبين المخافر تقوم مراصد فيها خفر، وذلك كله ما يطلق عليه اسم «الكوردون». إن القوزاق لا يملكون لأنفسهم إلا شريطاً ضيّقاً من أرض خصبة ذات غابات، لا يزيد عرضها على نصف فرسخ إلا قليلاً. وفي الشمال تبدأ كثبان الرمال، وسهوب النوجاي المسماة سهوب موزدوك التي تلتقي في الأقاصي البعيدة- لا يدري إلا الله أين!- بسهوب تركمان استراخان وكرخير كايساك. وفي جنوب نهر تيريك تقع تشاشانيا الكبرى، والجبال السوداء، وسلسلة أخرى من الجبال، والكتل المغطاة بالثلج التي تُرى من بعيد، ولكن لم يتوغل أحد إليها حتى الآن. ففي هذه المنطقة الخصبة ذات الغابات، الملأى بالنباتات، إنما يقيم منذ عهود سحيقة سكّان محاربون أغنياء يتصفون بالجمال، هم من الروس الذين اعتنقوا ملّة «الإيمان القديم»: فهؤلاء هم من يُطلق عليهم اسم قوزاق جريبن.

إن أسلاف هؤلاء السكّان، الذين انتموا إلى ملّة الإيمان القديم، فهربوا من روسيا منذ زمن بعيد جداً، قد أقاموا وراء نهر تيريك بين سكّان «القمّة»، أي سكّان السلسلة الأولى، المكسوة بالغابات، من تشاشانيا الكبرى. وحين أقاموا بين التشاشان تحالفوا معهم، وأخذوا بما لهؤلاء الجبليين من عادات وطُرُز معيشة وأخلاق، مع احتفاظهم طبعاً بنقاء لغتهم الروسية وباعتناقهم ملّة الإيمان القديم. وقد احتفظوا بأسطورة تزعم أن القيصر إيڤان الرهيب قد جاء يوماً إلى نهر تيريك، ودعا إلى لقائه قدامى القوزاق، فوهب لهم أراضي هذه الضفة من النهر، وحضّهم على أن يعيشوا في سلام، ووعدهم بأن لا يُجبرهم أحد على شيء، وبأنهم يستطيعون أن يحافظوا على ديانتهم. وما تزال الأسر القوزاقية إلى الآن تعدُّ

نفسها قريبةً من الجبليين، كما أن حبّ الحرية والحرب والنهب، والميل إلى البطالة والفراغ، هما من السمات الغالبة على طبعهم.

ولا يظهر نفوذ روسيا عليهم إلا في فرض بعض العوائق: كالتحكّم بالانتخابات، ومنع دقّ النواقيس، ووجود القطعات العسكرية النظامية ومرورها. إن القوزاقي لا يكره «الرجيغيت» الشركسي، ولو كان قاتل أخيه، مثلما يكره الجندي الروسي الذي يعسكر عنده، فيدافع عن «الستانتسا» القوزاقية، لكنه يلوّث له بيته بدخان التبغ. إنه يحترم عدوَّه الجبلي، ولكنه يحتقر الجندي ويعدّه أجنبياً يضطهده. والفلاح الروسي هو في نظر القوزاقي إنسان متوحش جدير بالازدراء. وقد أصدر القوزاقي حكمه هذا على الفلاح الروسي قياساً على ما رآه في البائعين المتجوّلين أو المستوطنين الأوكرانيين الذين لا يحمل لهم إلا الاحتقار. وذروة التأنق عند القوزاق هي أن يقلّدوا الشراكسة: فمن عند الجبليين إنما تأتي أفضل الأسلحة، وتشتري أو تُسرق أجود الخيول. والفتى القوزاقي يتباهى بأن يتكلم اللغة التترية، بل إنه ليتخاطب بها مع أصدقائه حين يقصف ويلهو.

ومع ذلك فإن هؤلاء السكّان المسيحيين، المنعزلين في هذا الركن من الأرض، المحاطين بقبائل مسلمة شبه متوحّشة، وبجنود، يشعرون بأنّهم متفوّقون، ويرون أن القوزاق وحدهم بشر، ويحتقرون سائر الإنسانية.

والقوزاقي يقضي أكثر وقته في «الكوردون»، أو في الفلاة، يصطاد في البرّ أو في النهر، ولا يكاد يعمل في بيته أبداً. بل إنه إذا أقام في «الستانتسا» فهذا استثناء من القاعدة، وهو أثناء إقامته في «الستانتسا» ينصرف إلى القصف واللهو. وكل قوزاقي يصنع خمرته بنفسه، وليس السكر ميلاً طبيعيًا يشترك فيه جميع القوزاق بمقدار ما

هو طقس من الطقوس أو شعيرة من الشعائر التي إذا أخلَّ بها كان كأنه يرتدّ عن دينه ويخرج على ملّته. والمرأة في نظر القوزاقي أداة لرفاهيته. والفتاة يجوز لها أن تتسلّى. أمّا المتزوّجة فهي مضطرة أن تعمل لزوجها إلى آخر شيخوختها، وهي خاضعة لاستبداده خضوعاً شرقيًّا تاماً. ولكن هذا الوضع يهيئ للمرأة القوزاقية نموًّا جسميًّا ونفسيًّا عظيماً، فهي إذا كانت تبدو خاضعة مستعبدة، تتمتّع في حياة المنزل (كما يحدث هذا عامة في الشرق) بنفوذ وسلطان أكبر بكثير من النفوذ والسلطان اللذين تتمتّع بهما أخواتهما في الغرب. فابتعادها عن الحياة العامة، وانقطاعها إلى الأعمال الشاقّة التي تقع في الغرب على كاهل الرجال، لا يزيدانها إلا علوّ مكانة وقوّة سلطة في إدارة شؤون البيت. إن القوزاقي الذي يجد أنه ليس من اللائق أن يكلّم امرأته أمام رفاقه بلهجة فيها رقّة وعاطفة، أو قد يجد شيئاً من الغضاضة في أن يثرثر معها بحضور صحبه، يخضع لتفوّقها عليه متى خلا إليها. إن المنزل وكل ما يضمّه المنزل إنما هو من كسبها، وما كان له أن يبقى لولا كدُّها وعنايتها. فالقوزاقي رغم اقتناعه الجازم بأن العمل عيب، يشعر شعوراً غامضاً أن كل ما يستفيد منه وينتفع به ويعدّه ملكاً له إنما هو ثمرة ذلك العمل الذي تقوم به المرأة، وأن المرأة، سواء أكانت أمًّا أم زوجة أم أمة، تستطيع أن تحرمه منه إذا شاءت. زِد على ذلك أن العمل القاسي الذي عُهِد به إلى المرأة في «القمّة» قد أضفى عليها طابع الرجولة والاستقلال، ونمّى فيها قوة الجسم، وروح الحزم. فالنساء أقوى وأذكى وأجمل من الرجال بوجه عام. والشيء الذي يخطف البصر خاصة في جمال هؤلاء النساء هو هذا الاتحاد والائتلاف بين وجه هو النموذج الشركسي الصافي وبين بنية عريضة متينة هي بنية السكّان الشماليين. والقوقازيات يرتدين

اللباس الشركسي: قميصاً تترياً، ورداءً يسمّى بشميت، وجزمتين رخصتين ليّنتين، ولكنهن يعقدن منديل الرأس تحت الذقن على الزي الروسي. والأناقة والنظافة وحسن الذوق عادة متأصلة فيهن، بل حاجة مفطورة تتجلّى في لباسهن وتتجلّى كذلك في ترتيب بيوتهنّ. وفي علاقتهنّ بالرجال تتمتّع القوقازيات، ولا سيما الفتيات، بحريّة كاملة.

إن «ستانتسا» نوفوملنسك قد عُدّت من قديم الزمان أرومة قوزاق «القمّة». وهي تحافظ على العادات القوقازية العريقة أكثر مما يحافظ عليها في أي مكان آخر. ونساء هذه القرية قد اشتهرن بجمالهنّ في القوقاز كله. والرزق الأساسي للقوزاق إنما هو كروم العنب، والبساتين وحقول البطيخ والقرع والذرة الصفراء والذرة البيضاء، وكذلك صيد البرّ والنهر، وأخيراً غنائم الغزوات الحربية.

تقع قرية نوفوملنسك على مسافة ثلاثة فراسخ من نهر تيريك، وتفصلها عن النهر غابة كثيفة. ففي إحدى جهتي الطريق الذي يمرّ بالمدينة يجري النهر، وفي الجهة الأخرى تخضوضر الكروم والبساتين، وبعدها تمتدّ كثبان سهوب الفوجاي. والقرية محاطة بسياج من أشجار البرقوق الشائك. فالناس يخرجون من القرية ويدخلون إليها من باب عالٍ يظلّله سقف من أغصان الأسل. وعلى ركيزة من خشب بقرب هذا الباب، ينتصب مدفع قديم ضخم لا يصلح للاستعمال منذ قرابة قرن من الزمان، وكان القوزاق قد استولوا عليه في الماضي. وأمام الباب يقف قوزاقي مسلّح ببزّة رسمية، فهو يخفر الباب تارة ولا يخفره تارة أخرى، وهو قد يقوم بالتحية الرسمية للضابط الذي يمرّ، وقد لا يقوم بها. وفوق السقف يرى الناظر لوحة بيضاء كُتب عليها بأحرف سوداء ما يلي: «عدد

المنازل: 266، عدد السكان الذكور: 897، عدد السكّان الأناث: 1012». ومنازل القوزاق تغطيها أغصان الأسل باعتناء، وتزين مداخلها زخارف، وقد بُنيت على أوتاد ترتفع فوق الأرض مسافة نصف أرشين وهي جميعاً، حتى أقدمها، متينة نظيفة، ولمداخلها درجات منحوتة جميلة. وليست هذه المنازل متلاصقة بل تفصل بعضها عن بعض مسافات، وقد صُفّت صفّاً جميلاً غريباً على طول الشوارع والأزقة. وأمام النوافذ العريضة النيِّرة في منازل كثيرة، تسمق أشجار صفصاف قاتمة الخضرة، وأشجار الآكاسيا ذات الأزهار البيض العبقة، متجاوزة في علوّها السقوف، وعلى مقربة من هذه الأشجار تبرز نبتات دوّار الشمس، الفاقعة الصفرة، وجذوع الكرمة، اللينة المنثنية، وفروع اللبلاب المتعرّجة المتسلّقة. وفي ساحة عامة يرى المرء ثلاثة دكاكين تبيع أقمشة وبذور دوّار الشمس، وفليفلة، وخبزاً محلّى. وهناك، وراء سياج من محبوك القصب، وصفٍ من أشجار الصفصاف، إنما ينتصب منزل قائد الكتيبة، عالياً على سائر المنازل، مزوّداً بنوافذ ذات مصاريع.

إن الشوارع، في أيام الأسبوع، خالية إلا من عدد قليل من الناس: فالقوزاق، في غير يوم الأحد، إنما يكونون في «الكوردون» أو يكونون في حملة، والشيوخ يصطادون في البر أو يصطادون في النهر أو يعملون في البساتين أو في مزارع الخضار مع النساء. ولا يبقى في المنزل إلا الأطفال والمرضى والعَجَزة من الشيوخ.

5

كانت أمسية من تلك الأمسيات التي لا يُرى مثلها إلا في القوقاز. الشمس غابت وراء الجبال، ولكن كل شيء ما يزال غارقاً في نور، وثلث السماء يتوقّد في ضياء الغسق. والجبال تبرز بروزاً

واضحاً بلون أبيض منطفئ، على الألوان المتوهّجة التي تنشرها الشمس الغاربة في الأفق. والهواء خفيف، ساكن، له رنين. وظلُ الذرى الواسع يمتد على السهوب بالغاً من الطول عدة فراسخ. والطرقات والسهوب ما بعد النهر خالية مقفرة. فإذا ظهر رجل يركب حصاناً من وقت إلى وقت، أتبعه قوزاق «الكوردون» والجبليون في قراهم بنظرات فيها دهشة استطلاع متسائلين من عسى أن يكون هذا الشخص المريب.

إن الرجال يقتربون من مساكنهم متى هبط الليل، لأنهم يخاف بعضهم بعضاً. فإذا بالطيور والوحوش التي أصبحت لا تخاف البشر تسرح وتمرح عندئذٍ حرّة طليقة في ذلك الخلاء. والنساء اللواتي كنّ يربطن أشجار الكرمة يسارعن إلى ترك البساتين قبل غروب الشمس، مغرِّدات في مرح، فتصبح البساتين خالية مقفرة كالفلاة سواء بسواء. ولكن هذه هي ساعة دبيب الحياة والنشاط في «الستانتسا». فالسكّان يعودون إلى «الستانتسا» من جميع الجهات، بعضهم مشاةً على الأقدام، وبعضهم ركوباً على صهوات الخيل، وبعضهم في عربات تقرقع. والبنات قد شمّرت تنانيرها، حاملةً بأيديها قضباناً طويلة، متبادلةً فيما بينها أحاديث فرحة، هرعت تتلقى الماشية التي تزدحم على الأبواب في سحاب من الغبار والذباب. والبقرات والجاموسات الشبعة قد تفرقت في الشوارع ومن حولها تنهمك نساء يلبسن أردية مطرّزة. ويسمع المرء أصواتاً قوية، وقهقهات، وصرخات حادة يختلط بها خوار البهائم.

هذا قوزاقي شاكي السلاح يعود من «الكوردون» راكباً حصانه، ويقترب من أحد المنازل، فيميل قليلاً من على سرجه وينقر نافذة البيت، فما يلبث أن يظهر في النافذة وجه فتّان هو وجه امرأة شابة،

فتدور بين الشخصين أحاديث رقيقة فرحة. وهذا عامل من النوجاي نايئ الوجنتين، بالي الأسمال، يعود من السهوب بحمل من القصب، فيدخل بعربة النقل إلى الفناء الواسع النظيف من منزل الكابتن، ويحرر من النير أبقاره التي تأخذ تهزّ رأسها، ويتحدث مع الضابط باللغة التترية.

وهذه امرأة حافية القدمين تدور حول بركة تشغل كلَّ عرض الشارع تقريباً، وأمامها أشخاص يمرون بالطريقة نفسها منذ سنين، متشبّثين بأسيجة القصب المحبوكة في غير قليل من العناء. إن المرأة تحمل على ظهرها حملاً من الحطب، وتشمّر تنّورتها على ساقيها البيضاوين شمراً عاليًا جدًّا. فيصيح قوزاقي قائلاً وهو يضحك: «اشمري أكثر من هذا أيضاً! يا لقليلة الحياء!». ويتظاهر بأنه يصوِّب إليها. فتسارع المرأة إلى إسدال تنورتها ويسقط من على ظهرها حطبها. وذلك شيخ قوزاقي راجع من صيد النهر، مشمور السروالين، منفرج القميص عن صدر كثيف الشعر أشيبه، متقلِّداً شبكة ما تزال تتحرك فيها أسماك بلون الفضّة. إنه يريد أن يسلك أقصر طريق، فهو لذلك يتسلّق سياج جاره، المتخرب نصفه، ويعلِّق سترته بالأشواك. وتلك امرأة طاعنة في السنّ تجرّ أرومة شجرة، وتُسمع ضربات فأسها تسقط على الأرومة. وأولئك أولاد يستغلّون أصغر فسحة منبسطة من الأرض، فيلعبون فيها بالخذروف وهم يطلقون صيحات حادّة. وتلك نسوة تتخطّى الأسيجة تخطّياً من أجل أن تتحاشى دورة طويلة. ودخان الجلّة يتصاعد من المداخن ناشراً رائحته الخاصة. تلكم هي الجلبة التي تسبق هدوء الليل.

إن أوليتا، زوجة الليوتنان الذي هو معلّم مدرسة في الوقت نفسه، قد خرجت إلى باب منزلها كسائر النساء لاستقبال الماشية

التي ترجع بها ابنتها ماريانا مجتازة شوارع القرية. فما إن فتحت الباب حتى اقتحمته إلى الحوش جاموسة ضخمة يطاردها البعوض وهو تجأر بصوت قويٍّ. وهذه بقرات ثقيلة تتبعها بطيئةً، ملتفتة إلى صاحبتها بأعينها الواسعة، لاطمةً جنبيها بذيلها لطمات موزونة. وتدخل ماريانا أيضاً، إنها فتاة جميلة طويلة القامة. تغلق الباب وراءها، وترمي عصاها، وتهرع بكل ما تملكه ساقاها الرشيقتان من سرعة لتُدخل المواشي إلى الحظيرة.

صاحت أمّها تقول لها:

- اخلعي حذاءيك يا شيطانة، لقد تهرّأتا منذ الآن!

ولكن ماريانا لا يبدو عليها أيّ انزعاج من وصفها بأنها شيطانة، بل هي تعدّ هذه الكلمة لطفاً وظرفاً، فتستمر في القيام بعملها فرحة مرحة. إن وجهها يحجبه خمار يغطي رأسها. وهي ترتدي قميصاً ورديًّا مطرّزاً بلون أخضر. وها هي ذي تغيب تحت الطنف وراء مواشيها القوية السمينة، ولكن صوتها يظل يُسمع ملاطفاً الجاموسة بلهجة التدليل: «هنا هنا! كفى! ما أشدّ حركتها! هيا يا حبيبتي الجميلة!». وما هي إلا دقائق حتى كانت الأم وابنتها تحملان سطلين من الحليب قد حلبتاهما في كوخ صغير بقرب المسكن. وأخذ الدخان يتصاعد من مدخنة الكوخ المصنوعة من الفخار: إنهما تغليان الحليب لاستخراج القميمق. وطفقت البنت تذكي النار، وخرجت الأم العجوز إلى باب الدار.

كان الغسق قد اجتاح القرية. والهواء مشبع برائحة الخضار والمواشي ودخان الجلة. وفي الشوارع تُرى ربّات بيوت تمرّ مسرعةً وهي تحمل خرقاً مشتعلة. وفي الحظائر تُسمع أصوات البهائم زافرةً مجترّةً وقد فرغت ضروعها. ونساء وأطفال ينادي بعضهم بعضاً

ويجيب بعضهم بعضاً من فناء إلى فناء وفي الشارع. ويندر أنْ تسمع في غير أيام الأحد صوت رجل مخمور.

هذه امرأة مسنّة طويلة القامة قوية البنية تأتي إلى الدار التي تقابل دارها تطلب من أوليتا أن تشعل لها خرقة كانت تحملها بيدها.

قالت المرأة:

- هيه! انتهى الشغل؟

- البنت مشغولة بالفرن.

ثم أضافت أوليتا تسألها معتزّة بأنها تستطيع أن تسدي جميلاً:

- هل تريدين ناراً؟

ودخلت المرأتان الدار. وفتحت أوليتا علبة أعواد الكبريت بيديها الخشنتين اللتين لم تألفا تداول الأشياء الصغيرة الدقيقة، فتحتها بخراقة وبغير حذق (وأعواد الكبريت شيء نادر ثمين في القوقاز)، وجلست الزائرة القوية وقد بدا عليها واضحاً أنها تريد أن تثرثر قليلاً.

- وزوجك؟ ألا يزال في المدرسة؟

- نعم، ما يزال يعلِّم، ولكنه كتب يقول إنه آتٍ في الأعياد.

- رجل ذكي، هه؟ هذا مفيد دائماً.

- طبعاً، مفيد.

واستأنفت الزائرة كلامها فقالت:

- اما ابني لوكاشكا فإنه ما يزال في «الكوردون»، لا يسمح له بالعودة إلى البيت.

قالت الزائرة ذلك رغم علمها بأن زوجة الليوتنان لا تجهل هذا الأمر. ولكن كان لا بدّ أن تتكلم عن لوكاشكا الذي دخل في الخدمة العسكرية منذ حين، والذي تود لو تزوجه ماريانا ابنتها.

- هو إذاً في «الكوردون»؟

- نعم، ولم يعد منذ الأعياد. لقد أرسلت إليه قمصانه مع فوما الذي جاءني بأنباء عنه. قال إن كل شيء على ما يرام، وأنهم راون عنه. هم يطاردون الآبريك، ويقول فوما إن لوكاشكا مرح.

- الحمد لله! لا يُنكر عليه أنه «منتشل».

كان لوكا قد لُقِّب بالمُنتشل، لأنه انتشل من الماء حيّاً فأنقذ حياته. وإنما جاءت أوليتا على ذكر هذا لتقول لزائرتها شيئاً يرضيها.

تابعت أم الفتى كلامها فقالت:

- نعم، الحمد لله! إنه ابن طيب، وفتى شجاع. جميع الناس يمدحونه. ولكن ليتني أستطيع أن أزوِّجه فأموت مطمئنة.

فأجابتها العجوز الماكرة وهي تحاول بأصابعها الخدرة أن ترد إلى علبة أعواد الكبريت غطاءها:

- ما أكثر البنات في «الستانتسا»!.

فقالت الأخرى وهي تهزّ رأسها:

- نعم. هذا صحيح، ولكن ابنتك ماريانا لا يقع الإنسان على مثلها في المنطقة كلها.

كانت زوجة الليوتنان تعرف نيّات الزائرة، وكان رأيها في لوكاشكا رأياً حسناً، ولكنها تتحاشى أن تتحدث عنه صراحةً، أولاً لأنها غنية وزوجة ليوتنان، في حين أن لوكاشكا ليس إلا ابن قوزاقي بسيط. وثانياً لأنها لا تحبّ أن تفارقها ابنتها بمثل هذه السرعة. وثالثاً وأخيراً لأن المواضعات الاجتماعية توجب عليها أن تلتزم هذا الموقف.

قالت بلهجة فيها تواضع وتحفّظ:

- لا شكّ أن ماريانا تكبر، وأنها لن تكون أقلّ من غيرها من البنات.

- متى فرغنا من العمل في البساتين، أرسلت الخاطبات يطلبنها منك ومن إيليا فاسيلفتش.

فقالت زوجته الليوتنان بكبرياء:

- لماذا إيليا؟ معي أنا إنما يجب أن يتم التفاهم. ولكن كل شيء يأتي في حينه.

أدركت أم لوكاشكا من قسوة وجه محدّثتها أنها لا يحسن بها أن تلحّ، فأشعلت خرقتها، وقالت وهي تنهض للانصراف:

- لا تنسي ما قلناه يا عزيزتي. سأمضي أشعل فرني.

واجتازت الشارع محرّكةً خرقتها المشتعلة، والتقت بماريانا فحيّتها، فحدّثت المرأة نفسها قائلةً وهي تتبعها ببصرها: «إنها لملكة هذه الفتاة! ما حاجتها إلى أن تكبر أكثر من هذا؟ هي في سنّ الزواج منذ الآن، يجب أن تتزوّج لوكا».

إن أوليتا لها همومها الخاصة. وها هي ذي تبقى جالسة على عتبة الباب، مفكرةً معنّاةً، إلى أن تناديها ابنتها.

6

إن رجال الضيعة يقضون الشطر الأكبر من حياتهم في القيام بحملات أو المرابضة بمخافر «الكوردون». لقد كان لوكا هذا الذي تحدّثت عنه العجوزان، يقوم بعد الظهر من ذلك اليوم نفسه بالحراسة في مخفر نيجني بروتوك على شاطئ النهر. فها هو ذا مستند على درابزين المرصد ينظر تارةً إلى الأفق باحثاً طارفاً عينيه، ويرتد ببصره إلى رفاقه تحته تارةً أخرى يبادلهم بعض الكلمات.

الشمس تميل نحو الذرى المغطاة بالثلج، التي تسطع مطلّةً على أكداس من سحب يغزوها الظلّ شيئاً فشيئاً. الهواء شفاف كما يكون في المساء. الطراوة أخذت تصعد من الغابة الكثيفة المتوحّشة،

ولكن الحرّ ما يزال يحيط بالمخفر. أصوات القوزاق يزداد ترجُّعها قوةً، وتبقى كالمعلقة في الهواء الساكن. تيار النهر المتحرك الأسمر يغلب سكون شاطئيه. ماؤه الآن في شحّ، فهنا وهناك يرى المرء في شاطئيه خطوطاً من رمل رطب. كل شيء على الضفة الأخرى أمام المخفر خالٍ مقفر. وهذا بساط واسع من القصب القصير يمتد حتى يبلغ سفح الجبال. وهذه منازل قرية تشاشانية قد ظهرت متنحيّة بعض التنحّي، سقوفها منبسطة، ومداخنها أقماع.

كانت عينا الفتى القوزاقي، النافذتان الحادّتان، تستطيعان، من حيث يقف على المرصد، أن تتابعا من خلال دخان القرية حركة قامات النساء التشاشانيات اللواتي يرتدين ألبسة زرقاء وحمراء.

وكان على القوزاق أن يتوقّعوا في كل لحظة هجوماً يقوم به الآبريك عليهم، وهو هجوم سهل سهولةً خاصة في شهر أيار (مايو)، حين تبلغ الغابة من الكثافة على طول نهر تيريك حداً يصعب على المرء أن يشقّ لنفسه طريقاً فيها، وتبلغ مياه النهر من الانخفاض لدرجة يمكن قطعه في بعض المواضع مخاضةً. ولكن القوزاق، رغم أن الكولونيل قد أصدر إليهم أمس الأول أمراً بأن يزيدوا يقظتهم، إذ بلغه من بعض العملاء أن عصابة من التشاشان عدد أفرادهما ثمانية تتأهّب لاجتياز النهر، لم يتخذوا أي احتياط. فهم يتصرّفون تصرّف أناس يعيشون في بيوتهم. قد تركوا أسلحتهم، ونضوا عن خيولهم أسرجتها، وراح بعضهم، يصطاد في النهر أو البر، وعكف بعضهم الآخر على الشراب. ولم يبقَ إلا حصان الخفير مسرجاً مشكولاً عند طرف الغابة، ولم يبقَ إلا الخفير حاملاً سيفه وبندقيته. وهذا هو المساعد (إنه قوزاقي فارع القامة نحيل الجسم، له ظهر طويل مسرف في الطول، وأطراف قصيرة) قد جلس على درجات كوخ من

الأكواخ، مغمض العينين محلول أزرار السترة، قد انتشر في وجهه تعبير عن ضجر شديد، راح يسند رأسه تارةً على هذه اليد وتارةً على اليد الأخرى. وهذا قوزاقي طاعن في السن، ذو لحية عريضة شائبة، يرتدي قميصاً محزوماً بزنار من جلد، قد استلقى على شاطئ النهر وراح يتأمّل تياره السريع الرتيب. وهؤلاء رجال آخرون مرهقون بالحرّ أيضاً، قد خلعوا ثيابهم تقريباً، وانهمكوا في غسل ملابسهم بماء النهر، أو في ضفر أجمة صغيرة، أو رقدوا على رملة الشاطئ المحرقة مدندنين أغنية من الأغنيات. وهذا قوزاقي هزيل الوجه ذابل اللون قد أخذ منه السكر كل مأخذ، فرقد على ظهره بقرب جدار الكوخ الذي يغمره الظل قبل ساعتين ولكن أشعة الشمس المائلة تنصب الآن عليه انصباباً.

إن لوكاشكا، الواقف على المرصد، فتى طويل جميل، في نحو العشرين من عمره، يشبه أمّه كثيراً، وإن وجهه، وجسمه، الذي ما يزال فيه شيء من خراقة الشباب، تشع فيهما مع ذلك آيات قوة البدن وقوّة النفس. وهو رغم أنه لم ينخرط في الخدمة العسكرية إلا منذ مدة وجيزة، فإن وجهه والثقة الهادئة المطمئنة في وضعه تعبّر صراحة عن أنه قد تبنّى وقفة الاعتزاز العسكرية التي نعرفها في القوزاق ونعهدها على وجه العموم في أولئك الذين ألفوا السلاح. إن المرء ليحسّ أن الفتى يشعر بكرامته وبقيمته. ولقد كان رداؤه الفضفاض ممزقاً في بعض المواضع، وكانت طاقيته مرتدةً إلى وراء على طريقة الجبليين، وكان درعا ساقيه نازلين إلى ما تحت الركبتين، ولئن لم تكن ثيابه ثرية، فقد كان أنيقاً في ارتدائها تلك الأناقة التي يصطنعها القوازق مقلّدين الدجيغية. أن الدجيغيت الحق يرتدي ثياباً فقيرة ارتداءً فيه إهمال، وإنما يجب أن تكون أسلحته غنية. إن له

طريقة خاصة في ارتداء ملابسه الممزّقة، وترتيب أسلحته، وشدّ حزامه، وهي طريقة لا يعرفها جميع الناس، ولكنها تخطف بصر القوزاقي والجبلي. إن لوشكا يتقن اصطناع هذا الوضع الدجيغيتي. لقد عقد يديه وراء رأسه، وغضّن جفنيه، وسرّح بصره إلى القرية البعيدة لا يحوّله عنها لحظة. ليست قسمات وجهه متسقة، ولكن المرء حين يرى أطرافه القوية، وطلعته الذكية ذات الحاجبين الأسودين، لا يملك إلا أن يقول: «يا للفتى الشجاع الجميل!».

قال بصوته القاسي كاشفاً عن أسنان ناصعة البياض، دون أن يتجه بالكلام إلى أحد بعينه:

– ما أكثر هؤلاء النساء!

سرعان ما رفع نازار رأسه، وقد كان راقداً غير بعيد، فقال:

– لا بدّ أنهن ذاهبات لمتح الماء.

فقال لوكاشكا ضاحكاً:

– طلقةً من بندقية فيحدث هرج ومرج بينهن من شدّة الرعب!

– لا يصل صوت بندقيتك إلى هناك!

– ما هذا الكلام؟ بل هو يصل إلى أبعد من ذلك! انتظر قليلاً. سيحلّ عيدهم قريباً. فاذهب واشرب «بوظة» عند قيراي خان.

بذلك أجاب لوكاشكا وهو يذبّ عنه البعوض الذي يلتصق به التصاقاً، وقد نفذ صبره.

وسمع القوزاق خشخشة بين فروع الشجيرات بالغابة، ثم ما لبث أن ظهر لهم كلب زاحف هجين مبرقش يحرّك ذيله المعط سائراً في طريق مشقوقة. وسرعان ما عرف لوكاشكا الكلب. إنه كلب جاره، العم ياروشكا، الصياد، الذي لم تلبث قامته أن ظهرت من بين الشجيرات بعد قليل.

إن العم ياروشكا قوزاقي ذو لحية طويلة بيضاء، وقامة ضخمة، ولكن كتفيه وصدره تبلغ من العرض، وأطرافه القوية تبلغ من التناسب أنه في الغابة لا يبدو طويلاً ذلك الطول كله، لأن الغابة ليس فيها مقاييس يقاس بها وينسب إليها. هو يرتدي سترة ممزّقة مما يرتديه العمال، ويحتذي نعلين من جلد الأيّل تشدهما إلى ساقيه خيوط معقودة عليهما، وتكمّل هذا الزيّ طاقية ليست بذات شكل، كان يحمل على إحدى كتفيه منصباً لصيد التدرّج، وكيساً فيه فرخ دجاج وباز صغير لاستدراج كواسر الطير. وكانت تترجّح على كتفه الأخرى قطة برية مشكولة بسيرٍ من جلد قد قتلها منذ قليل. وعلى حزامه كان يعلّق كيساً صغيراً فيه خرطوشات وبارود، وفيه خبز أيضاً، كما يعلق ذيل حصان لطرد الذباب، وخنجراً قديماً مثقوب الغمد ملطّخاً بدم متخثر، وتدرّجين مقتولَيْن.

فلما رأى المخفر وقف، وصاح ينادي كلبه بصوت جهير بلغ من شدّة الرنين أنه ترجّع بعيداً في آخر الغابة:

- هيه! ليام.

وردَّ على كتفه بندقية ضخمة ذات مكبس يسميها القوزاق «فلنتا»، وخلع طاقيته، وقال مرحاً محيياً بذلك الصوت الرنّان نفسه، من دون أي جهد، ولكن كأنه يخاطب أحداً على الشاطئ الآخر من النهر:

- كيف الحال يا شباب؟

فأجابه عدة شبان معاً في فرح قائلين.

- مرحباً بالعم! مرحباً!

فصاح العم ياروشكا وهو يجفّف بطرف كمه العرق المتصبّب من وجهه العريض المتّقد:

- ماذا رأيتم؟ قولوا!

قال نازار وهو يغمز بعينه:

- اسمع! إنَّ على شجرة الدلب هذه نسراً يا له من نسر! إنني أسمعه كلَّ مساء.

قال الشيخ مرتاباً:

- ما هذا الذي تقوله؟

- حقاً يا عم! قف على المرصد فترى!

كذلك أكَّد نازار ضاحكاً. وانطلق القوزاق يضحكون.

إنَّ نازار لم يكن قد رأى نسراً، غير أن الشبان القوزاق الذين يرابطون في «الكوردون» قد ألفوا إغاظة العمّ ياروشكا مداعبين، وتدبير المكائد كلما جاء.

قال لوكاشكا مؤنّباً نازار من أعلى مرقبه:

- كفى ثرثرة!

سرعان ما سكت نازار. وما كان أشدّ ارتياح الشبّان القوزاق حين استأنف الشيخ كلامه فقال:

- إذا وجب عليَّ أن أتربّص فسوف أتربَّص. والخنازير البرية، هل رأيتم خنازير برية؟

فقال المساعد مغتبطاً بفرصة التسلية هذه التي سنحت له:

- هل تظن أن رؤية الخنازير أمرٌ سهل؟

وأخذ يحكّ ظهره بكلتا يديه. وأردف يقول:

- نحن لا نصطاد هنا خنازير برية بل نصطاد رجالاً من الآبريك هل سمعت شيئاً عمّا يحدث عندهم؟

أضاف المساعد هذا السؤال مغضناً جفنيه كاشفاً عن أسنانٍ عريضة متراصة.

أجابه الشيخ:

- عند الآبريك؟ لا، لم أسمع شيئاً. ولكن قل لي أيها الفتى الشجاع، أليس معك شيء من «التشيخير»؟ إنني متعب حقاً. أمهلني قليلاً، فأجيئك بصيد، فهات قليلاً من «التشيخير»!

سأل المساعد وكأنّه لم يسمع ما قاله الشيخ:

- تريد أن تتربّص، هه؟

- نعم، أريد أن أتربص ليلةً. فمن يدري؟ لعلّ الله يرسل إليَّ طريدة عظيمة! وسأعطيك منها حينئذٍ. حقاً!

صاح لوكاشكا يقول بصوتٍ نافذ جذب انتباه الجميع، فالتفتوا كلّهم إليه:

- هيه! عمّ! اصعد قليلاً في عكس اتجاه النهر، فإنَّ هناك قطيعاً كبيراً من الخنازير البرية. إنَّ أحد رجالنا قتل واحداً منها منذ أيام. حقاً، لا أكذب!

أضاف هذه الجملة الأخيرة بلهجة تُظهر إظهاراً واضحاً أنه لا يمزح. فهتف الشيخ رافعاً بصره:

- هه! لوكاشكا المنتشل هنا؟ وأين قتلوا ذلك الخنزير؟

قال لوكا:

- ألم تره من قبل؟ فلا بدَّ أنه صغير جداً!

ثم أضاف يقول بلهجة جادة وهو يهزّ رأسه:

- بقرب الحفرة يا عمّ. نعم، كنا نحاذي الحفرة، فإذا بجلبةٍ يا لها من جلبة! وكانت بندقيتي في القراب، فأطلق عليه إلياشا ولكنّه أخطأه. سأدلّك على المكان، ليس بعيداً. أمهلني قليلاً. إنني أعرف جميع ممراتها.

وأردف يقول بلهجةٍ شبه آمرة، متجهاً بكلامه إلى المساعد:

- يا عمّ موسيف، حانت ساعة التبديل.

حمل بندقيته ونزل عن مرصده من دون أن يؤمر بذلك.

قال المساعد موافقاً وهو ينظر حوله:

- انزل. هل جاء دورك أنت يا جوركا؟ هلمَّ إذن!

وأضاف المساعد يقول ملتفتاً إلى الشيخ:

- أصبح عفريتاً، صاحبك لوكاشكا! إنه لا يمكث في بيته أبداً، وهو يجول في الطرقات، مثلك تماماً. قتل واحداً منذ أيام.

7

غربت الشمس، وتقدّمت ظلال الليل سريعةً من جهة الغابة، وأنهى القوزاق أعمالهم حول المخفر، واجتمعوا في الكوخ للعشاء. لكن الشيخ لبث تحت شجر الدُّلب يتربّص بالنسر، ويجرُّر الباز الصغير من حينٍ إلى حين مربوط الرجل. والنسر لا ينزل من الشجرة مع ذلك. وأخذ لوكاشكا من جهته يضع أفخاخاً على مهل، في الممرات الصغيرة التي شقّتها طيور التدرج بين الشجيرات الكثيفة النابتة من أرومات الأشجار المقطوعة، ويدندن أغنية بعد أغنية. إن قامته الطويلة ويديه الكبيرتين لا تمنعه أن يكون بارعاً في الأشغال الصغيرة كبراعته في الأعمال الكبيرة.

صاح نازار يقول بصوته الحاد من أعماق حرج الشجيرات:

- هيه! لوكا! مضى القوزاق يتعشّون!

وهاهو ذا نازار يظهر شاقاً لنفسه طريقاً بين النبت الشائك، فإذا تحت إبطه تدرج حي.

فهتف لوكاشكا يسأله:

- من أين أخذته؟ لا شك أنك أخذته من أحد أفخاخي!

إن نازار في سنِّ لوكاشكا، وقد جُنِّد في الربيع مثله. هو فتى

قصير القامة، هزيل الجسم، دميم الوجه، له صوت حاد يثقب الأذن ثقباً. والشابان جاران وصديقان.

استمر لوكاشكا في ترتيب أحابيله جالساً على الأرض جلسة التتر. وأجاب نازار:

- لا أدري. لعلّه فخّك!

- وراء الوادي، أليس كذلك؟ قرب شجرة الدّلب القديمة؟ إذن هو لي، نصبته أمس.

ونهض لوكاشكا وأخذ ينعم النظر في التدرج، حتى لقد لاعب رأسه الأسمر الذهبي، فكان الطير يمط رقبته، ويجيل عينين مرتاعين.

- سنطبخ به بيلافاً. اذبحه ثم انتفه.

- أنأكله أم نعطيه للمساعد؟

- عند المساعد ما يكفيه وزيادة!

قال نازار:

- ذلك أنني لا أحب ذبح الحيوانات.

- طيّب. هاته.

واستلّ لوكاشكا سكيناً صغيرة كانت تختفي تحت خنجره، وطعن بها الطائر، فانتفض التدرج، ولكنه حتى قبل أن يبسط جناحيه سقط رأسه الدامي على الأرض.

قال لوكاشكا وهو يرمي الطائر على الأرض:

- هكذا يُفعل! سيكون لنا منه بيلاف مدهش!

نظر نازار إلى الطائر مرتعداً. ثم قال:

- اسمع يا لوكاشكا، إن هذا الشيطان (يقصد المساعد) سوف يعيِّننا هذه الليلة أيضاً للحراسة في مخفر متقدم. لقد أرسل فوما ليجيئه

بشيء من التشيخير، مع أن دور فوما في الحراسة الليلة. كم ليلة سهرنا حتى الآن؟ دائماً يقع العبء علينا.

وعاد لوكاشكا يصعد نحو المخفر صافراً. وصاح يقول لنازار:

- خذ السلك.

فأسرع نازار يطيعه. واستأنف كلامه فقال:

- أقسم بشرفي لأقولنَّ له ذلك اليوم: لن نذهب، لا نستطيع، وكفى! قل له هذا فيرضخ حقاً. ماذا يريد أخيراً؟

أجابه لوكاشكا الذي كان تفكيره منصرفاً إلى غير ذلك:

- ما بالك تتحمّس؟ لو كان يخرجنا في الليل من «الستانتسا» لكان ذلك مزعجاً، فنحن في «الستانتسا» نتسلّى؟ أما هنا، فأي فرق بين أن نبقى في «الكوردون» وبين أن نتولّى الحراسة في مخفر متقدّم؟ الأمران سيّان.

- هل ستذهب إلى «الستانتسا»؟

- نعم، في العيد.

قال نازار:

- جوركا يقول إن صاحبتك دونيا تتسلّى مع فوما.

فأجاب لوكاشكا كاشفاً عن أسنانه البيضاء ولكن بدون ضحك:

- فلتذهب إلى الشيطان! أتظن أنني لن أجد سواها؟

- هكذا يحكي جوركا. يقول إنه ذهب إليها، فرأى زوجها غائباً، ورأى فوما جالساً إلى طبق من الحلوى، فلما انصرف بعد لحظة، مرَّ تحت النافذة، وسمع دونيا تقول لفوما: «رحل الشيطان. لماذا لا تأكل أكثر، يا حبيبي؟ ابقَ الليلة هنا!» وقد صاح جوركا تحت النافذة قائلاً «حلو!».

- لا...

- أحلف لك...

فصمت لوكاشكا لحظة، ثم قال:

- فلتذهب إلى الشيطان إذا كانت قد وجدت رجلاً آخر. ما أكثر البنات! ثم إنني قد بدأت أشمئز منها منذ مدة.

قال نازار:

- ما أغرب أمرك! عليك أن تغازل ماريانا، أبتة الليوتنان. ما رآها أحد مرةً مع شاب!

فقطّب لوكا حاجبيه، ثم قال:

- لماذا ماريانا؟ هي أو غيرها!...

- حاول قليلاً لترى!

- ليست البنات هي ما يعوز «الستانتسا»!

وعاد لوكاشكا يصفّر. كان يذرع أرض «الكوردون» وينتزع في طريقه من الشجر أوراقاً. حتى إذا رأى شجيرة مستقيمة منتصبة ملساء، توقّف فقطعها، وقال شارحاً وهو يضرب الهواء بالجذع المرن:

- هذه تصلح سيخاً لبندقيتي.

كان القوزاق قد أخذوا يتعشّون جالسين على الأرض حول مائدة واطئة. وكانوا يتكلّمون عن الحراسة في المخفر المتقدّم.

صاح أحد القوزاق سائلاً المساعد من خلال الباب المشقوق:

- لمن الحراسة هذه الليلة؟

فردّ المساعد سائلاً:

- لمن الدوز اليوم؟

ثم أضاف يجيب نفسه بدون اقتناع:

- بورلان قام بالحراسة، وفوموشكين أيضاً.

ثم أردف مخاطباً لوكاشكا:

- فاحرسا الليلة أنتما، أنت ونازار. وسيشارككما يارجوشوف. لعلّه شبع نوماً.

قال نازار بصوتٍ خافتٍ:

- أنت لا تشبع نوماً في يومٍ من الأيّام، فلماذا لا يفعل مثلك؟

فأخذ القوزاق يضحكون!

إنَّ يارجوشوف هو ذلك القوزاقي السكران الذي كان نائماً أمام الكوخ. ولقد داهم الكوخ في تلك اللحظة ذاتها فاركاً عينيه.

كان لوكاشكا واقفاً يفحص بندقيته.

وقال المساعد:

- متى فرغتم من الطعام فاذهبوا بغير إبطاء!

وأغلق الباب من دون أن ينتظر موافقة.

كان واضحاً أنه لا يأمل كثيراً أن يطيعه القوزاق بسرعة، ولذلك أردف يقول:

- لولا أن أوامر صدرت إليَّ لما أرسلتكم. ولكن فكِّروا قليلاً: ما عسانا نفعل إذا باغتنا الملازم. ثم ... يظهر أن ثمانية من الآبريك قطعوا النهر.

قال يارجوشوف:

- لا مفرّ. يجب أن أذهب. لا مجال لعصيان الأوامر في مثل هذه الحالة. أقول لكم الحقيقة، يجب أن نذهب.

وفي أثناء ذلك كان لوكاشكا يمسك بيديه قطعة كبيرة من التدرج، وينظر تارةً إلى المساعد وتارةً إلى نازار، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، وبان في وجهه أنه غير مكترث بكل ما يجري.

لم يكن القوزاق الذين عيّنوا للحراسة قد أتمّوا استعدادهم بعد، ولكن العمّ ياروشكا ظلّ متربّصاً تحت شجرة الدِّلب حتى هبوط الليل من غير طائل، يدخل الكوخ المظلم، فيدوّي فيه زئير صوته الجهير مغطياً سائر الأصوات قائلاً:

- سأصحبكم يا أولاد! تتربَّصون أنتم بالتشاشان وأتربَّص أنا بالخنازير البريَّة.

8

كان الظلام قد اشتدَّ حين غادر العمّ ياروشكا والقوزاقيون الثلاثة، المرتَدون دثاراً أسود من لباد، الحاملون بندقيّاتهم على الأكتاف، حين غادروا «الكوردون» وساروا على موازاة نهر تيريك، متّجهين إلى المكان الذي عُيِّن لهم من أجل أن يتّخذوه مخفراً متقدِّماً. كان نازار لا يريد أن يذهب، ولكن لوكاشكا نَهَره فأطاع. حتى إذا اجتازوا الخندق صامتين، سلكوا ممراً صغيراً بين القصب لا يكاد يُرى، فقادهم إلى قرب النهر. كان النهر قد ألقى إلى ذلك المكان عارضة سوداء ضخمة، وكانت أعواد القصب من حول العارضة قد داستها أقدام منذ مدة قصيرة.

قال نازار يسأل:

- هنا نقف؟

فأجابه لوكاشكا بقوله:

- لم لا؟ اجلس أنت وسأعود إليك في الحال. أريد أن أُري العم شيئاً.

قال يارجوشوف شارحاً:

- المكان هنا حسن. لا يرانا أحد ونرى نحن كل شيء. فلنبق هنا!

وخلع نازار ويارجوشوف دثاريهما، وبسطاهما على الأرض وجلسا فوقهما وراء العارضة، بينما كان لوكاشكا والعمّ ياروشكا يتوغّلان في الليل.

قال لوكاشكا وهو يمشي أمام الشيخ من دون أن يحدث أية ضجة:

- الموضع قريب من هنا كلّ القرب. سأريك أين تمر الخنازير البرية. أنا وحدي أعرف السبيل الذي تسلكه.

فأجابه الشيخ وهو يزفر:

- هيّا! إنك لفتى شهم!

ما هي إلا خطوات حتى وقف لوكاشكا، ومال على بركة صغيرة، وصفّر صفرة خفيفة، وقال:

- إلى هذه البركة تأتي الخنازير البريّة لتشرب.

ثم أضاف مدمدماً وهو يشير إلى آثار أقدامها على الأرض:

- هل ترى؟

فأجابه الشيخ:

- باركك الرب. لا شكّ أن الوحل الذي تتمرّغ فيه ليس بعيداً. سأبقى أنا هنا، فانصرف أنت!

وضع لوكاشكا دثاره على كتفيه، وعاد محاذياً شاطئ النهر وهو يلقي نظرات سريعة على يساره تارةً، وعلى أعواد القصب تارةً أخرى، وعلى نهر تيريك الهادر تارة ثالثة. وقال يحدّث نفسه منصرفاً بفكره إلى الآبريك: «هم أيضاً يتربَّصون بنا، أو يزحفون على الأرض في مكانٍ قريب». وبينما هو يحدث نفسه بذلك، إذا هو يسمع قرقعة قوية بين القصب، وإذا بالقرقعة تتبعها بقبقة فب الماء، فيرتعد، ويمسك بندقيته، ثم إذا هو يبصر خنزيراً برياً يبدو بارزاً أمام صفحة

الماء اللألاءة. لقد انبجس الخنزير من حافة الطريق وغار بين أعواد القصب زافراً محمحماً. وصوَّب لوكاشكا بندقيته، ولكن الوقت لم يتسع لإطلاق النار، فقد غاب الحيوان، فبصق القوزاقي من شدّة غضبه، حتى إذا صار على مقربة من المخفر المتقدّم، توقّف مرة أخرى، وصفر صفيراً خفيفاً، فردَّ عليه صفير آخر، ووصل لوكاشكا إلى رفيقيه.

كان نازار قد نام متلفّفاً بدثاره. وكان يارجوشوف جالساً القرفصاء، فتقهقهر قليلاً حتى يفسح للوكاشكا مكاناً.

- ما أحسنه من موقع نحسن المرابطة والسهر فيه! هل دللته على المكان؟

أجاب لوكاشكا وهو يبسط دثاره على الأرض:

- نعم، وقد رأيت بقرب الشاطئ خنزيراً كبيراً. لا شك أنه هو ذلك الخنزير نفسه. هل سمعت الضجّة التي أحدثها بين الشجيرات؟

- نعم. سمعت طقطقة، فأدركت أنه حيوان، وقلت لنفسي: هذا لوكاشكا يكتشف حيواناً ضخماً!

قال يارجوشوف ذلك وهو يتلفّف بدثاره. ثم أضاف:

- سأغفو الآن قليلاً. أيقظني بعد صياح الديك. لا بدّ من اتباع نظام. وبعد ذلك تنام أنت وأسهر أنا. ذلك...

فقاطعه لوكاشكا قائلاً:

- أشكرك. ولكنني لا أشعر بنعاس...

كان الليل حالك الظلمة، هادئاً، رطباً. وكانت النجوم تتلألأ في جهة من السماء، أما الجهة الأخرى فقد اجتاحتها غيمة ضخمة كانت تختلط بكتلة الجبال القاتمة، وتتقدّم بطيئة، وما تنفكّ تتوغّل في تقدّمها مشرَّمة الحواشي بارزةً على سماء عميقة تتبعثر فيها النجوم.

كان لوكاشكا يرى أمامه النهر والأقاصي التي بعد النهر، أما وراءه وعلى جانبيه فكانت أعواد القصب تحجب كل شيء. وتأخذ بالتحرّك والهمهمة على حين فجأة بدون سببٍ ظاهر. وكانت رؤوسها المشعثة المهتزة التي يراها لوكاشكا هذه الرؤية من تحت، ووراءها سماء صافية، تجعلها أشبه في نظره بأغصان أشجار ذات أوراق. وكان النهر يفور عند قدمي لوكاشكا تحت الحافة. فإذا نظر إلى أبعد من ذلك رأى تلك الشبكة نفسها من الغصون حول كثبان من رمل، فإذا أوغل في النظر إلى أبعد من ذلك أيضاً تراءى له الماء والشطآن والسحاب تختلط جميعها في ظلمة واحدة. وكانت أطياف سوداء تخطر في بعض الأحيان على صفحة الماء، فكانت عينا القوزاقي الخبيرتان تدركان أنها أرومات يجرفها التيار. وقد يبرق ضوء خفيف في بعض اللحظات، فينعكس على ماء النهر انعكاسه على مرآة سوداء، فيرتسم خط الضفة الأخرى أمام بصر لوكاشكا لحظة خاطفة. وكانت ضجّات الليل الرتيبة، وهمهمة أعواد القصب، وشخير القوزاقيين النائمين، ودندنة البعوض، واصطفاق الماء، يتخلّلها من حينٍ إلى حينٍ انفجارٌ بعيد، أو انهدام في الحافة، أو لهو سمكة ضخمة، أو تطقطق النباتات الشائكة تحت أقدام حيوان في الغابة.

وهذه بومة تطير على طول نهر تيريك خافقة جناحيها خفقاً موزوناً، حتى إذا صارت فوق القوزاق الثلاثة انعطفت نحو الغابة فجأة، واضطربت مدة طويلة ثم حطَّت على شجرة مسنّة من أشجار الدِّلب. إنَّ لوكاشكا الساهر يصيخ بسمعه إصاخة شديدة كلما سمع صوتاً غير مألوف، ويطرف بعينيه، ويتلمّس بندقيته.

هكذا انقضى الشطر الأكبر من الليل. وكانت الغيمة السوداء قد امتدّت حتى بلغت الغرب. وكانت حواشيها المشرَّمة تتيح للناظر أن

يلمح وراءها السماء ذات النجوم، وهلال القمر المقلوب الذي كان ضياؤه الضارب إلى حمرة يصبغ الجبال بلون الذهب. واشتدّت برودة الهواء. واستيقظ نازار، وقال بضع كلمات، ثم عاد يغطّ في نومه. وأخذ لوكاشكا يشعر بضجر. فاستلّ سكينه الصغيرة من تحت خنجره وأخذ يقلّم سيخاً لبندقيته. كانت تطوف في رأسه خواطر غامضة، يتصوّر حياة التشاشان في الجبال، وغارات فرسانهم (الدجيغيت) الذين يقطعون النهر غير خائفين من القوزاق، وكان يقول لنفسه إن في وسعهم أن يقطعوا النهر في مواضع أخرى كثيرة أيضاً. وكان عندئذٍ يمد رقبته متفحّصاً شواطئ النهر بانتباه شديد، فلا يبصر شيئاً. رغم ومع استمراره في التحديق إلى النهر والضفة الأخرى من حين إلى حين - وكان لا يكاد يميِّز الضفة الأخرى عن ماء النهر في ضوء الهلال الضعيف- كفَّ عن التفكير في التشاشان، وأصبح لا ينتظر إلاّ اللحظة التي يوقظ فيها رفيقيه من نومهما، فيعودون إلى القرية. وما كان أشدّ غضبه حين تصوَّر دونيا، «روحه»، كما يسمّي القوزاق عشيقاتهم!

هبَّ ضباب بلون الفضة بيَّض صفحة الماء. وخفقت نسور صغيرة أجنحتها صافرة بصوتها الحاد، مؤذنة بانبلاج الفجر. وأخيراً وصل من القرية صياح أول ديك، فردَّ عليه ديك ثان، ثم ردَّت عليه ديكة كثيرة. فقال لوكاشكا لنفسه: «آن أوان إيقاظهما». وكان قد فرغ من تقليم سيخه، وأخذ يشعر بثقل في أجفانه. فمضى إلى قرب رفيقيه اللذين تلاصق جسماهما تلاصقاً شديداً، وحاول أن يعرف إلى أيٍّ واحدٍ منهما تنتمي هذه الساق أو تلك من السيقان الأربعة.

وإنّه لكذلك إذا هو يخيَّل إليه فجأة أنه يسمع تلاطم ماء عند الضفة الأخرى. فعاد يحدق إلى الأفق المبيضّ والجبال التي يصبغها

ضياء الهلال المقلوب والشاطئ الثاني والنهر والأرومات التي يجرفها التيار والتي أصبح النظر يستطيع أن يراها واضحة. فتراءى له أنه هو الذي يتقدّم، أما مياه النهر وأروماته فثابتة لا تتحرك. غير أن هذا الوهم لم يدم أكثر من لحظة. ونظر الشاب من جديد، فلفتت انتباهه أرومة ضخمة سوداء كثيرة العقد. كانت هذه الأرومة تتقدّم في وسط النهر تقدّماً غريباً، فهي لا تدور على نفسها، ولا تترجّح، حتى لقد بدا له أنها لا يجرفها التيار وإنما هي تقطع التيار متّجهة نحو كثبان الرمل. مدَّ لوكاشكا عنقه وأصبح لا يحول عنها بصره. ووصلت الأرومة إلى كثيب من الرمل، فوقفت عنده، وأخذت تتحرّك تحرّكاً عجيباً. وخيِّل إلى لوكاشكا أنه يرى يداً تخرج من تحتها. فسرعان ما قال لنفسه: «هذا واحد من الآبريك! سأقتله وحدي!». تناول بندقيته، وبحركات سريعة، ولكن بدون تعجّل، وضع الركيزة وأسند عليها البندقية، ورفع الديك حابساً أنفاسه، وصوَّب تصويباً دقيقاً وهو ما يزال يتفرّس في الأرومة. قال محدِّثاً نفسه: «لن أوقظهما». ومع ذلك أخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً، وتجمّد في مكانه، ومدَّ أذنيه، فإذا هو يسمع تلاطماً في الماء مرة أخرى، وعامت الأرومة من جديد متجهة إلى ضفة القوزاق. قال لوكاشكا لنفسه: «آمل أن لا أخطئه!». وفي ضوء القمر الشاحب لمح رأس تتري في مقدمة الأرومة. فسدَّد سلاحه إلى هذا الرأس الذي بدا له قريباً من السبطانة كلّ القرب. وألقى من فوق السبطانة نظرة، فثبت له ما قدَّره «هو واحد من الآبريك!». ففرح بذلك فرحاً عظيماً وارتمى يجثو على ركبتيه بسرعة، وعاد يشغِّل سلاحه، واهتدى إلى الشعيرة التي كان لا يكاد يبصرها في آخر بندقيته، وعملاً بعادة قوزاقية قديمة رسخت في نفسه منذ الطفولة تمتم يقول: «المجد للآب، والابن...»، وضغط على الزناد. فإذا ببرق

يضيء القصب والنهر لحظة. وترجع صوت الانفجار الخشن العنيف في الأقاصي وغاب في همهمة طويلة. وأصبحت الأرومة لا تقطع التيار وإنما يجرفها التيار في اتجاهه، وأصبحت تدور وتترجّح.

صرخ يارجوشوف قائلاً وهو ينهض وراء العارضة ويبحث عن بندقيته متلمّساً:

- تأهّب!

فهمس لوكاشكا يقول له كازًّا أسنانه:

- اسكت يا غبي! هم الآبريك!

وسأل نازار:

- على من أطلقت النار؟ على من أطلقت النار يا لوكاشكا؟

فلم يجب لوكاشكا، لأنه كان يلقِّم بندقيته مرَّةً أخرى، ويتابع بنظره الأرومة التي كانت تبتعد. وسقطت الأرومة بعد قليل على كثيب من الرمل، وظهرت وراءها كتلة سوداء تترجَّح فوق الماء.

قال القوزاقيان يلحَّان في السؤال:

- هيه! على من أطلقت النار؟ لماذا لا تجيب؟

قال لوكاشكا مكرراً:

- قلت لكما هم الآبريك!

- كفى مزاحاً! انطلقت نار بندقيتك من تلقاء نفسها، أليس كذلك؟

- بل قتلتُ رجلاً من الآبريك!

قال لوكاكشا ذلك بصوت يقطِّعه الانفعال وهو ينهض فجأة. وأضاف يشرح وهو يشير إلى كثيب الرمل:

- كان يسبح... فقتلته... انظرا!

كرَّر يارجوشوف قوله وهو يفرك عينيه:

- كفى مزاحاً!

فصرخ لوكاكشا قائلاً له وهو يمسك كتفيه ويشدّه إليه بقوة أوجعت يارجوشوف حتى أخذ يئنّ:

- مزاحاً؟ ألا نظرت؟ انظر هنا!

فنظر يارجوشوف في الاتجاه الذي أشار إليه لوكاشكا، فرأى الجثة، فإذا هو يغيِّر لهجة كلامه فجأةً ويقول بصوتٍ خافتٍ وهو يتفقَّد بندقيته:

- ها... لا بدّ أن هناك كثيراً غيره... صدِّقني... أنا أقول لك ذلك. لم يكن هذا الرجل الأول إلا كشَّافاً. والآخرون إما أنهم هنا وإما أنهم ليسوا بعيدين في الجهة الأخرى. أنا أعرف ماذا أقول!

حلَّ لوكاشكا حزامه، وأخذ يخلع جلبابه.

فصرخ يارجوشوف قائلاً له:

- إلى أين تذهب يا أحمق؟ حاول أن تذهب فتموت. أنا أقول لك هذا. إذا كنت قد قتلته فلن يهرب! أعطني قليلاً من البارود. هل معك بارود؟ وأنت يا نازار، أسرع إلى «الكوردون»، ولكن لا تتبع ضفة النهر، وإلا قتلوك... أنا أقول لك هذا!

- أأذهب أنا؟ بل اذهب أنت!

كذلك قال نازار متذمِّراً.

ولما فرغ لوكاشكا من خلع جلبابه، تقدَّم من حافة النهر. فقال يارجوشوف وهو يسكب قليلاً من البارود على جفنة بندقيته:

- لا تذهب إليه! قلت لك لا تذهب! ألا ترى أنه جثة هامدة. والصباح قريب، فانتظر أن يأتينا ناس من «الكوردون». هلمَّ إلى «الكوردون» يا نازار! أخائف أنت؟ لا تخف! قلت لك لا تخف!

قال نازار ملحّاً:

- لوكاشكا! هيه! لوكاشكا! قل لي كيف قتلته؟

كان لوكاشكا قد غيَّر رأيه. وها هو ذا يقول:

- اذهبا إلى «الكوردون» كلاكما، وسأبقى أنا هنا. قولا للقوزاق أن يرسلوا رجالاً للاستطلاع. فإذا كان الآبريك هنا فيجب أخذهم.

فقال يارجوشوف محبِّذاً وهو ينهض:

- هذا ما أقوله. سوف يهربون، فيجب أخذهم!

رسم يارجوشوف ونازار إشارة الصليب، وسارا إلى «الكوردون»، ولكنهما لم يتبعا الضفة وإنما اخترقا الآجام ليصلا إلى طريق في الغابة.

وكان يارجوشوف قد نصح لوكاشكا قبل انصرافه بقوله:

- حذار أن تتحرّك يا لوكاشكا وإلا قطعوا عنقك! وكن مفتِّح العينين، أنا أحذِّرك.

فأجابه لوكاشكا:

- أعرف أعرف. هيَّا أسرع!

عاد لوكاشكا يجلس على العارضة الصغيرة بعد أن تحسّس بندقيته. فلما صار وحيداً ظلَّ يحدِّق بعينيه إلى كثيب الرمل، ويصيخ بسمعه منتظراً رفاقه. ولكن المسافة التي تفصله عن «الكوردون» بعيدة، فكان نفاد الصبر يعذِّبه تعذيباً شديداً حين يتصوّر أن الآبريك الذين يتبعون الكشاف سوف يفرون. وكان يحقد على هؤلاء الآبريك حقده على الخنزير البري الذي أُفلت منه في الليل. كان يتأهّب لإطلاق النار. ينظر حوله تارة، وينظر إلى الضفة الأخرى تارةً ثانية، ويتوقَّع في كلِّ لحظةٍ أن ينبجس له عدوّ جديد. أن من الممكن أن يقتل هو أيضاً، فهذه فكرة لم تساوره بل لم تخطر بباله لحظة.

9

أخذ النهار يطلع. الآن تستطيع العين الآن أن ترى الجسم كله رؤية واضحة، وهو يترجّح قليلاً على كثيب الرمل. وفجأةً طقطقت أعواد القصب غير بعيدة عن لوكاشكا، وتحرّكت رؤوسها، ودوَّى وقع أقدام. فرفع لوكاشكا ديك بندقيته وقال مرَّةً أخرى: «المجد للآب والابن وروح القدس... »، ولكن حين قرقع سلاحه انقطع وقع الخطى. وصاح صوت جهير يقول:

- هيه... لا تقتلوا العمَّ يا قوزاق!

ثم إذا بالعمِّ ياروشكا يزيح أعواد القصب ويدنو من لوكاشكا. قال الفتى للشيخ:

- يميناً لقد كدت أقتلك!

فقال الشيخ يسأل الفتى:

- على أيِّ شيء أطلقت النار؟

إنَّ الصوت الرنّان الذي انطلق من ياروشكا ودوَّى في الغابة وترجَّع على طول النهر قد حطَّم صمت الليل فجأةً، وأزال جوّ السرِّ الذي كان يحيط بالفتى ويجثم على صدره خانقاً، وها هو كلُّ شيء قد أصبح الآن أوضح، وأصبحت رؤيته أسهل.

قال لوكاشكا وهو يردّ ديك البندقية إلى مكانه، ويُنهض جسمه بهدوءٍ مدهش:

- أنت لم ترَ شيئاً يا عمّ! أما أنا فقد قتلت حيواناً.

أصبح الشيخ لا يحوِّل بصره عن البقعة البيضاء التي يراها في البعيد، وهي الظهر الذي يتغضّن حوله ماء النهر هادئاً.

وتابع لوكاشكا حديثه فقال:

- كان يسبح مختبئاً تحت أرومة... فاكتشفت قدومه. انظر

هناك. هذا سرواله الأزرق، وهذه بندقيته حتماً... هل ترى؟

أجاب الشيخ متململاً وقد عبَّر وجهه عن جدٌ ووقار:

- طبعاً أرى.

ثم أضاف يقول بحسرةٍ:

- قتلت واحداً من الدجيغيت!

- كنت هنا... جالساً. ونظرت، فإذا بشيءٍ أسود يتحرّك على الضفة الأخرى... هناك إنما أبصرته. لكأنه رجل يغطس في الماء.

ما هذه القصة؟ وأخذت الأرومة تعوم وتتموج. أرومة ضخمة. ولكنها لا يجرفها التيار وإنما هي تقطع التيار قطعاً. ونظرت، فإذا رأس يظهر من تحت الأرومة. ما معنى هذا؟ وسدَّدت بصري، غير أن أعواد القصب حالت بيني وبين الرؤية الواضحة. ونهضت. فلا شكّ أنه سمع صوت حركتي، هذا الحيوان. فمضى إلى كثيب الرمل وطفق يتفرّس في ما حوله حتماً. قلت بيني وبين نفسي: «لا، لن تفلت مني!». وظلَّ يتفرَّس (أوه! شعرت باختناق في حلقي!).هيأت بندقيتي، وجمدت لا أتحرّك، وانتظرت... بقي هنالك لحظة، ثم أخذ يسبح، حتى إذا مرَّ تحت ضوء القمر رأيت ظهره، فقلت: : «المجد للآب والابن وروح القدس»، وأطلقت. ونظرت من خلال الدخان فرأيته يتخبّط، ويئنّ... خيِّل إليَّ أنني أسمع أنينه. قلت لنفسي: «الحمد لله... أصبته!». ولمَّا حمله الماء إلى ذلك الكثيب من الرمل ظهر كله. أراد أن ينهض، ولكنه عجز عن النهوض. وتخبّط بعض التخبّط أيضاً، ثم تمدّد. كنت أرى كل شيء، واضحاً. انظر! لقد همد فهو لا يتحرّك البتة. لا شكّ أنه فطس. وقد ركض رفيقاي القوزاقيان إلى «الكوردون». آمل أن لا يفلت منا الآخرون.

قال الشيخ:

- أدركهم إن استطعت! إنهم الآن بعيدون! وهزَّ رأسه مرة أخرى بحزنٍ.

ووصل القوزاق في هذه اللحظة، بعضهم سيراًعلى الأقدام وبعضهم راكب خيلاً، وسط ضجة أصوات تتكلّم وأغصان تتكسّر.

صاح لوكاشكا يسأل:

- هل وصل القارب؟

وصرخ أحد القوزاق يقول له:

- أنت فتى شجاع يا لوكاشكا. اقتده إلى الحافة!

أخذ لوكاشكا يخلع ثيابه من دون أن ينتظر وصول القارب، محدِّقاً بعينيه إلى فريسته. صاح المساعد يقول:

- انتظر القارب! سيأتي نازار بالقارب.

وقال آخر:

- غبي! لعله ما يزال حياً وإنما يتظاهر بالموت. اصطحب خنجرك!

أجاب لوكاشكا وهو ينزع سرواله:

- سخافات!

وانتهى من خلع ثيابه بهمَّةٍ ونشاط، ورسم إشارة الصليب، وألقى بنفسه في الماء فارتدَّ الماء من حوله هنا وهناك، وغطس، وأخذ يسبح متجهاً إلى كثيب الرملِ، قاذفاً ذراعيه البيضاوين باعاً طويلاً في التيار، جاعلاً ظهره محدودباً على سطح الماء. وكان القوزاق متكوّمين عند الحافة يتكلّمون جميعاً بصوتٍ عال. ومضى ثلاثة فرسان يستطلعون. وظهر القارب أخيراً عند منعطف.

ارتقى لوكاشكا كثيب الرمل، ومال على الجثة وقلبها، ثمَّ صاح ينادي بصوتٍ حاد: «ميت!».

لقد أصيب التشاشاني في رأسه. كان يرتدي سروالاً أزرق قاتماً، وقميصاً، وجلباباً. وكان يحمل على ظهره بندقية وخنجراً. وكانت الأرومة التي خدعت لوكاشكا في البداية مشدودة على هذا كله، مربوطة فوقه.

قال أحد القوزاق بينما كانت جثة التشاشاني تسجى فوق العشب المدوس بعد أن أخرج من القارب:

- ها قد اصطيد الشبوط!

وقال آخر:

- ما أشدّ اصفراره!

وسأل ثالث:

- أين جماعتنا؟ لا بدَّ أن الآبريك مختفون على الضفة الأخرى. فلولا أنه كشّاف لما سبح هذه السباحة.

- علامَ يقطع النهر وحده؟

وقال لوكاشكا بلهجةٍ ساخرة وهو يعصر ثيابه المبتلّة، وما ينفك يرتعد:

- لا شك أنه أمكرهم، أراد أن يكون أول قتيل. هو دجيغيت حقاً! ذلك واضح. لحية مصبوغة مقصوصة!

وقال قوزاقي آخر:

- علّق رداءه فوق ظهره في كيسٍ صغير. ذلك أدعى إلى الراحة أثناء السباحة.

وقال المساعد الذي تناول خنجر القتيل وبندقيته:

- اسمع يا لوكاشكا. خذ أنت الخنجر، وخذ الرداء أيضاً. أما البندقية فدعها لي، فسأعطيك ثلاثة روبلات فضة.

وأضاف المساعد قائلاً وهو ينفخ في سبطانة البندقية:

- ما يزال الرصاص فيها. سأحتفظ بها ذكرى!

فلم يجب لوكاشكا. كان واضحاً أن هذا الاستجداء المقنَّع قد أحنقه، لكنه كان يعرف أنّه لا بدّ مما ليس منه بدّ. ثم قال وهو يقطّب حاجبيه ويرمي رداء التشاشاني على الأرض:

- يا له من حيوان! ليت رداءه كان في حالة حسنة على الأقل، ولكنّه في الواقع خرقة بالية!

وقال أحد القوزاق معقّباً:

- لا يصلح لك هذا الرداء إلا حين تمضي تحطب في الغابة.

قال لوكاشكا وقد انقضى حقده وأراد أن يستفيد من فرصة تقديم هذه الهدية إلى رئيسه:

- أنا ذاهب إلى البيت يا موسيف.

- اذهب اذهب! هلمّوا يا أولاد! انقلوا الجثّة!

بذلك، أجاب المساعد وهو ما يزال يفحص البندقية. وأضاف يقول:

- وانصبوا على الجثة مظلّة من أغصان الشجر حمايةً لها من الشمس. فمن يدري؟ قد يجيئون ليفتدوها.

قال أحدهم:

- لم يشتدّ الحرّ بعد.

فأجاب آخر:

- وهل يحسن أن يمزّقها أبناء آوى؟

وأضاف المساعد يقول مرحاً:

- والآن يا لوكاشكا، يجب عليك أن تقدّم للرفاق سطلاً.

فصاح القوزاق يقولون، جوقةً واحدة:

- هذه هي القاعدة. لقد وهب لك الربّ حظًّا كبيراً. بطلقة واحدة قتلت واحداً من الآبريك!

قال لوكاشكا:

- اشتروا مني الخنجر والرداء بثمن حسن. حسناً. وإني لأبيع السروال أيضاً، فهو ضيِّق عليَّ جداً. لقد كان هذا الوغد شديد الهزال!

اشترى أحدهم الرداء بروبل فضة. واشترى ثانٍ الخنجر بسطلين.

قال لوكاشكا:

- اشربوا يا أولاد! إني أقدّم إليكم سطلاً. سأجيئكم به من القرية بنفسي.

وقال نازار:

- أما السروال فأعطه للبنات فيصنعن منه لأنفسهن مناديل.

فانفجر القوزاق يضحكون.

واستأنف المساعد كلامه فقال:

- كفى مزاحاً! جرّوا الجثّة إلى بعيد. ما هنا مكان جثّة كهذه!

وصاح لوكاشكا بالقوزاق الذين أمسكوا عن جرِّ الجثّة عابسين، صاح يقول لهم بلهجةٍ آمرة:

- ماذا تنتظرون يا أولاد؟ جرّوها!

فأطاعه القوزاق كأنه رئيسهم. حتى إذا قطعوا بضع خطوات أرخوا ساقيها فسقطتا على الأرض هامدتين. فابتعد القوزاق عنها قليلاً، ولبثوا جامدين صامتين لحظة. فتقدّم نازار ورفع رأس الميت الذي كان قد انقلبَ، فصار يُرى الوجه والجرح الصغير المدوَّر الدامي فوق الصدغ. وقال نازار:

- انظروا إلى العلامة التي صنعها له! في وسط الدماغ تماماً. سيستطيع جماعته أن يتعرّفوه.

لم يجب أحد. وران الصمت من جديد.

كانت الشمس قد أشرقت، وأخذت أشعّتها تتراقص على الخضرة المخضّلة بالندى. نهر تيريك يفور ويمور قريباً من الغابة التي تستيقظ. طيور التدرج تحيِّي الصباح، فينادي بعضها بعضاً، ويردّ بعضها على بعض في كل جهة من الجهات. والقوزاق جامدون صامتون، ما يزالون يحدقون بالميت وينظرون إليه. إن هذا الجسم الأسمر الذي لا يستره إلا سروال أزرق مبتل، والذي شُدَّ بطنه الأجوف بزنار، لهو جسم جميل ممشوق. الذراعان بارزة عضلاتهما، تمتدان مستقيمتين على الوركين، والرأس المستدير الذي تخثّر على جرحه الدم مرتدًا إلى وراء. والجبين الملوَّح الناعم يختلف لونه عن لون الجمجمة الضاربة إلى زرقة، التي حُلق شعرها منذ وقت قصير. والعينان الزجاجيتان كأنهما تنظران إلى بعيد من فوق جميع الأشياء. وتحت الشارب المصبوغ بلون أحمر والمقصوص قصًا دقيقاً، ترتسم ابتسامة فيها سخر ولكن فيها بشاشة، وكأنها تفرج الشفتين الرقيقتين قليلاً. وفي آخر الرسغين اللذين يغطيهما شعر محمر، كانت اليدان مصبوغةً أظافرهما، وكانتا متشنّجتين.

لم يرتد لوكاشكا ثيابه بعد. إن رقبته أشدّ احمراراً مما تكون في العادة، وإن عينيه تسطعان ببريق غير مألوف. وجنتاه الناتئتان ترتعدان في بعض الأحيان. ومن جسمه الأبيض القوي الذي لا يزال مبتلاً بالماء، يخرج بخار لا يكاد يُرى، ويمتزج بهواء الصباح البارد.

قال لوكاشكا، وكان واضحاً أن جمال هذا الجسم قد خطف بصره:

- كان إنساناً على كل حال!

فأجابه أحد القوزاق قائلاً:

- ولكن لو وقعتَ بين يديه لما رحمك!

انقطع الصمت. وعاد القوزاق يتكلّمون. وذهب اثنان منهم يقطعون أغصاناً لبناء مأوى يُظلّل الجثّة. واتجه آخرون نحو «الكوردون» بخطى بطيئة. وأسرع لوكاشكا ونازار يستعدّان للعودة إلى المنزل. فما هي إلا نصف ساعة حتى كانا متّجهين إلى «الستانتسا» بما يشبه الركض، عبر الغابة الكثيفة التي تفصلها عن نهر تيريك. وكانا لا ينقطعان عن الكلام.

قال لوكاشكا بلهجةٍ مباغتة:

- لا تقل له إني أرسلتك، بل انظر هل الزوج هناك. ذلك كل ما أطلبه منك.

فسأله نازار المطواع:

- وهل أذهب أنا إلى يامكا؟

فأجابه لوكاشكا بقوله:

- ومتى نتسلّى إذا لم نتسلَّ اليوم؟

وحين رجع الصديقان إلى مسكنيهما، شربا كثيراً ثم ناما إلى المساء.

10

في غداة الغد جاءت سريّتان من فوج مدفعية جيش القوقاز ترابطان في نوفوملنسك. الشاحنات تملأ الساحة الكبيرة وقد حُلَّت عنها دوابُّها. الطباخون حفروا حفرةً وكدسوا فيها حطبات وجدوها «ملقاة» في أحواش المنازل، وأخذوا يطهون حساء الحنطة. المساعدون يوزّعون على الرجال رواتبهم. جنود القافلة يغرسون في

الأرض أوتاداً لربط خيولهم. محاسبو التجهيزات يسيرون في الشوارع والأزقة كأنهم في دارهم، ويعينون للضباط والجنود مساكنهم. وإلى جانب عربات الذخيرة، والخيول، والقدور، تصطف في الساحة صناديق مدهونة بلون أخضر. والكابتن، والليوتنان، وأوسيب ميخائيلوفتش، المساعد، يقفون أيضاً هنالك.

كانت السريّتان قد تلقّتا أمراً بالمرابطة في هذه القرية. فهما إذن في دارهما. أما لماذا المرابطة هنا؟ ومن هم أولئك القوزاق؟ وهل هم راضون عن المرابطة عندهم؟ وهل هم ينتمون إلى ملّة «قدامى المؤمنين»؟ فتلك أمور لم يكن أحد يهتم بها أو يكترث لها.

ما إن قبض الرجال المكدودون المغبرون رواتبهم، حتى أخذوا يصخبون مرحين، وطفقوا يجوبون الشوارع والساحات فوضى كالنحل، ويدخلون المنازل اثنين اثنين، أو ثلاثة ثلاثة، حتى دون أن يلاحظوا امتعاض القوزاق، ويثرثرون في فرحٍ ظاهر، ويقرقعون ببندقياتهم، ويعلقون معدّاتهم، ويمازحون النساء. وقد استقرّ جمع غفير منهم بقرب القدور، وهو المكان الذي يفضّله الجنود، واضعين غلايينهم بين أسنانهم، متأمّلين الدخان الذي يصّاعد منها نحو السماء الملتهبة ويتكاثف غمامة بيضاء، أو متأملين النار نفسها التي ترتعش في الهواء الصافي كزجاج ينصهر. وهم يضحكون فيما بينهم على هؤلاء القوزاق ونسائهم، الذين يعيشون حياة مختلفة عن الحياة التي يعيشها الروس. وفي جميع أفنية المنازل يرى المرء جنوداً، ويسمع ضحكاتهم، ويسمع صرخات النساء غاضبةً حادة وهنَّ يدافعن عن أشيائهن، ويمنعن عن الجنود الماء والأواني، ويرى صبية وصبايا قد التصقوا بأمهاتهم، وأخذوا يراقبون، بدهشةٍ تمازجها خشية، أيسر حركات هؤلاء الجنود الذين لم يسبق أن رأوهم، وربما تبعوهم في

بعض الأحيان عن بعد. والقوزاق الشيوخ قد جلسوا على أبواب بيوتهم ينظرون إلى اضطراب هؤلاء الرجال صامتين عابسين كأنهم أذعنوا لكل شيء، وكأنهم تنازلوا عن إدراك ما يمكن أن ينجم عن هذا كله.

إن أولنين، الذي أصبح «يونكراً» في فوج من أفواج جيش القوقاز منذ ثلاثة أشهر، يحمل بطاقة سكنى في منزل من أجمل منازل «الستانتسا»، هو منزل الليوتنان إيليا فاسيلفتش، أي منزل أم أوليتا.

قال فانيا يسأل أولنين لاهثاً لهاثاً شديداً:

- ماذا نعمل يا دمتري آندرتش؟

كان دمتري آندرتش أولنين راكباً حصانه الكاباردي الذي اشتراه من مدينة جروزنوي، وكان يرتدي جلباباً، وكان قد قطع مسافة دامت خمس ساعات، فهاهو يدخل الآن فرحاً إلى المنزل الذي خُصَّ به.

قال أولنين وهو يربّت على رقبة حصانه ملاطفاً، وينظر إلى فانيا الذي بلّله العرق وتشعّث شعره حين وصل مع الحقائب وأخذ يهتم بترتيبها:

- ماذا يا إيفان فاسيلتش؟

إن أولنين يبدو الآن رجلاً آخر. فبدلاً من الخدين المحلوقين، تُرى له الآن لحية قصيرة وشاربين رقيقين. وبدلاً من البشرة الصفراء التي أذبلتها حياة الليل، أصبح له لوناً ملوَّحاً ضارباً إلى حمرة يدلّ على الصحة والعافية ويشمل الوجنتين والخدّين ويمتد إلى ما وراء الأذنين، وبدلاً من الرداء الأسود الأنيق، يرتدي الآن جلباباً أبيض متسخاً، ويتمنطق بأسلحة. وبدلاً من الياقة المضافة المنشّاة، تُرى الآن ياقة ردائه (البشميت) الحمراء، المصنوعة من أطلس خشن،

تلتفّ حول رقبته المسمرَّة وتشدّها شدًّا. إن ثيابه تجاري الزي الشركسي، ولكنها ثيابٌ رديئة: فما من أحد يمكن أن يُخدع في أمره فيظنه دجيغيتاً. إن أي إنسان يدرك أنه روسي. صحيح أن كل شيء في ملابسه يساير الزي الشركسي، ومع ذلك ليس هذا هو الزي الشركسي. ولكن مظهر أولنين هو مظهر العافية والمرح والرضى عن النفس، والرضى بالنفس.

قال فانيا:

- هذا يضحكك أنت! حاول أن تكلم هؤلاء الناس بنفسك! لا يستطيع المرء أن يسير خطوة واحدة! بل يستحيل عليك أن تستنطقهم كلمة! يميناً لكأنهم ليسوا روساً!

قال فانيا ذلك وهو يرمي السطل على العتبة حانقاً. فقال له أولنين:

- كلِّم رئيس القرية.

فأجاب فانيا غاضباً:

- وهل أعرف أين هو؟

- ولكن من أغضبك؟

- لا أدري. أف! قالوا إن صاحب الدار ليس هنا! ذهب لا أدري إلى أي كريجا! أما العجوز فهي إبليسة، حمانا الله!

بذلك أجاب فانيا وهو يمسك رأسه بيديه. واستطرد يقول:

- لا أدري حقاً كيف يمكننا أن نعيش هنا. إنهم أسوأ من التتر، رغم ما يدّعونه من أنهم مسيحيون! التتري، مع أنه تتري، يسلك سلوكاً أنبل! ذهب إلى «الكريجا»! ما هذه «الكريجا» أيضاً؟

وختم فانيا كلامه قائلاً وهو يلتفت:

- هل رأيت إلى هذا؟

فأجابه أولنين ليغيظه مداعباً دون أن ينزل عن حصانه:

- مختلف عمّا في الريف عندنا، هه؟

قال فانيا متحيّراً أشدّ الحيّرة من نظام الأمور هذا الذي يراه، ولكن مذعناً منذ الآن لما كُتب عليه من قدر:

- الحصان، من فضلك!

فعاد أولنين يكرّر قوله وهو ينزل عن حصانه ويضرب السرج بيده:

- التتر يسلكون سلوكاً أنبل إذن؟

فأجابه فانيا بصوت مترع بالمرارة:

- اضحك! اضحك! يضحكك هذا!

فقال أولنين وهو ما يزال يبتسم:

- لا تزعل يا إيفان فاسيلفتش. سأمضي أرى أصحاب الدار، فيتدبّر كل شيء. ولسوف ترى ما أحلى الحياة التي سنعيشها هنا. لا تقلق!

لم يجب فانيا بشيء، ولكنه هزّ رأسه، وغضّن أجفانه، وتابع مولاه بنظرة فيها ازدراء.

كان فانيا ينظر إلى أولنين على أنه سيّده فحسب، وكان أولنين ينظر إلى فانيا على أنه خادمه فحسب. فلو قال لهما أحد إنهما صديقان لدهشا كلاهما دهشاً شديداً. ولكن الواقع هو أنهما كانا صديقين، من دون أن يدركا ذلك. لقد أُتي بفانيا إلى منزل أولنين في الحادية عشرة من عمره، وكان أولنين في تلك السن نفسها. وقد عني أولنين زمناً بتعليم فانيا في الخامسة عشرة، فعلّمه القراءة بالفرنسية، وهو أمر كان فانيا يفخَر به أعظم الفخر. وما يزال فانيا، في لحظات صفاء مزاجه، يقذف بضع كلمات فرنسية ويشفعها بابتسامة بلهاء.

صعد أولنين درجات الباب بسرعة، ودفع الباب، فإذا بماريانا التي كان لا يكسوها إلا قميص وردي اللون، وهو ما تلبسه النساء القوقازيات عادة في بيوتهن، إذا هي تهرع إلى آخر الغرفة وجلة، وتسند ظهرها إلى الحائط، وتغطي أسفل وجهها بكمّها التتري الطويل. فلما فتح أولنين الباب فتحاً كاملاً رأى في الظل قامة الفتاة القوقازية الممشوقة القد. وبما هو معهود في الشباب من فضول متعجّل شره أخذ يتأمّل، برغم إرادته، تلك الأشكال القوية العذراء التي كانت ترسمها على الجسد ثنايا القميص الرقيق، وأخذ يتفرّس في العينين السوداوين اللتين تحدّقان إليه معبّرتين عن رعب طفولي وفضول متوحّش.

قال أولنين لنفسه: «هذه هي! وستكون شبيهاتها كثيرات!» ذلك ما خطر بباله على الفور. ثم فتح الباب الثاني. كانت العجوز أوليتا، التي لا يكسوها إلا قميصها أيضاً، تكنس أرض الغرفة منحنية، ومديرة ظهرها.

بدأ أولنين يتكلّم فقال:

- يومك سعيد يا خالة! لقد جئت لأبحث معك أمر سَكَني...

فظلّت أوليتا منحنية، ولكنها التفتت إليه بوجهها الذي فيه قساوة غير أنه ما يزال جميلاً، وقالت وهي تنظر إلى الشاب شزراً، مقطّبة الحاجبين:

- ما مجيئك إلى هنا؟ تريد أن تتهكّم علينا، هه؟ سوف أعرف كيف أجعلك تضحك! هيّا امشِ! ليأخذك الطاعون!

كان أولنين يظن أن جيش القوقاز الباسل الذي أرهقه التعب، والذي ينتمي هو إليه، سوف يستقبله الناس في كل مكان بفرحٍ، ولا سيما القوزاق رفاق السلاح. لذلك أربكه هذا الاستقبال وحيَّره. غير

أنه لم يدع للخوف سبيلاً إلى نفسه، وحاول أن يشرح للعجوز أنه سوف يدفع أجرة المسكن، ولكن العجوز لم تتح له أن يقول كلمة، إذ بادرته قائلةً:

- ماذا جئت تعمل هنا؟ هل أنت ممغوص؟ يا ذا الذقن المحلوقة! انتظر، سوف يجيء ربّ الدار، فيدلّك على مكانك، ويوقفك عند حدّك! أنا لست بحاجة إلى مالك المشؤوم، والمنحوس! يريد أن يدفع أجراً ليملأ بيتي بدخان تبغه! يا للكارثة!

وصرخت فجأة تدعو عليه:

- ألا فليمزق الرصاص قلبك!

قال أولنين يحدث نفسه: «أرى أن فانيا على حق. إن التتري يسلك سلوكاً. أنبل». وخرج من البيت تلاحقه شتائم المرأة العجوز.

وبينما هو يخرج إذ بماريانا التي ما زالت لا يكسوها إلا قميصها الوردي اللون، ولكنها تغطي الآن رأسها بخمار يصل إلى العينين، إذ هي تخرج من الدهليز فجأة، وتمر أمامه بسرعة، وتتدحرج على درجات الباب الخشبية فتقرقع الدرجات تحت قدميها العاريتين، ثم إذا هي تتوقف لحظة، وتشخص إلى الفتى بغتة بعينين ضاحكتين، ثم تغيب وراء زاوية البيت.

دهش الفتى مزيداً من الدهشة لهذه المشية الثابتة المرنة، ولهذه النظرة المتوحشة في عينيها الساطعتين تحت الخمار الأبيض، ولهذا الجمال في أشكالها القوية. وقال يحدث نفسه: «إنها هي حتماً». ومضى عائداً إلى فانيا وهو لا يفكر إلا قليلاً في سكناه، وما ينفك يلتفت إلى الجهة التي اختفت فيها ماريانا.

قال له فانيا وهو ما يزال يُنزل عن عربة النقل أحمالها:

- أرأيت؟ البنت لا تقلّ توحُّشاً عن غيرها. فرس من أفراس البراري.

ثم أضاف يقول بصوت قويٍّ مجلجل:

- «المرأة»!

وانفجر يضحك.

11

في المساء عاد الليوتنان من صيد النهر، فلما علم أنه سيتقاضى عن السكنى أجراً هدَّأ امرأته ولبّى مطالب فانيا.

وسُوِّي كل شيء، سكن أصحاب الدار في الغرف التي يُحتفظ بها لفصل الشتاء، وأخلوا الغرف الأخرى لأولنين لقاء أجر قدره ثلاثة روبلات في الشهر. أكل أولنين ونام. استيقظ قرابة المساء غسل وجهه وعني بزينته وتعشّى ثمّ جلس إلى النافذة المطلّة على الشارع وفي فمه سيجارة. كان الحرُّ قد خفَّ. والظل المائل الذي يلقيه المنزل ذو الواجهة المزخرفة يستطيل على الشارع الأغبر ويتسلّق قاعدة المنزل المقابل الذي يتلألأ سقفه المصنوع من أعواد الأسل تحت أشعة الشمس الغاربة. وكان الهواء يميل إلى الطراوة، والقرية صامتة ساكنة. فالقطيع لم يصل بعد من الحقول، ولا الرجال رجعوا من العمل.

إن المنزل الذي يقطن فيه أولنين يقع في طرف المدينة تقريباً. فكان يدوِّي في بعض الأحيان صوت انفجار ينطلق بعيداً وراء نهر تيريك، في مكان من تشاشانيا أو على هضبة كوميك. كان أولنين يحسّ بالرضى والارتياح بعد قضائه ثلاثة أشهر من التخييم في العراء، وكان يشعر بلذّة من طراوة وجهه المغسول ونظافة جسمه القوي (لقد بعد عهده بالنظافة خلال المسيرات الطويلة)، وكان يتمتّع

بما يحسه في أعضائه المسترخية كلها من سكينة وقوة. وتذكر الحملة الأخيرة والأخطار التي تعرّض لها، فقال في نفسه إنه أحسن التصرف وإنه لم يكن أقلّ من غيره، وإن شجعان الجيش القوقازي كانوا يعاملونه معاملة رفيق. الله يعلم أين صارت الآن ذكريات موسكو. لقد أمحَّت الحياة القديمة، وبدأت حياة جديدة، جديدة كل الجدّة، حياة لم تُرتكب فيها غلطة حتى الآن. وسوف يجد هنا أيضاً، وهو الإنسان الجديد بين أناس جدد، فرصة أن يستحقّ احترام نفسه لنفسه. كان يشعر بفرح كفرح المراهقين، فرح ليس له سبب ظاهر، وكانت نظراته تنصب تارة على الصبية يلعبون بالخذروف في ظل المنزل، وتارة على مسكنه الذي أُحسن ترتيبه، فيتصوّر أن حياته في هذه القرية القوقازية ستكون بهيجة جداً. وكان أيضاً يتأمل الجبال والسماء، فتصطبغ ذكرياته وأحلامه من منظر تلك الطبيعة الجليلة بنوع من الأبهة والفخامة.

إن حياته الجديدة لم تبدأ على النحو الذي تخيّله حين غادر موسكو، وإنما بدأت بداية لم تكن في الحسبان، بداية ما كان أسعدها! الجبال! الجبال!... كانت الجبال ماثلة على الدوام، ممتزجةً بكلٍّ ما يفكّر فيه ويشعر به.

- العمّ ياروشكا! العمّ ياروشكا! من أجل فودكا، قبَّل كلبة، من أجل فودكا أعطى خنجره، من أجل فودكا لحس الجرّة!

كذلك أخذ الصبية اللاعبون بالخذروف، يصيحون فجأة وهم يلتفتن نحو شارع صغير، وظلّوا يكررون صيحاتهم وهم يتزاحمون ويتصادمون:

- قبّل كلبةً، أعطى خنجره...

كانت هذه الصيحات موجّهة إلى العمّ ياروشكا الذي كان

عائداً من الصيد وقد وضع بندقيته على كتفه، وعلّق طيور التدرج بحزامه. وكان العمّ ياروشكا يقول وهو يحرّك ذراعيه وينظر إلى نوافذ المنازل على جانبي الشارع:

- نعم يا أولادي! لقد أثمت! لقد أثمت! نعم، بعت كلبتي من أجل فودكا، وبعت خنجري. لقد أثمت! لقد أثمت!

كذلك كان يردّد العمّ ياروشكا، وهو غاضب غضباً واضحاً، لكنه يتظاهر بقلّة الاكتراث.

دُهش أولنين من استقبال الصبية هذا للصياد الشيخ، ولكنه دهش دهشة أشدّ مما كان لهذا الرجل الذي يسمّونه «العمّ ياروشكا» من وجه قويّ التعبير ذكيّ الملامح، ومن قامة رياضية وبنية متينة. فناداه أولنين قائلاً:

- يا عمّ! يا قوقازيّ! تعال إليّ قليلاً!

فنظر الشيخ إلى النافذة وتوقّف، وقال:

- يومك سعيد أيها الفتى الشهم!

ورفع قبّعته كاشفاً عن شعر مقصوص حلقاً. فأجابه أولنين:

- يومك سعيد أيها الرجل الشهم. بماذا يصيح هؤلاء الصبية؟

دنا العمّ ياروشكا من النافذة، وقال بصوتٍ فيه تلك النبرات القاسية المترنّمة، المعهودة في الرجال المسنّين المحترمين:

- هم يغيظون العمّ ياروشكا العجوز مازحين. لا ضير. أنا أحب هذا! ليتسلّوا على حسابي! هل أنت رئيس الجنود؟

- بل أنا يونكر. أين اصطدت هذه التدارج؟

- في الغابة. إنها ثلاثة تدارج. ألم ترَ تدارج في حياتك؟

وأدار الشيخ لأولنين ظهره العريض الذي تتدلّى منه الطيور

الثلاثة، وكانت رؤوسها الصغير ة المشدودة بحزامه تصبغ جلبابه بالدم. ثم أردف قائلاً:

- إليك اثنين! خذهما!

ومدّ إليه من خلال النافذة تدرجتين، وسأله:

- وأنت؟ هل أنت صياد أيضاً؟

- طبعاً، صياد! قتلت أربعة تدارج في آخر حملة.

قال الشيخ ساخراً:

- أربعة؟ عدد ضخم! وهل تحسن الشراب؟ هل تحب التشيخير؟

- لم لا؟ أحب أن أشرب من حينٍ إلى حين.

- هيه! ألا إنني لأرى أنك فتى شجاع! سوف نكون صديقين، أنا وأنت.

قال أولنين:

- ادخل إذن، فنشرب كأساً.

قال الشيخ:

- يسرّني هذا. ولكن خذ التدرجين!

كان واضحاً في وجه الصياد أن أولنين قد أعجبه وأنه أدرك أن في إمكانه أن يشرب عند اليونكر بالمجّان، فليقدّم له إذن تدرجين.

وما هي إلا لحظات قصار حتى ظهر العمّ ياروشكا في عتبة الباب. وعندئذٍ فقط إنما رأى أولنين ضخامة قامة هذا الرجل رؤية كاملة، ورأى قوة بنيته، ورأى وجهه الذي يضرب لونه إلى لون الآجر، وتحفّ به لحية عريضة بيضاء كلّ البياض، وتغضّنه مع ذلك أخاديد عميقة حفرها كبر السن وعناء العمل. إن عضلات ذراعيه وساقيه لا تقلّ بروزاً وتدوّراً عن عضلات شاب. وتحت شعره

المحلوق يرى المرء ندبات جراح قديمة، وعلى عنقه الضخمة ذات العضلات يرى شبكة ثنيات تشبه شبكة الثنيات التي تُرى في رقبة بقرة. ويداه الجاسئتان ممتلئتان خدوشاً وحُفراً.

تخطّى الشيخ العتبة بيسر وسهولة، وأنزل عن كتفه بندقيته فوضعها في الركن، وشمل الغرفة بنظرة سريعة وزنت كل ما فيها. ثم تقدّم إلى وسط الغرفة بقدميه التين تبدوان مشوّهتين في جزمتيه الرخصتين، تقدّم بغير ضجّة، مالئاً هواء الغرفة برائحة قوية ليست كريهة، هي رائحة خمرة وبارود ودم متخثّر.

انحنى ياروشكا أمام الأيقونات، ونشر لحيته، ودنا من أولنين مادًّا إليه يده السوداء الضخمة، قائلاً له:

- «خوشكلدي».

ومعناها بالترية: أتمنى لك الصحة، السلام عليكم!

فأجابه أولنين وهو يصافحه:

- «خوشكلدي»، أنا أعرف..

فانبرى العمّ ياروشكا يقول له وهو يهزّ رأسه عاتباً:

- بل أنت لا تعرف التقاليد يا أحمق... إذا قيل لك «خوشكلدي»، فيجب أن يكون جوابك «الله رازي بوسن»، أي سلّمك الله. بهذا يجب أن تردّ يا بنيّ، لا أن تردّ «خوشكلدي». سوف أعلّمك كل شيء. كان عندنا هنا إيليا موسائتش، وهو واحد منكم أنتم الروس. وكنا أصحاباً. يا له من فتى شجاع! سكير، لص، صيّاد! وأي صيّاد! فأنا الذي علّمته كل شيء.

قال أولنين يسأل الشيخ وقد زاد اهتمامه به:

- ماذا ستعلّمني؟

- أذهب بك إلى صيد البر، وأعلّمك صيد النهر، وأُريك

التشاشان. وهل تريد صديقة؟ سوف أجد لك صديقة. فانظر أي إنسان أنا!... عفريت!

وأخذ الشيخ يضحك. ثم أضاف:

- سأجلس يا بني. إنني مكدود!

وقال مستفهماً:

- «كارجا».

فسأله أولنين:

- ماذا تعني كلمة «كارجا»؟

- هي تعني بلغة أهل جيورجيا «حسن». أما أنا فأقولها هكذا. هذه كلمتي المفضَّلة، كلمتي المأثورة. حين أقول «كارجا»، يكون معنى ذلك إنني أمزح. هيه! اطلب لنا التشيخير! لا بدّ أن لك جندياً يخدمك، أليس كذلك؟

وأضاف منادياً:

- يا إيفان!

وقال يشرح:

- جميع الجنود يُسمون عندكم باسم إيفان. هل صاحبك اسمه إيفان أيضاً؟

- اسمه إيفان فعلاً. يا فانيا، خذ من صاحب الدار تشيخيراً وائتنا به.

- إيفان أو فانيا، سيان! لماذا يسمّى جميع الجنود عندكم باسم إيفان؟ إيفان؟ ... ولكن اطلب خمرة من البرميل الذي فتحوه منذ مدة قصيرة. إن عندهم أطيب تشيخير في «الستانتسا» كلها. وانتبه! لا تدفع أكثر من ثلاثين كوبكاً لنصف الربع. وإلا فإن هذه الإبليسة لن...

وحين خرج فانيا تابع العمّ ياروشكا حديثه بلهجة البوح بأسرار:

- الناس هنا أغبياء... إنهم لا يعدّونكم بشراً. أنت في نظرهم أسوأ من تتري. «روسي؟ إذن زنديق!» هذا ما يقولونه. أما في نظري فأنت، على كونك جندياً، تظل إنساناً. أنت أيضاً لك روح، لك نفس. ألست على حق؟ إيليا موسائتش كان جندياً. ولكن ما كان أحسنه إنساناً! ذهب خالص! أليس هذا حقاً يا بنيّ؟ لذلك لا يحبّني ذوونا. ولكنني لا أبالي أحبّوني أم لم يحبّوني. أنا رجل مرح، أحب جميع البشر، أنا ياروشكا، هكذا، يا عم!.

قال الشيخ ذلك وهو يربّت على كتف الفتى بمودّة ومحبّة.

12

كان فانيا في أثناء ذلك الوقت كله قد فرغ من ترتيباته، ومضى إلى حلاق الفوج، فحلق له ذقنه، وأخرج سرواليه من جزمتيه دلالة على استقراره في بيته، وكان رائق المزاج طيّب النفس، تأمل ياروشكا بانتباه، ولكن من دون ترحيب. نظر إليه نظرته إلى حيوان وحشي مجهول، وهزّ رأسه حين رأى كيف وسّخ الشيخ أرض الغرفة.

تناول فانيا من تحت الدكّة زجاجتين فارغتين، ومضى إلى أصحاب الدار. قال وقد قرّر أن يكون رقيقاً غاية الرقّة دمثاً كل الدماثة:

- يومكم سعيد أيها الناس اللطفاء جداً. لقد أمرني مولاي بأن أشتري له تشيخيراً. فاعطوني منه أجود ما عندكم!

فلم تجبه المرأة العجوز. وكانت الفتاة مشغولة بإحكام وضع خمارٍ على رأسها أمام مرآة تترية صغيرة.

فعاد فانيا يتكلم وهو يقرع قطع النقد في جيوبه، فقال:

- سوف أدفع الثمن يا سادتي المحترمين جداً. كونوا لطافاً وسنكون نحن كذلك. هذا أفضل.

سألته العجوز بخشونة:

- هل تريد مقداراً كبيراً؟

- خمس زجاجات.

- هلمّي يا ابنتي الغالية، فاسكبي له من البرميل الذي فتحناه منذ مدة قصيرة!

أخذت الفتاة المفاتيح وإبريقاً وخرجت مع فانيا.

قال أولنين يسأل الشيخ ياروشكا وهو يشير إلى ماريانا التي كانت في تلك اللحظة تمرّ تحت النافذة:

- قل لي، من فضلك، من هذه المرأة؟

فغمز الشيخ بعينه ولكز الفتى بكوعه وقال وهو يميل على النافذة:

- انتظر!

ثم أضاف ينادي متنحنحاً:

- احم... احم... ماريانوشكا! هيه! ماريانا! أجبيني يا روحي!

ثم قال لأولنين هامساً:

- أنا عفريت!

لم تلفت الفتاة رأسها وظلّت تسير مرجحةً ذراعيها ترجيحاً مطرداً، ومرّت وهي تمشي هذه المشية الرشيقة الشمّاء التي عُرِفت بها النساء القوقازيات، واكتفت بأن رفعت عينيها السوداوين نحو العجوز ببطء.

صاح ياروشكا قائلاً وهو يغمز الفتى غمزةً أخرى:

- أحبِّيني فتكوني سعيدة.

وأضاف يخاطب الفتى:

- أنا عفريت، هه؟ يا لها من فتاة! ملكة!

قال أولنين:

- جمال رائع! نادِها!

قال الشيخ:

- لا. هذه سيزوّجونها لوكاشكا، لوكا.. فتى شجاع، دجيغيت، قتل منذ قليل واحداً من الآبريك. سأجد لك خيراً منها. سأجد لك واحدة لا تلبس إلا حريراً وفضة. هذا وعد مني لك، وسأفي بالوعد. سترى!

- ما هذا الذي تقوله أيها الشيخ! ذلك إثم!

قال الشيخ بلهجةٍ ثابتة:

- إثم! أين الإثم؟ أهو إثم أن ينظر المرء إلى فتاة جميلة؟ أهو إثم أن يتسلّى المرء مع فتاة جميلة؟ هل الحب إثم؟ هل الحب إثم في بلادكم؟ لا، ليس هذا إثماً، بل هو الخلاص والسلامة. الله قد خلقك. والله قد خلق الفتيات أيضاً. هو خالق كل شيء يا بنيّ. ليس إثماً أن ينظر الإنسان إلى فتاة جميلة. هي خُلقت لهذا! خلقت من أجل أن تُحَبّ وأن يُبْتَهَج بها، هذا رأيي يا بنيّ.

قطعت ماريانا فناء الدار، ودخلت غرفة المؤن، وهي غرفة مظلمة باردة مزدحمة بالبراميل، وهناك تلت الدعاء المألوف، وأغطست الممص في البرميل. وكان فانيا واقفاً عند الباب ينظر إليها ويبتسم. كان يرى أنه أمر مضحك حقاً أن لا يكسوها إلا قميص متدلٍّ من الأمام، ملتصق بالجسم من الخلف، ولكن الشيء الذي كان يراه باعثاً على الضحك أكثر من كل ما عداه إنما هو هذا العقد المنظوم من قطع نقدية، الذي تزين به جيدها. قال لنفسه: «ليس روسياً، هذا!

لشدّة ما يمكن أن يضحك الناس في روسيا إذا هم رأوا فتاةً تتبرّج هذا التبرّج!». وحدّث نفسه: «البنت جميلة جداً[1]. سأقول هذا لمولاي».

صرخت الفتاة فجأةً تقول:

- إنك تحجب عني الضوء يا ابن الشيطان! أعطني الإبريق على الأقل!

حتى إذا فرغت من ملء الإناء بنبيذ أحمر بارد، مدّته إلى فانيا فمدّ فانيا إليها المال، فدفعت يده قائلةً له:

- الثمن تدفعه لأمي.

فابتسم فانيا وقال لها بسذاجة وهو يتبختر، بينما الفتاة تسد البرميل:

- لِمَ أنتما كلتاكما شريرتان إلى هذا الحد يا صغيرتي؟

فضحكت الفتاة، وقالت تسأله:

- وأنتما، هل أنتما طيّبان؟

فأجابها فانيا باقتناع:

- أنا ومولاي طيّبان جداً، نبلغ من الطيبة أننا حيث أقمنا كان الناس شاكرين لنا ممتنين منا. ذلك أن مولاي من النبلاء.

كانت الفتاة قد وقفت لتصغي إليه. وها هي ذي تسأله:

- هل مولاك متزوج؟

- لا، مولاي صغير السن وليس متزوجاً. النبلاء لا يمكن أن يتزوجوا صغاراً.

كذلك أجابها فانيا بلهجة فيها تعالم وتعاظم. فقالت الفتاة:

---

(1) بالفرنسية في الأصل، ولكن بأحرف روسية.

- اسمعوا هذا الكلام! جاموس ضخم، ثم هو صغير على الزواج! هل هو رئيسكم؟

- مولاي يونكر، أي إنه لم يصبح ضابطاً بعد، ولكنه بنبالته أكثر من جنرال، أكثر من شخص ذي رتبة عالية.

واستطرد فانيا شارحاً باعتزاز:

- ليس الكولونيل وحده مَنْ يعرفه، بل القيصر نفسه يعرفه أيضاً. نحن لسنا رعاعاً، ككثيرين في الجيش، كان أبونا عضواً في مجلس الشيوخ. وكان يملك أكثر من ألفا نفس. ونحن يُرسل إلينا أكثر من ألف روبل. ولذلك يحبّنا جميع الناس. على حين أن هناك ضباطاً برتبة كابتن لا يملكون قرشاً. ماذا يجنون من الرتبة؟...

قاطعته الفتاة قائلةً:

- اذهب. أغلق الباب.

حمل فانيا الخمرة إلى مولاه. وقال له بلغة فرنسية فيها لكنة: «البنت جميلة جداً».

وعاد يخرج وهو يضحك ضحكاً أبله.

13

في أثناء ذلك كانت قد حانت ساعة العودة في «الستانتسا». الرجال رجعوا من الحقول. القطعان تتزاحم وتجأر قرب أبواب الأفنية في غمامة من الغبار بلون الذهب. النساء والبنات، في الشوارع والأحواش، منهمكات حول البهائم. وعندما غابت الشمس غابت وراء الذرى البعيدة المكسوة بالثلج، وفوق البساتين التي غشيها الظلام أخذت تشتعل نجوم لا تكاد تُرى، خيّم الصمت على القرية شيئاً فشيئاً. دخلت المواشي، فخرجت النساء في أطراف

الشوارع، وجلست تقضم بذور دوّار الشمس أمام أبواب دورهن. فرغت ماريانا من حلب البقرتين والجاموسة، فانضمت إلى واحدة من تلك الجماعات الصغيرة. إن الحلقة التي انضمت إليها ماريانا تتألف من بضع نساء وفتيات تحلّقن حول قوزاقي شيخ.

كان الحديث يدور على رجل الآبريك الذي قتله لوكاشكا. لقد روى القوزاقي الشيخ كيف جرت الأمور، فكانت النساء تسائله.

قالت إحداهن: لا بدّ أنه سيُمنح مكافأة كبيرة، أليس كذلك؟

- كيف لا؟ يقال إنهم سيعطونه صليباً.

- لقد أضرّ به موسيف، إذ أخذ منه البندقية. ولكن الرؤساء في كيزليار علموا بالأمر.

- ما أسوأ نفسه، موسيف هذا!

وقالت فتاة:

- يظهر أن لوكا رجع.

- إنه يقصف مع نازار عند يامكا. يظهر أنهما أفرغا حتى الآن نصف سطل.

(يامكا أرملة سيئة السيرة تدير خمّارة في الخفاء).

وقالت إحدى النساء:

- إنه لصاحب حظ، هذا «المنتشل»! ولكن يجب أن نعترف بأنه فتى لا كالفتيان، شديد المكر شريف مستقيم مع ذلك!... هكذا كان أبوه كيرياك. ورث الابن صفات أبيه. حين قُتل كيرياك، بكته «الستانتسا» كلها. ها هما قد أتيا..

أضافت المرأة ذلك وهي تشير إلى قوزاقيين مقبلين على الحلقة. وقد أسرع يارجوشوف يلحق بهما وينضم إليهما. فأضافت المرأة تقول:

- هذا واحد منهم سكران!

كان لوكا ونازار ويارجوشوف قد أفرغوا نصف سطل من الخمرة، وهم مقبلون الآن على النساء. كانوا هم الثلاثة أشدّ احمراراً مما هو مألوف فيهم من احمرار، ولكن يارجوشوف كان أشدّ احمراراً من صاحبيه أيضاً. وكان يترنّح، ويلطم أضلاع نازار ضاحكاً ضحكاً صاخباً.

صرخ مخاطباً البنات:

- لماذا لا تغنِّين يا ثرثارات؟ آمركنّ بأن تشرعن في الغناء لنتسلّى!

فأجابته المرأة:

- لِمَ الغناء؟ هل نحن اليوم في عيد؟ إنك سكران، فما عليك إلا أن تغني أنت!...

فانفجر يارجوشوف يضحك، ودفع نازار، وقال:

- غنِّ أنت، وسأغني أنا أيضاً. إنني أحسن الغناء، أنا أقول لك ذلك.

قال نازار:

- ماذا يا جميلات؟ هل أنتنَ نائمات؟ لقد رجعنا من «الكوردون» لنشرب احتفالاً بلوكاشكا.

ودنا لوكا من الجماعة، فرفع طاقيته ببطء، ووقف أمام البنات. كانت وجنتاه العريضتان ورقبته حمراً. وكان يقف منتصب القامة ويتكلم بهدوء، لا يرفع صوته. ولكن هذا البطء وهذا الوقار كان فيهما من الهمّة والقوّة أكثر مما في ثرثرة نازار واضطرابه. كان أشبه بمُهر جامح وقف كالمتجمّد في وسط اندفاعة على حين فجأة رافعاً ذيله صاهلاً. وقف لوكا أمام البنات وعيناه تضحكان. إنه يتكلم

قليلاً، وينظر إلى رفيقيه الثملين تارة وإلى البنات تارة أخرى. فلما اقتربت ماريانا، رفع طاقيته مرةً أخرى بغير تعجّل، وتقهقر قليلاً إلى الوراء، ثم انتصب أمامها مباعداً ساقيه بعض الشيء، واضعاً إبهامي يديه في حزامه، عابثاً بغمد خنجره أحياناً. وقد ردّت ماريانا على تحيته بانحناءة من رأسها، وجلست على البسطة، وأخرجت من حزامها بذور دوّار الشمس، فكان لوكا لا يحوّل بصره، وكان يقضم بذور دوّار الشمس هو أيضاً ويلفظ قشورها. وقد صمت الجميع حين وصلت ماريانا.

قطعت إحدى النساء الصمت قائلةً له:

- هيه؟ هل عدت لتبقى مدةً طويلة؟

فأجاب لوكا برصانة:

- إلى الصباح.

فقال القوزاقي الشيخ:

- بارك الله فيك. أنا راضٍ عنك ومسرور منك. ولقد كنت أعبِّر عن هذا منذ هنيهة:

قال يارجوشوف ضاحكاً: أنا أيضاً أقول هذا.

ثم أضاف وهو يشير إلى جندي مرّ في تلك اللحظة:

- وهؤلاء ضيوفنا. إن فودكا الجنود طيّبة. أحب أنا هذه الفودكا.

قالت امرأة:

- لقد بعثوا إلينا ثلاثة من هؤلاء الأبالسة الروس. وذهب زوجي إلى المكتب محتجًا، ولكن يظهر أن لا فائدة من الاعتراض.

قال يارجوشوف:

- ها... ها... أنتِ إذن زعلانة جداً، هه؟

وتدخّلت أخرى فقالت:

- لا بدّ أنهم أفسدوا هواء دارك بدخان تبغهم القذر. فليدخنوا في فناء الدار ما شاءوا أن يدخنوا، ولكنني لن أسمح لهم بأن يدخنوا في الدار نفسها. لن أسمح لهم بذلك ولو جاء الرئيس نفسه. وهم عدا ذلك لا يتورّعون عن السرقة. إن الرئيس قد تفادى أن يُنزل في داره أحداً منهم، هذا العفريت!

عاد يارجوشوف يتكلم فقال:

- أنتِ إذن لا تحبّينهم، هه؟

وقال نازار الذي باعد ساقيه مقلّداً لوكا، ودفع طاقيته إلى وراء مثله:

- يقال أيضاً إن البنات قد أُمرن بأن يهيّئن أسرّة الجنود، وأن يقدّمن لهم التشيخير مع العسل.

فانفجر يارجوشوف ضاحكاً، وأمسك أقرب فتاة إليه وطوّقها بذراعيه.

قال نازار:

- ما أقوله حق.

وصرخت الفتاة:

- يالك من قليل التهذيب! سأشي بك إلى زوجتك!

فأجابها يارجوشوف:

- افعلي ما تشائين. ولكن نازار لم يكذب. إنه يعرف القراءة، وقد قرأ الأمر مكتوباً. ما يقوله هو الحق.

وأمسك يارجوشوف فتاةً أخرى.

فصرخت أوستنيكا تقول ضاحكةً، وهي فتاة مدوَّرة الوجه وردية اللون، صرخت تقول وهي ترفع يدها لتضربه:

- دعني يا وغد!

فتراجع القوقازي وأوشك أن يسقط على الأرض، وقال:

- يدَّعون أن البنات ليس فيهنّ قوّة! كادت تقتلني.

قالت أوستينكا وهي تكظم قهقهتها وتشيح بوجهها:

- الشيطان هو الذي أعادك من «الكوردون» كنت إذن نائماً، ففاتك رجل الآبريك، لو أنه أمسكك لقطع رقبتك ولكان ذلك أفضل!

قال نازار معقِّباً:

- ولأخذتِ تنتحبين حتماً، هه؟

- طبعاً، بقدر ما سأنتحب عليك!

قال يارجوشوف:

- أرأيت؟ إنها لا تبالي! ولكنها كانت ستنتحب يا نازار، هه؟

وفي أثناء ذلك كان لوكا ما يزال يتأمّل ماريانا صامتاً، فكان واضحاً أن نظرته تبثّ الاضطراب في الفتاة، قال وهو يدنو منها:

- إذن أسكنوا عندكم رئيساً يا ماريانا؟

ولكن ماريانا، على عادتها، لم تجب فوراً، وإنما رفعت بصرها تنظر إلى القوزاق. وكانت عينا لوكا ما تزالان تضحكان وكأن شيئاً جديداً قد نشأ بينه وبين الفتاة، شيئاً خارجاً عن الحديث الذي يجري، مستقلاً عنه.

قالت امرأة عجوز، سابقةً ماريانا إلى الكلام:

- هم لا يزعجهم سكنى أحد عندهم، فإن بيتهم يتّسع. ولكن انظروا إلى أسرة فوموشكين: لقد أسكنوا في دارها رئيساً كذلك، فإذا هو يملأ الغرفة كلها بأمتعته. هل سمع أحد بمثل هذا من قبل؟

كيف يمكن أن تستوعب قريتنا هذا الرتل كله؟ ما الذي سنصير إليه؟ وما العمل الذي يريدون أن يشرعوا فيه؟

قالت إحدى البنات:

- يقال إنهم سيبنون جسراً على نهر تيريك.

وقال نازار وهو يقترب من أوستينكا مجعّداً وجهه:

- أما أنا فقد قيل لي إنهم سيحفرون حفرةً كبيرة يلقون فيها البنات اللواتي لا يحببن الشباب.

فأخذ الجميع يضحكون، وطوّق يارجوشوف بذراعيه امرأة عجوزاً رغم أن ماريانا كانت جالسةً بقرب أوستينكا. فعاد نازار يتكلم فقال:

- وماريانا؟ ألا تقبّلها؟ يجب أن تتبع الترتيب، فتقبلّهن واحدةً بعد واحدة، بالدور!

فصاح القوزاقي قائلاً، وهو يقبّل المرأة التي كانت تتخبط:

- بل عجوزتي أرق وألطف!

وصرخت العجوز قائلة:

- إنه يخنقني!

ولكن الضحكات سرعان ما انقطعت حين سُمع وقع خطى منتظمة تقرع الأرض في آخر الشارع. إنهم ثلاثة جنود كانوا ذاهبين بمشية موزونة إلى خزينة الفوج لاستلام نوبتهم في الحراسة، وقد ارتدى كل منهم معطفاً وحمل على كتفه بندقية.

العريف الذي يزين صدره بوسام ألقى على القوزاق نظرة قاسية، وسيّر جنوده بحيث يضطر لوكا ونازار، الواقفين في وسط الشارع، إلى إخلاء الطريق لهم، فتقهقر نازار، ولكن لوكا لم

يتزحزح من مكانه، وغضّن أجفانه، ولم يزد على أن أدار رأسه، حتى لقد قال وهو يرمق الجنود بنظرة فيها احتقار:

- ألا ترون أننا واقفون هنا؟ هلاّ درتم دورة لتتحاشونا!

ومرّ الجنود صامتين، يقرعون الطريق الأغبر بأقدامهم. وطفقت ماريانا تضحك، وقلّدتها البنات الأخريات.

قال نازار:

- ما أعظم أناقتهم! لكأنهم بهذه المعاطف الطويلة كهنة!

وأخذ يحاكي الجنود في مشيتهم الموقّعة. فطفق الجميع يضحكون من جديد.

واقترب لوكا من ماريانا ببطء. وسألها:

- أين أسكنتم الرئيس؟

فأجابته:

- في الغرفة التي تطلّ على الشارع.

فتابع لوكا كلامه وهو يجلس إلى جانب الفتاة فقال:

- أهو شاب أم مسنّ؟

فأجابته:

- أتظن أنني سألته عن سنّه؟ لقد أرسلت إليه تشيخيراً. ولمحته من خلال النافذة مع العمّ ياروشكا. أظن أنه أشقر على حمرة. أمتعته تملأ عربة نقل بكاملها.

وخفضت الفتاة عينيها.

قال لوكا وهو يقترب من الفتاة مزيداً من الاقتراب ويحدّق إلى عينيها:

- ما أسعدني بالحصول على هذه الإجازة!

- هل جئت لتبقى مدة طويلة؟

كذلك سألته ماريانا وهي تبتسم ابتسامة خفيفة، فأجابها بقوله:

- إلى الصباح.

ثم أضاف وهو يمدّ يده:

- أعطيني شيئاً من البذور.

فابتسمت ماريانا ابتسامة واضحة صريحة، وفتحت ياقة قميصها وقالت له:

- لا تأخذ كل ما معي.

قال الفتى بصوت مكظوم وهو يستل بذوراً من قميص الفتاة:

- ما أشدّ ضجري في البعد عنك!

ثم مال عليها، وأخذ يهمس في أذنها ببعض الكلام. وكانت عيناه ما تزالان تضحكان.

قالت الفتاة فجأةً بصوتٌ عال وهي تتراجع:

- لن أجيء. أقول لك لن أجيء.

- بل تعالي. صدقي أن هناك أشياء أريد أن أقولها لك. تعالي!

فهزّت ماريانا رأسها رافضةً. وابتسمت.

وقد ظهر أخوها الصغير يهرع نحو حلقة النساء منادياً:

- مارينكا، ماما تدعوك للعشاء.

فأجابته الفتاة:

- سآتي حالاً. ارجع أنت يا صغيري. ارجع وحدك، وسآتي أنا فوراً.

نهض لوكا رافعاً طاقيته، وقال متظاهراً بعدم الاكتراث:

- أرى أنه لم يبقَ لي إلا أن أرجع.

ولكنه لم يملك أن يمسك عن التبسّم. وغاب وراء طرف المنزل.

كان الظلام في أثناء ذلك قد شمل القرية. وتناثرت النجوم المتلألئة في السماء القاتمة. وأعتمت الشوارع وأقفرت. وقد بقي نازار مع النساء على البسطة، فكانت تُسمع الضحكات. أما لوكا الذي ابتعد عن الجماعة بدون ضجّة فقد تجمّع على نفسه كقطّ، ووضع يده على خنجره المتدلّي من حزامه، وأخذ يركض، لا نحو منزله، بل نحو منزل الليوتنان. فاجتاز على هذا النحو من الركض شارعين، إلى أن دار حول طرف المنزل، فأقعى بقرب سياج، رادًّا أطراف جلبابه تحته. قال يحدث نفسه: «يا للبنت التي تصطنع الكبرياء! عجيب! إنها لا تمزح! ولكن تريّث قليلا!».

وأخرجه من تأمّلاته وقع خطى امرأة تقترب. فأصاخ بسمعه، فإذا هو يضحك وحده. كانت ماريانا مقبلةً عليه خافضة الرأس، تسير بخطى سريعة مطردة، وتقرع أوتاد السياح بقضيب في يدها. هبّ لوكا واقفاً. فارتعشت ماريانا وتوقفت. وقالت له:

- يا لك من وغد ملعون! أترعبني هكذا؟

وضحكت ضحكاً مجلجلاً.

فطوّق لوكا الفتاة بإحدى ذراعيه، وبالذراع الأخرى أمسك وجهها.

- هناك شيء أريد أن أقوله لك.. يميناً!

كان صوته يتهدّج ويتكسّر. فأجابته ماريانا قائلة:

- ما أحاديث الليل هذه التي تريدني عليها! أمي تنتظرني. أما أنت فاذهب إلى حبيبة قلبك، إلى روحك.

وتملّصت ماريانا من عناقه، وابتعدت بضع خطوات. حتى إذا بلغت السياج التفتتْ إلى القوزاقي الذي كان يسير بجانبها، ويضرع إليها أن تنتظر لحظة أخرى. قالت له:

- هيه! ماذا تريد أن تقول لي يا جوّاب الليل؟

وضحكت من جديد.

- لا تسخري مني يا ماريانا. أي ضير في أن يكون لي صديقة؟ شيطان يأخذها! قولي كلمة واحدة فتري كم أحبك! سأفعل كل ما تريدنه. اسمعي هذا..

طلب منها أن تسمع وأخذ يحرّك قطع النقد الفضية التي في جيبه فترن. وتابع كلامه:

- في إمكاننا أن نتسلّى. الآخرون سعداء. وأنا لا أظفر منك بأي فرصة يا ماريانوشكا!

لم تجب الفتاة. كانت واقفة أمامه تفتت القضيب الذي في يدها قطعاً صغيرة بحركة سريعة من أصابعها. وفجأةً كزّ لوكا أسنانه وشدّ قبضتيه. وقال لها غاضباً:

- ولماذا الانتظار؟ لماذا الانتظار دائماً؟ ألست أحبك حبًّا كافياً؟ اصنعي بي ما تشائين!

وأمسك يديها. فظل وجه ماريانا ساكناً وظل صوتها هادئاً، وأجابته من دون أن تخلّص يديها:

- لا تهتج يا لوكا، واسمع لما سأقوله لك. ما أنا إلا بنت، اسمع كلامي. ما دمت تحبني فإليك ما سأقوله لك. دع يديّ، فأتكلم من تلقاء نفسي بحرّية. يمكن أن أتزوّجك، أما الحماقات فلا تفكر فيها ولا تعوّل عليها.

كذلك أعلنت ماريانا من دون أن تحوّل وجهها. فقال لوكا وقد استحال من شاب مكفهر شرس إلى فتى رقيق خاضع:

- نتزوّج؟ هذا لا يتوقّف علينا. ولكن أحبّيني أنتِ يا ماريانا..

كان لوكا يبتسم ابتسامة تفيض بالحنان وهو ينظر إلى عيني

الفتاة. فشدّت الفتاة جسمها إليه، وقبّلته في فمه قبلة قوية، ودمدمت تقول وهي تعانقه عناقاً شديداً:

- عزيزي!

ثم إذا هي تنتزع نفسها من بين ذراعيه فجأة، وتركض فتدخل فناء الدار من دون أن تلتفت.

لم تقف ماريانا رغم إلحاح القوزاقي الذي كان يسألها أن تنتظر دقيقةً أخرى وأن تصغي إلى ما يريد قوله، وإنما هي دمدمت تقول:

- انصرف. سوف يرونك. وهذا هو المستأجر اللعين يتمشى في فناء الدار كما أظن...

قال لوكا محدّثاً نفسه: «تريد أن نتزوّج! هذا لا اعتراض عليه. ولكن أحبّيني أولاً!».

وعاد إلى يامكا، فوجد هنالك نازار. فشربا معاً. ثم ذهب إلى دونيا، فقضى الليلة عندها رغم علمه بأنها تخونه.

14

كان أولنين يمشي في فناء الدار فعلاً حين عادت ماريانا. وقد سمع قولها: «هذا هو المستأجر اللعين!». كان أولنين قد قضى الأمسية كلها في صحبة ياروشكا جالساً عند مدخل مسكنه الجديد. وقد أمر بمائدة وسماور وخمرة وشمعة مشتعلة. وكان، وهو يحتسي الشاي ويدخن السيجار، يصغي إلى قصص الصياد الجالس عند قدميه على إحدى الدرجات. ورغم أن الهواء كان ساكناً فقد كانت الشمعة تذوب وكان اللهب يضطرب منحنياً إلى جميع الجهات، فتارة يضيء عمود المدخل وتارةً يضيء المائدة والأواني، وتارةً يضيء رأس الشيخ الأبيض. وكانت فراشات الليل تدور مسعورةً، فتصدم المائدة

أو تتخبّط في الأقداح ناشرةً غبار أجنحتها الدقيق، أو تندفع إلى لهب الشمعة أو تختفي فجأة خارج دائرة الضوء.

لقد أفرغ أولنين وياروشكا وحدهما خمس زجاجات من خمرة التشيخير. وكان ياروشكا كلما ملأ الأقداح يقدّم لأولنين كأساً، ويجزل له التمنيات. حدّثه عن حياة القوزاق في الماضي، وعن أبيه الملقّب بـ«العريض»، الذي كان يحمل على ظهره خنزيراً بريًّا وزنه أربعمائة رطل، ويستطيع أن يشرب سطلين من التشيخير مرةً واحدة. وحدّثه عن الزمان الذي عرفه هو نفسه وعن صديقه جيرتشيك الذي كان يتعاون معه على نقل معاطف اللباد من الضفة الأخرى لنهر تيريك أثناء وباء الطاعون. وروى له كيف استطاع في الصيد أن يقتل خنزيرين بريّين في صباح واحد، وكيف كانت حبيبته تلحق به ليلاً إلى «الكوردون». فكان يروي ذلك كله رواية تبلغ من الحياة ومن الفتنة أن أولنين لم يشعر بانقضاء الوقت.

قال ياروشكا:

- هكذا يا بنيّ! إنك لم تعرفني في عهدي الجميل. ولو عرفتني في ذلك العهد لعلّمتك أشياء كثيرة. اليوم يزعقون ورائي قائلين: «لعق ياروشكا الجرّة». أما في ذلك الزمان فكان الفوج كله ليس له من حديث إلا ياروشكا. من كان يملك أجود حصان؟ من كان عنده سيف جوردا[1]؟ من الذي كانوا يؤمونه ليشربوا عنده قدحاً؟ من الذي كانوا يقضون معه؟ من الذي كانوا يرسلونه إلى الجبال ليقتل عزمت خان؟ ياروشكا دائماً. من الذي كانت البنات تحبّه؟ ياروشكا. ولماذا؟ لأنني كنت دجيغيتاً حقاً، سكيراً، سارقاً. كنت أسرق خيولاً

---

(1) إنّ الأسياف والخناجر التي كانت تقدَّر في القوقاز أكبر القدر كانت تسمى جوردا، وهو اسم الصانع الذي كان يصنعها (حاشية المؤلف).

من الجبال. وكنت أغني. كنت أصلح لكل شيء. لم يبقَ في هذا الزمان قوزاق مثلي! إن ما نراه اليوم يثير في النفس الاشمئزاز! ما أن يصبح طول الواحد هكذا (رفع ياروشكا يده على علو قدم من الأرض) حتى ينتعل جزمتين، ويعجب بنفسه. وتلك هي لذّته كلها. ورجال هذا الزمن يسكرون، لكنهم لا يسكرون كما يسكر الرجال، بل كما يسكر لا يدري إلا الله من!... هل تعلم ما كنت أنا؟ كنت ياروشكا السارق! كنت معروفاً لا في قرانا فحسب، بل في الجبال أيضاً. كان أمراء من التتر يزورونني زيارة أصدقاء. كنت صديقاً للناس جميعاً، تتري؟ لا مانع! يستوي عندي أن يكون الصاحب أرمنيّاً، أو جنديّاً، أو ضابطاً فإنما المهم أن يحسن الشراب! يقال لي: «إن عليك أن تطهّر نفسك بعد أن تكاثرت ذنوبك، لا تشرب مع الجندي، لا تأكل مع التتري..».

سأله أونين:

- من يقول هذا؟

- كهنتنا. ولكن اسمع ماذا يقول الملّا التتري. يقول: «لماذا تأكلون لحم الخنزير يا معشر الكفّار؟». ذلك أن كل إنسان يتقيّد بقانونه. أما أنا فأرى أن الأمور جميعاً سواء. إن الله قد خلق كل شيء لفرح الإنسان. لا وجود للإثم. انظر إلى الحيوانات مثلاً: إنها تعيش بين أعواد القصب التترية، كما تعيش بين أعواد قصبنا نحن. حيثما تذهب يكون منزلها. ما يهبه لها الله تأكله... ولكن أصحابنا يقولون إن الشياطين سيجعلوننا لذلك نلعق فخّاراً محمراً بنار جهنم..

وأضاف يقول بعد صمت:

- أنا أعتقد بأن هٰذا كله باطل.

- ما هو الباطل؟

- ما يقوله الكهنة. اسمع يا بني. كان عندنا في «الستانتسا» كابتن قوزاق. وكان صديقي. وكان فتى باسلاً مثلي، مثلي تماماً. وقد قُتل في تشاشانيا. كان هذا الرجل يقول إن هذه القصص جميعها إنما أخرجها الكهنة من أدمغتهم، فهي تلفيق..؟ كان يقول لي: سوف تموت، وسوف ينبت العشب على قبرك، وينتهي كل شيء.

وضحك الشيخ، وأضاف:

- كان رجلاً مغامراً.

سأله أولنين:

- ما سنّك؟

- الله أعلم. ربما أكون في السبعين! حين كان لكم قياصرة، كنت أنا صبيّاً صغيراً. فاحسب إذن: هل أنا في السبعين؟

- حتماً. وما تزال قويّاً!

- الحمد لله. صحتي جيدة. جيدة تماماً. ولكن ساحرةً، رمتني بسحر...

- بسحر؟ أي سحر؟

- هكذا! رمتني بسحر...

وعاد أولنين إلى الحديث السابق فقال مكرّراً قول الشيخ:

- إذن سينبت العشب على قبرك حين تموت؟

كان واضحاً أن ياروشكا لا يريد أن يبيّن عما في ذهنه إبانة واضحة. فصمت لحظة. ثم قال:

- وأنتَ ما رأيك؟

ثم صرخ وهو يبتسم ويملأ الأقداح:

- اشرب!

15

استأنف ياروشكا كلامه فقال وهو يحاول أن يتذكر:

- إذن... ماذا كنت أقول؟... ها... نعم.. ذلك هو الرجل الذي كنته! كنت صياداً! ليس في الفوج كله صياد مثلي. أي حيوان، أي طائر، يمكنني أن أجده لك، أن أدلّك عليه. أعرف كل شيء. أعرف أين ومتى يمكن الاهتداء إلى كل حيوان. وعندي أيضاً كلاب، وبندقيتان، وشراك، ومنصب، ونسر. وعندي كل ما أحتاج والحمد لله. فإذا كنت لا تتفاخر، إذا كنت صياداً حقيقياً فسوف أريك كل شيء. أرأيت ما أنا؟ إنني أقتفي الأثر. الحيوان يعرف من أنا في هذا المضمار! أعلم أين يختبئ، وأين يرد الماء، وأين يتمرغ؟ فأكمن في شجرة أو في مكان آخر، وأسهر الليل كله متربّصاً به. علامَ البقاء في البيت؟ لارتكاب الإثم؟ للاسترسال في السكر؟ وفوق ذلك كله تجيء النساء وتأخذ تثرثر: كيت وكيت وكيت! ويزعق الأولاد... شيء يُطيّر العقل!... أما أنا فأخرج عند الغسق، وأختار المكان المناسب، فأكبس القصب، وأجلس، وأبقى منتظراً هناك يا صديقي. أعلم كل ما يجري في الغابة. وأنظر إلى السماء، والنجوم تتحرك، فأعرف من مواضعها هل انقضى عليّ تقرّبي زمن طويل. وأنظر حولي: الغابة ترتعش، فأنتظر... سوق تطقطق أعواد القصب، وسوف يجيء الخنزير البري ليتمرّغ في الوحل. وأصغي أيضاً إلى النسور الصغيرة التي طفقت تصرخ، وأصغي إلى الدِّيَكة أو طيور الأوزّ التي أخذت تردّ عليها في «الستانتسا» فإذا كان الأوز هو الذي يردّ كان معنى ذلك أن الليل لما ينتصف بعد. أعرف هذا كله. أو أسمع انطلاق رصاصة في مكان ما، في مكان بعيد جداً، فتزدحم في رأسي الأفكار. أتساءل: «من أطلق النار؟». أهو قوزاقي متربّص مثلي؟ هل صرع الحيوان، أم

عطبه فحسب، وسوف يمضي الحيوان المسكين يسفح دمه بين أعواد القصب في غير طائل؟ آه... أنا لا أحبّ هذا. لماذا عطب حيوان. هذا غباء! أو أتساءل أيضاً: «ألا يمكن أن يكون واحد من الآبريك قد قتل فتى قوزاقياً أحمق؟». ذلك كله يدور في رأسي. ذات مرة كنت أتربّص على شاطئ النهر، فرأيت مهداً يحمله تيار الماء. كان المهد سليماً إلا من كسر في أحد أطرافه، إن ذلك المشهد هو الذي جعل أفكاراً كثيرة تتدفّق في رأسي. لمن عسى يكون هذا المهد؟ وقلت لنفسي: لا بدّ أن جنودنا جاءوا إلى قرية من قرى التشاشان فاقتادوا النساء التشاشانيات، وقتل أحد هؤلاء الشياطين طفلاً صغيراً. حمله من قدميه، وضرب به الحائط! ألا يفعلون هذا؟ آه... إن البشر ليس لهم نفس!... هذه هي الأفكار التي تساورني، فتأخذني شفقة، وأقول لنفسي: رموا المهد في النهر، واقتادوا النساء وأحرقوا البيت! أما الدجيغيت، فقد أخذ بندقيته وجاء إلى ضفتنا يقطع الطريق ويسلب وينهب. وأظل أسترسل في مثل هذا التفكير. ولكن حين أسمع صوت قطيع من الخنازير يشق لنفسه طريقاً بين الأشجار الكثيفة، فإن شيئاً ما يروح يخفق فيّ خفقاناً شديداً. تعالوا يا أحبّائي! وأرى الخنازير تستنشق الهواء، فأتصور أنها تتشمّمني، فأظل لاطياً في مكاني، بينما قلبي يدق: تك تك تك! في الربيع الماضي اقترب مني قطيع كبير كان من فرط كثافته ككتلة سوداء. فبادرت أتلو الدعاء: «المجد للآب والابن والروح القدس»، وهممت أن أطلق النار، فإذا الخنزيرة تلقّن خنانيصها قائلة: «الويل لنا يا صغار! هذا رجل يتربّص بنا!»، وإذا الخنازير جميعها تهرب بين الأدغال فتطقطق تحت أقدامها الأغصان! آه... لو تمكّنت منم تلك الكبرى لمزّقتها إرباً إرباً!

سأله أولنين:

- كيف قالت الخنزيرة لخنانيصها إن رجلاً يرقبها؟

فأجاب ياروشكا:

- ماذا تظن؟ هل تظن الحيوان غبياً؟ لا، إنه أمكر من الإنسان وإن سُمّي خنزيراً بريّاً. إنه يعلم كل شيء. إليك هذا المثال! ربّ رجل يقع على أثرك فلا يعرف ذلك. أما الخنزير البري فإنه إذا وقع على أثرك شمّه فوراً، وولّى هارباً. فالحيوان إذن له ذكاء، ما دام يشمّ رائحتك التي لا تشمّها أنت. وأنت تريد أن تقتله، أما هو فيريد أن يعيش وأن يتجول في الغابة. أنت لك قانونك، وهو له قانونه. وإذا كان هو خنزيراً بريّاً فإنه يساويك، لأنه من خلق الله هو أيضاً، هيه! ألا إن الإنسان لغبي، غبي جداً، غبي جداً!

كذلك ردّد الشيخ عدة مرات وهو يخفض طرفه ويطرق مفكّراً.

وأطرق أولنين مفكّراً كذلك. ونزل عن سطحة الباب، وأخذ يذرع أرض فناء الدار صامتاً عاقداً يديه وراء ظهره.

وثاب ياروشكا إلى نفسه، ورفع رأسه، وتابع بنظره فراشات الليل التي كانت تدور حول لهب الشمعة المترنّح، ثم تلقي بنفسها فيه، فهتف يقول:

- يا غبية! يا غبية! أين تطيرين؟

ونهض وأخذ يطرد الفراشات بأصابعه السميكة. وتابع كلامه قائلاً بلهجةٍ فيها حنان وهو يحاول أن يمسكها من أجنحتها برفق ليرخيها بعد ذلك:

- سوف تحرقين نفسك يا صغيرة. حمقاء! المكان واسع جداً. إنك تعرّضين نفسك للهلاك، وأنا أشفق عليك.

بقي على هذه الحال زمناً يثرثر ويشرب من الزجاجة بينما كان أولنين يمشي في فناء الدار طولاً وعرضاً. وفجأةً ترامت إلى الشاب

تلك الهمسات وراء باب الفناء. فحبس أنفاسه بغير إرادة منه، فسمع ضحكة امرأة، وصوت رجل، وضجّة قبلات. فاتجه إلى الجهة الأخرى من الفناء وهو يدوس بقدميه العشب متعمّداً. ولكن السياج قرقع بعد برهة. إن قوزاقياً يرتدي جلباباً قاتم اللون، ويضع على رأسه طاقية من فراء الاستراكان (هو لوكا) كان يسير محاذياً السياج، بينما كانت تمر أمام أولنين امرأة ممشوقة القدّ، على رأسها خمار، وكأنما تقول مشيتها الواثقة: «لا شيء يجمعني بك، ولا شيء يجمعك بي». وقد تابعها أولنين بنظره إلى أن دخلت البيت، ورآها من النافذة تنضو خمارها وتجلس على دكة. سرعان ما شعر فجأة بإحساس أليم بالعزلة. واجتاحت نفسه رغبات مبهمة، وآمال لا تنضب على موضوع بعينه، وغيرة لا يعرف مصدرها!

كانت الأضواء الأخيرة قد انطفأت في المنازل، وكانت الأصوات الأخيرة قد صمتت في «الستانتسا». والأسيجة، والمواشي التي تبرز واضحةً في الأفنية، وسقوف البيوت، وأشجار الصفصاف الممشوقة، ذلك كله كان يبدو أنه ينام نوماً هادئاً معافى بعد العمل والكدّ في النهار. ولكنك إذا أصخت بسمعك ترامى إليك نقيق الضفادع رتيباً في الأقاصي الرطبة. وإذا نظرت إلى الشرق رأيت النجوم قليلة وكأنها تنصهر في الضياء النامي. أما في قبة السماء فوقك فهي أكثف وأسطع.

كان الشيخ يغفو مسنداً رأسه إلى ذراعه المثنية. صاح ديك في فناء المنزل المقابل. وكان أولنين ما يزال يمشي ذاهباً آيباً غارقاً في أفكاره. بينما هو كذلك سقطت في سمعه أغنية فرحة تصدح بها عدة أصوات معاً. وكان واحد من هذه الأصوات الشابة يغلب على سائرها بقوته.

سأله الشيخ وقد استيقظ:

- هل تعرف من يغني هذا الغناء؟ إنه لوكا الدجيغيت. لقد قتل تشاشانياً، فهو مبتهج بذلك ابتهاجاً عظيماً! يحق له أن يبتهج!... يا للأحمق! يا للأحمق!

سأله أولنين:

- وأنتَ؟ هل قتلت بشراً؟

فانتصب الشيخ مستنداً إلى كوعيه فجأة، وقرّب وجهه من وجه أولنين كثيراً، وصاح يقول له:

- لماذا تلقي هذا السؤال أيها الشيطان؟ ما ينبغي الخوض في هذا الأمر، والكلام عنه! إنه لشيءٌ قاسٍ، قتلُ الإنسان! آه.. قاسٍ، قاسٍ! أستودعك الله يا صديقي الطيّب. ها قد ارتويت وشبعت! هل تصحبني إلى الصيد غداً؟

- تعال خذني.

- انتبه. يجب أن تصحو مبكراً. وإلا فُرضت عليك غرامة.

- اطمئن. سأصحو قبلك.

وانصرف الشيخ. وسكت الغناء. وأخذت تُسمع خطى وأحاديث مرحة. ثم استؤنف الغناء شيئاً فشيئاً، ولكنه الآن يبعد ثم يبعد، وقد انضم إلى أصوات القوزاق صوت ياروشكا الجهير. قال أولنين محدثاً نفسه وهو يتنهّد: «ما أعجب هؤلاء الرجال! ما أعجب هذه الحياة!».

ودخل بيته.

16

إن العمّ ياروشكا قوزاقي محال على التقاعد يعيش وحيداً. لقد اعتنقت زوجته الديانة الأرثوذكسية منذ قرابة عشرين عاماً، وهجرته

لتتزوّج جندياً روسياً برتبة رقيب. وليس لياروشكا ولد. وحين قال إنه كان في الماضي أجسر قوزاقي في القرية كلها، فإنه لم يكن يتباهى كذباً. إن جميع الناس في الفوج يعرفون مغامراته الماضية. لقد قتل أكثر من تشاشاني واحد، وأكثر من روسي واحد.؟ فكان يهاجم هؤلاء وأولئك على السواء. وقد سُجن مرتين بسبب السرقة. إنه يقضي الآن أكثر وقته في الصيد، إنه يبقى في الغابة أياماً كاملة لا يأكل إلا خبزاً ولا يشرب إلا ماء. فإذا عاد إلى القرية ظل يقصف من الصباح إلى المساء.

عاد ياروشكا من عند أولنين، فنام ساعتين، واستيقظ قبل طلوع الصبح، وظلّ مستلقيا فَي سريره يحاول أن يرى رأياً في هذا الرجل الذي عرفه الليلة البارحة. لقد أعجبته «بساطة» أولنين كثيراً (وهو يعني بكلمة «البساطة» أن الشاب لم يقتّر عليه في الخمرة)، ولكن أولنين نفسه أعجبه كثيراً أيضاً. وأدهشه أن يكون جميع الروس «بسطاء» وأغنياء، وأن لا يعلموا شيئاً مع أنهم علماء. فكَّر بينه وبين نفسه في هذه المسائل كلها، وتساءل أيضاً عمّا يمكن أن يُهديه أولنين.

إن مسكن العمّ ياروشكا واسع سعة كافية، وليس قديماً مسرفاً في القِدم. ولكن الإنسان يلاحظ فيه غياب المرأة. كانت غرفة ياروشكا متسخة وتعمها الفوضى، على خلاف المعهود في القوزاق من عادات. المائدة أُلقيت عليها سترة مبقعة بالدم، وقطعة حلوى، وإلى جانب قطعة الحلوى غراب نُتف ريشه وجعل مزقاً لطعام النسر. وعلى الدكك ألقيت أحذية وبندقية وخنجر وكيس صغير وملابس مبتلة وأسمال، واختلط بعضها ببعض على غير نظام. وفي أحد الأركان، بقرب بندقية ثانية ومنصب، أغطست أحذية أخرى في دلو مملوء بماء

قذر يثير الاشمئزاز. وعلى الأرض ترقد شبكة وبضعة تدارج مقتولة. وقرب كرسي تتجول دجاجة مربوطة الساق، فتقرقع تحت قدميها الأرض الوسخة. وفي قاع المدفأة المنطفئة إناء مملوء بسائلٍ لونه كلون الحليب. وفوق المدفأة باز يزعق محاولاً أن يتخلص من وثاقه، ونسر ينتف ريشه قد وقف هادئاً كل الهدوء يتابع الدجاجة بطرف عينه ويميل برأسه تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال. أما العمّ ياروشكا نفسه فهو راقد على ظهره فوق سرير مسرف في القصر قد نُصب بين الحائط والمدفأة. يرتدي قميصاً، ويسند ساقيه الطويلتين إلى المدفأة، منهمك في انتزاع قشور يديه بسبابته، وقد تقشّرتا بسبب حمله النسر من غير قفازين. إن هواء الغرفة، ولا سيما حول الشيخ، مشبع بتلك الرائحة القوية، المركّبة، التي تصاحب الشيخ أينما ذهب، ولكنها ليست رائحة كريهة.

- هل العمّ هنا؟

نادى صوت قاسٍ في النافذة، فسرعان ما عرف الشيخ أنه صوت لوكاشكا، جاره.

أجاب الشيخ:

- نعم، نعم، هنا، ادخل! ماذا تريد من العمّ يا لوكا؟ هل أنت عائد إلى «الكوردون»؟

ارتعش النسر من سماع صوت سيّده، وخفق جناحيه، وشد السلك الذي يربطه.

كان الشيخ يحب لوكا. إن لوكا هو القوزاقي الوحيد الذي ينجو من احتقار الشيخ لجيل الشباب. هذا أن لوكا وأمه جاران طيبان فهما يأتيان الشيخ بخمرة في كثير من الأحيان، ويأتيانه بلبن ومنتجات منزلية أخرى يفتقر إليها الشيخ. على أن ياروشكا الذي كان طوالَ

حياته شديد الحماسة، كان يعلّل صنيع الأم وابنها بأسباب عملية، فكان يقول لنفسه: «هؤلاء أناس ميسورون. أعطيهم صيداً، أعطيهم تدرجاً، فلا ينسون من جهتهم العم ياروشكا، فيقدّمون إليّ فطيرةً أو قرص حلوى من حينٍ إلى حين».

هتف الشيخ يقول:

- نهارك سعيد يا لوكا! أنا سعيد بأن أراك!

وقذف قدميه العاريتين خارجَ السرير بحركة سريعة وانتصب واقفاً، وتقدّم خطوتين على الأرض الدبقة، ونظر إلى رجليه المشوّهتين فوجدهما مضحكتين جداً، فضحك وقرع الأرض بكعبه العاري مرتين كمن يريد أن يرقص، وأردف يقول سائلاً:

- أيعجبك هذا؟ ما رأيك؟

وكانت عيناه تلتمعان. فابتسم لوكا ابتسامة خفيفة. وعاد الشيخ يسأله قائلاً:

- هل أنت عائد إلى «الكوردون»؟

فأجابه لوكا بقوله:

- جئتك بالتشيخير الذي وعدتك به في المخفر.

فقال الشيخ وهو يلمّ ثيابه المبعثرة على أرض الغرفة:

- حماك يسوع المسيح!

ولبس ثيابه، وشدّ حزامه، وسكب على يديه قليلاً من الماء، ونشّفهما بسرواليه العتيقين، وأمرّ مشطاً صغيراً مكسوراً في لحيته، ووقف أمام لوكا، وقال له:

- أنا مستعد!

فتناول لوكا طاساً، ومسحه، وملأه خمرة، وقدّمه إلى العمّ ياروشكا بعد أن جلس.

قال الشيخ وهو يقبّل الطاس بأبهة:

- كأس صحّتك! المجد للآب والابن! نخبَ تحقيق أمانيك كلها! نخب أن تبقى فتى جسوراً، وأن تستحق وسام الصليب!

شرب لوكا وهو يتلو دعاءً مثلما فعل صاحبه، ثم ردّ الطاس إلى المائدة فنهض الشيخ، وجاء بسمكة مجففة، فمدّها على العتبة، وأخذ يضربها بعصا ليجعلها لينة، ثم حملها بيديه في طبق أرز، وهو الطبق الوحيد الذي يملكه، ووضعها على المائدة، قائلاً باعتزاز:

- لا ينقصني شيء والحمد لله! حتى المقبّلات لا تعوزني. هيه؟ وموسيف؟

كان لوكا يحب أن يعرف رأي الشيخ في ما فعله موسيف، فروى له كيف أخذ منه المساعد بندقية الآبريك القتيل.

قال الشيخ:

- لا تطالب بالبندقية. إذا لم تتركها له فلن تحصل على مكافأة.

- أية مكافأة يا عمّ؟ يقال إنه لا مكافأة لقوزاقي ما لم يكن له حصان. والبندقية ممتازة. بندقية من القرم لا يقل ثمنها عن ثمانين روبلاً.

- دعها! لقد تشاجرت هذا الشجار يوماً مع كابتن. كان يريد أخذ حصاني. قال لي: «أعطني حصانك، فأسعى إلى تعيينك ليوتناناً». فلم أقبل، فضاع كل شيء.

- يجب أن أحصل على حصان. ويقال إنني لن أستطيع أن أشتري حصاناً من الضفة الأخرى بأقل من خمسين روبلاً. ولم تبع أمي خمرتها بعد.

قال الشيخ:

- جيلنا نحن لم يكن يصدّع رأسه بهذا الأمر. في سنّك كان

العمّ ياروشكا يسرق قطعان خيل من عند النوجاي، ويعبر بها نهر تيريك. وقد اتفق لنا أن بعنا حصاناً جواداً بمكيال فودكا أو ببوركا.

- لماذا تقبلون بثمن بخس إلى هذا الحدّ؟

قال الشيخ باحتقار:

- يا غبي، يا غبي، لا يمكننا أن نفعل غير هذا. لا يسرق المرء من أجل أن يبخل ويقتّر. لا شكّ أنكم، أنتم، لم تروا في حياتكم كيف تُسرق خيل. ما بالك لا تقول شيئاً؟

أجابه لوكا:

- ما عساني أقول؟ لا بدّ أن رجال اليوم غير رجال الأمس!

قال الشيخ مكرراً كلام القوزاقي الشاب محاكياً نبراته:

- غبي! رجال اليوم غير رجال الأمس! أنا لم أكن هكذا في سنّك!

- ماذا تعني؟

- كان العمّ ياروشكا «بسيطاً»، كان كريماً. لذلك كان جميع التشاشان أصدقائي. كنت إذا جاء واحد من هؤلاء التشاشان أكرمه في بيتي، وأسكره، وأُقاسمه سريري. وكنت إذا زرته أنا أيضاً، أحمل إليه هدية. هذا ما يجب عمله، لا ما تعملونه أنتم. شباب اليوم لا لذّة لهم إلا أن يقضموا بذور دوّار الشمس، وأن يلفظوا قشوره...

بهذا ختم الشيخ كلامه مزدرياً وهو يُلمِّح إلى هؤلاء القوزاق الذين يقضمون البذور ويلفظون قشورها.

قال لوكا:

- أعلم. هذا صحيح!

- إذا أردت أن تكون فتى شجاعاً. فكن دجيغيتاً لا موجيكاً. في وسع موجيك أن يشتري حصاناً: يدفع المال ويأخذ الحصان.

وساد صمت. ثم عاد لوكا يتكلم. فقال:

- وما أشدّ ما يشعر به المرء من ضجر في «الستانتسا» أو في «الكوردون»! أين يمكن للمرء أن يتسلّى! إنهم جميعاً هيّابون! انظر إلى نازار مثلاً. كنا منذ مدة طويلة في قرية من قرى التشاشان. فاقترح علينا قيراي خان أن نمضي إلى النوجاي فنقتاد من عندهم خيولاً. لم يتحرك أحد. هل كان يمكن أن أمضي إلى هذا الأمر وحيداً؟

- والعمّ، ألا تعوّل عليه؟ هل تظن أنني انتهيت؟ لا! إنني لم أنتهِ؟ أعطني حصاناً فأمضي إلى النوجاي.

قال لوكا:

- ما فائدة الثرثرة؟ قل لي كيف أتصرّف مع قيراي خان. إنه يقول لي: «اقتدِ الخيول إلى نهر تيريك فمتى وصلت بها إلى هناك، جعلتها أنا في أمان ولو كان قطيعاً كاملاً». ولكن هل يمكن الاطمئنان إلى قيراي خان والاتكال عليه؟

- يمكنك الاطمئنان إليه والاتكال عليه. إن ذويه جميعاً أناس طيبون. ولقد كان أبوه من أخلص أصدقائي وأوفاهم. ولكن اسمع ما سأقوله لك. لا أريد أن أعلّمك شيئاً يضرّ بك. واطلب منه أن يحلف لك يميناً، فكيف يكون كل شيء مأمون العواقب. وإذا مضيت معه فاحرص على أن تحمل مسدساً ملقّماً في متناول يدك، لا سيما عند اقتسام الخيول. كاد أحد التشاشان أن يقتلني، لأنني طلبت منه عشرة روبلات ثمناً لحصان. في إمكانك أن تثق بهم، ولكن لا تنم أبداً بدون بندقية إلى جانبك.

كان لوكا يصغي بانتباه. وسأل بعد صمت:

- قل لي يا عمّ! هل صحيح أن لديك عشبة سحرية؟

- أنا ليس عندي عشبة سحرية، لكنني أستطيع أن أقول لك

كيف تحصل عليها، لأنك فتى طيب، ولأنك لا تنسى الشيخ العجوز. هل أقول لك؟

- قل!

- هل تعرف السلحفاة؟ إن السلحفاة هي الشيطان. هل تعرف ذلك؟

- أعرف السلحفاة طبعاً.

- فابحث عن وكرها، وضع شباكاً حولها حتى لا تستطيع أن تمرّ، فإذا هي ترجع، وتدور حول الشباك، وتنصرف حالاً، فتمضي إلى العشبة السحرية، فتأتي بها، وتقطع الشباك. فإذا كان صباح الغد، تعال وانظر: فحيث يكون الشباك قد انقطع تكون العشبة السحرية. فخذها واحملها إلى حيث تشاء، فلا يعترضك بعد ذلك لا قفل ولا مزلاج.

- هل جرّبت أنت هذا؟

- لا، لم أجرِّبه، ولكن أناساً أخياراً حدّثوني بالأمر. أنا لم أقل في يوم من الأيام إلا «سلام عليكم» قبل أن أمتطي ظهر الحصان.

- «سلام عليكم»؟ ما هذا؟

- ألا تعرف؟ آه... ما هؤلاء الناس؟ لقد أحسنت إذ سألت العمّ. هيّا، استمع لي وردّد معي:

سلام عليك يا من تسكن جبل صهيون

هذا ملكك

سنركب خيولنا

سوفونيا تصيح

زكريا يتكلم

وأيها الأب ماندرتش

أنت الذي تحب،

تحبّ البشر..

وردّد الشيخ قوله:

- أنت الذي تحبّ، تحبّ البشر! هل فهمت؟ اتلُ إذن!

أخذ لوكا يضحك. وقال يسأل الشيخ:

- أبفضل هذا إذن لم تُقتل؟ أم المصادفة وحدها هي التي نجّتك من القتل؟

- لقد أصبحتم أذكياء مسرفين في الذكاء. هيا احفظ هذا وردّده لي. فلا يلحق بك أذى. تصدح قائلاً: «السلام عليكم». فإذا أنت هادئ مطمئن. أما النوجاي، فدعك منهم ولا تذهب إليهم.

- لماذا؟

- تغيّر الزمان، وتغيّر الرجال. قوزاق اليوم ليسوا إلا برازاً. ثم إن هؤلاء الروس جميعاً، الذين أُرسلوا إلينا... سوف يزجّونكم في السجن. حقاً! دع عنك ذلك الأمر. ليس هو شأنك. آه... حين كنت مع غرتشيك...

وهمّ ياروشكا أن يسترسل في سرد قصة من قصصه التي لا تنتهي حين نظر لوكا إلى النافذة فقاطع الشيخ قائلاً له:

- لقد طلع النهار يا عمّ. يجب أن أذهب. مُرّ بنا إذا أُتيحت لك الفرصة.

- حماك يسوع المسيح! أنا ذاهب إلى اليونكر. لقد وعدته بأن أصطحبه إلى الصيد. أظن أنه فتى طيّب.

17

قفل لوكا راجعاً إلى داره. كان ضباب مخضّل بالندى يصّاعد

من الأرض ويغمر القرية. وكان يُسمع تحرّك المواشي في كل جهة من الجهات من دون أن تُرى. وقد أخذت الدِّيكة تصيح صياحاً أكثر تكرّراً وأشدّ قوّة. وأخذ الناس ينهضون من نومهم. وحين اقترب لوكا من داره وما كاد يبلغها حتى استطاع أن يرى سياجها المبتلّ بالضباب، وفناءها، وباب الحوش، والسور المفتوح، وسمع في الضباب ضربات بلطة تكسر حطباً، ودخل فرأى أمه واقفةً بقرب المدفأة تلقي الحطب في النار.

سألته الأم بصوت خافت:

هل تسلّيت إذن يا لوكا؟ أين قضيت الليلة؟

فأجابها لوكا على مضض:

- في «الستانتسا».

وأخرج بندقيته من الكيس وأخذ يفحصها بانتباه، فأخذت الأم تهزّ رأسها. حتى إذا سكب الشاب باروداً في جفنة البندقية، تناول من كيس صغير بضعة ظروف وأخذ يعبئ الخرطوشات ويكبسها برصاصة ملفوفة بخرقة. ثم انتزع بأسنانه سدّادات الخراطيش التي سبق أن حشاها، فلما تثبّت منها، أعاد الكيس إلى مكانه. والتفت يقول لأمه:

- طلبت منك يا أمي أن ترقّعي السلة، فهل فعلت؟

فأجابته الأم:

- طبعاً. أصلحتها الخرساء في إحدى الأمسيات الماضية. هل أنت عائد إلى المخفر؟ إنني لم أرك.

أجابها لوكا وهو يحزم بارودَه:

- أهيئ نفسي وأمضي. أين الخرساء؟ هل خرجت؟

- لا شكّ أنها تقطع حطباً. إنها قلقة عليك، حتى لتقول: «لن أراه»، مشيرةً إلى وجهها بيدها، ثم تصفّق بأصابعها، وتشدّ يديها إلى

قلبها. هذا يعني: «أنها مشفقة». هل تريد أن أناديها؟ لقد فهمت كل شيء عن قصة الآبريك الذي قتلته.

قال لوكا:

- ناديها، وناوليني الشحم فإنني أريد أن أدهن سيفي.

خرجت العجوز. وبعد بضع لحظات دخلت أخت لوكا الخرساء فكانت درجات الباب تصرُّ تحت قدميها. إن الفتاة أكبر من أخيها بست سنين، وكان يمكن أن تشبه أخاها شبهاً يخطف البصر لولا ما يعبِّر عنه وجهها من بلادة، ولولا ما تتصف به ملامح الصم البكم من قسوة وحركة في آن واحد. كانت ترتدي قميصاً مرقعاً، وكانت قدماها عاريتين، وكان منديل عتيق أزرق يغطي رأسها. إن رقبتها ويديها وطلعتها غليظة ذات عضلات كرجل. وكان واضحاً من ملابسها ومن شخصها كله أنها اعتادت القيام بأعمال شاقة. وقد ألقت حمل الحطب الذي جاءت به قرب المدفأة، ثم أقبلت على أخيها بابتسامة فرحة جعّدت وجهها كله، ولمست كتف الفتى وأخذت تجري له إشارات سريعة بيديها ووجهها وجسمها كله.

أجابها أخوها وهو يهزّ رأسه:

- حسن، حسن جداً، أنت فتاة ممتازة يا ستيبا. لقد رقّعت كل شيء، وأعددت كل شيء، أنت لطيفة! إليك مني هذا عرفاناً وشكراً.

قال لها ذلك ومدّ إليها قطعتي حلوى أخرجهما من جيبه. فتخضب وجه الفتاة بحمرة قانية، وأعولت فرحاً، وتناولت قطعتي الحلوى، وطفقت تُجري إشارات أسرع فأسرع، مارةً بأصابعها العريضة على حاجبيها ووجهها. كان لوكا يفهم ما تريد، ويهزّ رأسه موافقاً على ما تريد التعبير عنه. كانت تقول له إن عليه أن يدلّل الفتيات، وإن الفتيات يحببنه، وإن أحداهنّ، وهي ماريانا أجملهنّ،

تحبّه أيضاً. ومن أجل أن تعيِّن ماريانا كانت تشير إلى جهة منزل ماريانا، ثم تضع إصبعها على حاجبيها ووجهها وتصفق شفتيها هازّة رأسها. ومن أجل أن تعبِّر له عن «أن ماريانا تحبه» كانت تشدّ يديها إلى صدرها، وتقبِّل ذراعها، وتتظاهر بأنها تعانق أحداً. رجعت الأم، فلما علمت ما كانت تقوله الخرساء، ابتسمت وهزّت رأسها. أرتها الخرساء قطعتي الحلوى وهي تعول فرحاً من جديد:

قالت الأم:

- قلت أمس لأوليتا إني سأرسل إليها الخاطبات. فاستقبلت كلامي أحسن استقبال.

نظر الشاب إلى أمه. ثم قال لها:

- أمي، يجب أن تبيعي الخمرة. فأنا في حاجة إلى حصان.

فقالت الأم، وكان واضحاً أنها لا تحبّ كثيراً أن يتدخّل ابنها في شؤون المنزل:

- سأبيعها في الوقت المناسب.

- ثم أضافت تقول له:

- إذا خرجت فاحمل الكيس الصغير الذي وضعته لك في المدخل. لقد استعرتُه لتأخذه أنت إلى «الكوردون» هل تريد أن أضعه في خُرجك.

أجابها لوكا:

- طيّب؟. وإذا جاء ڤيراي خان فارسليه إلى «الكوردون». سوف يصاحبونني بعد الآن مدةً طويلة، فإننا سنقوم بعمل مشترك.

وأخذ لوكا يتهيّأ للرحيل.

أجابته الأم قائلة:

- سأرسله إليك يا لوكا، سأرسله إليك. هل قصفت طوال

الليل عند يامكا؟ لهذا إذن سمعتُ صوتك مشاركاً في الغناء حين خرجتُ ليلاً للعناية بالمواشي.

لم يجب لوكا. وخرج إلى الدهليز. وحمل أكياسه على كتفه، وشمّر جلبابه، وتناول بندقيته، ووقف عند العتبة، وقال للعجوز وهو يدفع الباب:

- أستودعك الله يا أماه. أرسلي إليّ مع نازار برميلاً صغيراً من الخمرة. لقد وعدت الرفاق بذلك. سيجيء إليك نازار لأخذه.

أجابته الأم وهي تقترب من السياج:

- فليحرسك يسوع يا لوكا! أسأل الله أن يحميك ويحفظك. سأرسل إليك خمرة من البرميل الجديد.

ثم أضافت قائلة وهي تميل من فوق السياج:

- ولكنْ اسمع قليلاً.

فتوقف الشاب القوزاقي. فقالت له أمّه:

- لقد تسلّيت هنا والحمد لله! يجب على الشباب أن يتسلّوا. ثم إن الربّ قد وهب لك حظاً؟ هذا حسن. ولكن انتبه هناك يا بنيّ! كن يَقِظاً! اسهر على نفسك! واعتن برئيسك فوق كل شيء، هذا لا غنى عنه ولا بدّ منه! وأنا سأبيع الخمرة، وسأدخر ثمنها لشراء حصان لك، وسأمضي إلى الليوتنان خاطبة.

قال الشاب وهو يقطّب حاجيه:

- طيّب، طيّب!

وصرخت الخرساء لتلفت انتباه أخيها. فلما التفت إليها أشارت إلى رأسها ثم إلى قفا يدها. ومعنى ذلك: «الرأس الحليق، التشاشان». ثم قطّبت حاجبيها، وأجرت حركات من يحمل على كتفه

بندقية ويصوّبها إلى هدف، وعادت تصرخ من جديد وتغني هازّةً رأسها. إنها توصي أخاها لوكا بأن يقتل تشاشانياً آخر.

فهم لوكا ما أرادت أن تقوله له أخته، فابتسم، وأحكم وضع بندقيته تحت دثاره، ثم غاب في الضباب بخطى سريعة خفيفة.

بقيت العجوز أمام باب الفناء بضع لحظات صامتة، ثم عادت تدخل البيت، وسرعان ما استأنفت القيام بأعمالها.

18

بينما كان لوكا يعود إلى المخفر، كان العمّ ياروشكا الذي صفّر لكلابه وقفز من فوق السياج، يتجه إلى مسكن أولنين مارّاً من الخلف (كان ياروشكا حين يمضي إلى الصيد لا يحبّ أن يلقى نساءً) ولما وصل وفتح الباب كان أولنين ما يزال نائماً، وفانيا الذي استيقظ من نومه كان ما يزال ينظر حوله ويتساءل هل آن له أن ينهض.

صاح ياروشكا يقول بصوته العميق:

- انتبه! التشاشان! يا إيفان، أشعل السماور لسيّدك! وأنت انهض! أسرع! هكذا عندنا يا عزيزي! البنات أنفسهن قد استيقظن. انظر من النافذة. هذه واحدة منهنّ تمضي تملأ ماءً منذ الآن، وأنت ما تزال نائماً!

استيقظ أولنين، ووثب عن سريره، وشعر بفرحٍ عظيم لرؤية الشيخ وسماع صوته. وصاح يقول:

- هيّا أسرع يا فانيا، أسرع!

قال الشيخ:

- أهكذا تمضي إلى الصيد؟ الناس تناولت فطورها وأنت ما تزال نائماً!

ثم أضاف ينادي كلبه ملتفتاً إليه:

- ليام، تعال إلى هنا!

ثم زأر يسأل بصوتٍ قويٍّ كأن المنزل ممتلئ بالناس:

- هل بندقيتك مهيّأة على الأقل؟

قال أولنين:

- أنا المخطئ، لا سبيل إلى الإنكار، إليّ بالبارود والحشوات يا فانيا!

- ادفع غرامة!

سأل فانيا مبتسماً:

- «هل تريد شيئاً من الشاي؟»

- ما أنت منا! إنك لا تتكلم كما يتكلم من عندنا ياوبش!

كذلك هتف ياروشكا كاشفاً عن بقايا أسنانه. فقال أولنين مازحاً وهو ينتعل جزمتيه:

- يجب أن تسامحني في هذه المرة الأولى.

- طيّب. سامحتك، فهي المرة الأولى. ولكن إذا وجدتك نائماً في مرة أخرى فسوف تدفع غرامة، سوف تدفع سطلاً من التشيخير. ألا تعلم أنك لن تقع على أيّل متى اشتدّ الحرّ؟

أجاب أولنين يقول مكرّراً ما قاله الصياد الشيخ بالأمس:

- وهبنا وقعنا عليه، فإنه أمكر منا فلا نستطيع أن نخدعه.

- لك أن تضحك! ولكن اصطد واحداً ثم تكلم بعد ذلك. هيّا أسرع!

ثم أردف قائلاً وهو ينظر من النافذة:

- هذا صاحب الدار آتٍ إليك. انظر انظر! لقد لمّع نفسه وارتدى جلباباً جديداً لترى أنه ضابط! يا لهؤلاء الناس!

وجاء فانيا يعلن أن الليوتنان يريد أن يرى أولنين، وقال بلهجةٍ ذات دلالة، منبّهاً مولاه إلى هدف هذه الزيارة:

- «يريد أن يتكلم في أمر المال».

بعد ذلك دخل الليوتنان. كان يرتدي جلباباً جديداً، ويضع على كتفيه شارات ضابط، وكانت جزمتاه ملمّعتين، وهذا أمر نادر جداً، عند القوزاق. دخل مبتسماً متبختراً، وحيّا أولنين بلطفٍ وبشاشة.

إن الليوتنان إيليا فاسيلفتش، الذي أقام في روسيا زمناً، قوزاقي «متعلّم»، ومعلّم مدرسة. ولكنه «نبيل» قبل كل شيء، وهو حرص على إبراز ذلك أشدّ الحرص. ولكنه رغم الطلاء السطحي الذي يتألف من اصطناع طلاقة زائفة ولغة منتفخة مضحكة لا يعدو أن يكون ياروشكا آخر. ترى ذلك في وجهه الملوَّح ويديه وأنفه المبقّع بالحمرة.

قال ياروشكا وهو ينهض ويحيي بانحناءة قوية فيها شيء من السخر فيما بدا لأولنين:

- يومك سعيد يا إيليا فاسيلفتش!

- يومك سعيد يا عمّ! أأنت هنا منذ الآن؟

كذلك أجاب الليوتنان محيّياً بحركة من رأسه فيها إهمال. إنه رجل وسيم في نحو الأربعين من عمره، له لحية صغيرة بيضاء مدبّبة، خشن الجلد، ممشوق القد، لا تظهر عليه سنُّه. كان واضحاً أنه يخشى كثيراً أن يعدّه أولنين مجرد قوزاقي، فهو يريد أن يُشعره بما له من خطورة الشأن.

قال مخاطباً أولنين وهو يبتسم ابتسامة راضية ويشير بيده إلى ياروشكا:

- هذا «نمرودنا المصري». صيّاد كبير، شهادةً لله! يجيد فعلَ كل شيء. هل تمّ التعارف بينكما منذ الآن؟

كان العمّ ياروشكا مطرقاً إلى حذاءيه الرخصين، يهزّ رأسه واجماً كأنما تصعقه هذه اللغة الجميلة وهذه الثقة المطمئنة في الليوتنان. وقد دمدم يقول مراراً: «نمرود المصري؟ ما عساه يخترع أيضاً؟».

قال أولنين موضحاً:

- سنمضي معاً إلى الصيد.

فأجاب الليوتنان محبّذاً:

- حسن. ولكن هناك أمر صغير نريد أن نسوّيه معك.

- أنا رهن أوامرك.

بدأ الليوتنان كلامه فقال:

- لما كنتَ رجلاً من الطبقة النبيلة، ولما كان يشرّفنا، في رأيي، أننا من الضباط، فسوف يمكننا لهذا السبب أن نتفاهم كما يتفاهم أبناء الطبقة النبيلة.

وهنا توقف إيليا فاسيلفتش عن الكلام ونظر إلى محدثه مبتسماً، ثم أردف يقول:

- إذا أردت الحصول على موافقتي الشخصية، لأن امرأتي محدودة الذكاء بحكم ظرفها، ولأنها لم تتمكّن بعد من أن تفهم ما قلته لها مساء الأمس فهماً كاملاً، فإن عليّ أنا أن أقول لك إن مسكني هذا كان يمكن أن يستأجره مرافق قائد الفوج بستة روبلات، عدا أجرة الإسطبل. أما الإسكان المجّاني فأستطيع دائماً أن أرفضه بصفتي نبيلاً. ولكنني أستطيع، إذا كنت ترغب في ذلك، أن أعقد معك اتفاقاً، ولأنني أنا نفسي ضابط، فسوف نستطيع أن نتفاهم

تفاهماً شخصياً، لا بالطريقة التي تُتبع في هذه البلاد بل على أساس التقيّد بجميع الشروط.

دمدم الشيح يقول:

- ما أبرعه في الكلام!

وظل الليوتنان يفيض في الحديث بهذا الأسلوب مدة طويلة. فاستطاع أولنين أن يستخلص من كلامه، بغير قليل من المشقة، أن الليوتنان يريد أن يقبض ستة روبلات أجراً للمسكن. فلم يلبث أولنين أن وافق راضياً، ثم قدّم إلى ضيفه كأساً من الشاي، ولكن الضيف رفض قائلاً:

- من عاداتنا السخيفة أننا نعدّ استعمال كأس يملكه أرثوذكسي أمراً يشبه أن يكون إثماً. صحيح إنني بحكم ثقافتي أدرك أن.. ولكن امرأتي، وهي تنقاد لما يتصف به الإنسان من ضعف...

- فأنت إذن تقبل الشاي؟

- إذا أذنت لي، مضيتُ آتي بكأسٍ خاص لي.

كذلك أجاب الليوتنان، وخرج إلى درج الباب وصاح منادياً:

- إليّ بكأس!

فما هي إلا بضع لحظات حتى فُتح الباب، فامتدت يد فتية مسمّرة خارجة من كمٍّ وردي اللون، حاملة كأساً، فاقترب منها الليوتنان، وتناول الكأس، ودمدم يقول لابنته بعض الكلام. وصبّ أولنين الشاي في الكأس «الخاص» ليشرب ضيفه، وصبّ الشاي في كأس «عام» ليشرب ياروشكا.

قال الليوتنان وهو يحرق فمه من فرط تعجّله في إفراغ كأسه:

- لا أريد أن أؤخّرك. إنني أحب صيد الماء حبًّا شديداً. وما أنا الآن هنا إلا في إجازة، أو في فترة راحة إن صحّ التعبير. وإني

لأحب أيضاً أن أختبر حظي، فأرى هل لي نصيب في «هبات نهر تيريك». وأرجو أن تتفضل فتزورني يوماً فتشرب من خمرة بيتنا المعتّقة، على ما توجبه عادات «الستانتسا» وتقاليدها.

أضاف تلك الجملة الأخيرة وهو يصافح أولنين ويخرج. فأخذ أولنين يتأهب للمضي إلى الصيد، وكان يستطيع أثناء ذلك أن يسمع الليوتنان مصدراً أوامره إلى أهل بيته بلهجةٍ فيها سلطة. وما هي إلا بضع دقائق حتى رأى أولنين ذلك الليوتنان نفسه مرتدياً سروالاً مشموراً إلى الركبتين، وقميصاً وسخاً، ورآه يحمل على كتفه شبكة صيد ويمر أمام نافذته.

قال العمّ ياروشكا وقد فرغ من احتساء كأسه «العام»:

- يا له من وغد! ماذا؟ هل تنوي حقاً أن تدفع له ستة روبلات؟ لم يسمع أحد بمثل هذا من قبل؟ لو شئتَ لأخليتُ لك أجمل منزل في «الستانتسا» بروبلين. يا للوبش! إنني مستعد أن أتنازل لك عن منزلي بثلاثة روبلات!

قال أولنين:

- بل سأبقى هنا.

- ستة روبلات! لا بد! أن المال يجيئك بسهولة هيه! إيفان، هات تشيخيراً.

أصاب أولنين وياروشكا شيئاً من طعام، وشربا قليلاً من الفودكا يستمدّان منها بعض القوّة، ثم خرجا على الشارع. وكانت الساعة في نحو الثامنة من الصباح.

وعند باب الحوش التقيا بعربة نقل تجرّها بقرتان. وكانت ماريانا تجرّ البقرتين بحبل رُبط إلى قرونهما، وقد غطّت رأسها

بمنديل أبيض يستر الجبين إلى العينين، ولبست فوق قميصها سترة مطرّزة، وانتعلت جزمتين، وحملت بيدها عصا.

هتف الشيخ يقول وهو يتظاهر بأنه يريد أن يقبض عليها:

- آ... الحلوة!

فهدّدته ماريانا بالعصا التي كانت في يدها، ونظرت إلى الرجلين مرحةً بعينيها الرائعتين.

أحسّ أولنين بمزيد من الفرح. وقال وهو يردّ بندقيته على كتفه ويشعر بوطأة نظرة الفتاة:

- هيّا بنا! فلنسرع!

وصرخت ماريانا وراء الشيخ تقول له مناكدةً:

- حا... حا..

وسارت العربة مهتزّةً مقرقعة.

كان الضباب قد انقشع بعض الانقشاع، فكشف عن السقوف المصنوعة من أسل رطِب، وتكثف ندًى، وخضّل الطريق وعشب السياج. وكان الدخان يصّاعد من جميع المداخن. وكان الناس يغادرون «الستانتسا»، فبعضهم ينصرفون إلى أعمالهم، وبعضهم يمضون إلى النهر، وبعضهم يذهبون إلى «الكوردون». وكان الصيّادان يسيران جنباً إلى جنبٍ على الطريق الرطبة التي اجتاحتها الأعشاب. كانت الكلاب تركض هنا وهناك، محرّكةً أذيالها ناظرةً في بعض الأحيان إلى صاحبها. وكانت أعداد لا تحصى من البعوض تتبع الرجلين، وتلتصق بظهريهما وبأيديهما وبأعينهما. وكان الجوّ مشبعاً برائحة العشب وفوح الغابة الرطبة. وكان أولنين ما ينفك يلتفت ناظراً إلى العربة التي ركبتها ماريانا وأخذت تستحث بقرتيها بعصاها.

لم يسكت ياروشكا لحظة طوال الطريق الذي سلكاه وراء

المنازل. إنه لم يستطع أن ينسى الليوتنان، فهو لا ينفكّ يجزل له الشتم والسب. فسأله أولنين:

- لماذا تكرهه هذا الكره كله؟

فأجاب الشيخ:

- إنه رجل بخيل. وأنا لا أحبّ هذا. سوف يموت ويترك كل شيء. لمن يكنز؟ لقد بنى منزلين. وانتزع من أخيه بستاناً ثانياً. ما أبرعه في شؤون الأوراق، هذا الكلب! إن الناس يأتون من القرى الأخرى ليستكتبوه أوراقاً. ثم يحدث كلّ شيء على نحو ما كتب... إنه يفعل ما هو لازم تماماً. وليس له إلا ابن وبنت. فمتى تزوّجت البنت أصبح غير مسؤول عن أحد!

قال أولنين:

- هو إذن يجمع لابنته مهراً.

- يجمع لابنته مهراً؟ سوف تتزوّج البنت من دون مهر. إنها فتاة بارعة الجمال! ولكن هذا الشيطان يريد أن يزوّجها رجلاً غنياً. إنّه يريد أن يأخذ هدية ضخمة. إنَّ جاري وقريبي، القوزاقي لوكا، الشاب الشجاع الذي قتل تشاشانياً قد خطبها منذ مدة طويلة. ولكن الأب يسوِّف ويماطل، متعلِّلاً تارةً بأمر وتارةً بأمرٍ آخر. يقول إنَّ البنت ما تزال صغيرة على الزواج. ولكنني أعرف ماذا يريد. ما أكثر ما تقوم الآن من مشكلات بسبب هذه الفتاة. غير أن لوكاشكا سينالها. إنه القوزاقي الأول في القرية. إنه دجيغيت حق! لقد قتل التشاشاني، وسوف يُمنح وسام الصليب.

سأله أولنين:

- ولكن قل لي: مساء أمس، بينما كنت أتجوّل في فناء الدار، رأيت بنت الليوتنان تقبّل قوزاقياً لا أدري من هو. فما معنى هذا؟

صاح العجوز وهو يتوقّف فجأة:

- كذب!

فقال أولنين مؤكِّداً:

- أحلف لك.

قال ياروشكا:

- لعن الله النساء! كيف كان ذلك القوزاقي؟

- لم أستطع أن أراه.

- هل كان يضع على رأسه طاقية بيضاء؟

- نعم.

- وكان يرتدي جلباباً أحمر؟ وكان في مثل طولك تقريباً؟

- بل أطول مني قليلاً.

فانفجر ياروشكا ضاحكاً وقال:

- إنه هو إذن. إنه هو. إنه لوكا. لوكا نفسه. أنا أحبّ هذا. هكذا كنت أنا. البنات لم يُخلقن للنظر!... كانت حبيبتي تنام مع أمها وزوجة أخيها، فكنت رغم ذلك أصل إليها. كانت تسكن في مكان عالٍ جداً. وكانت أمها الملعونة لا تُطيقني. كانت تكرهني كرهاً شديداً. وكنت أجيء مع صديقي قيرتشيك. فنصل إلى ما تحت النافذة، فأتسلق كتفي قيرتشيك، وأرفع زجاج النافذة، وأتلمس. إنها نائمة هناك، على دكة. أيقظتها مرة. فصاحت تقول: «آه». لم تعرفني. قالت: «من هنا؟». ولم أستطع أن أنطق بكلمة. فقد أخذت أمها تتحرّك. نزعت طاقيتي، ودسستها فوق بوز الفتاة. فسرعان ما عرفتني من تفصيلة طاقيتي. فلحقت بي. آه... كنت لا أفتقر إلى شيء، لا شيء كان يعوزني. كانت تجيئني بلبن رائب، وعنب، وأشياء كثيرة...

كذلك أضاف ياروشكا الذي يستشهد دائماً بأمور عملية.

وأضاف:

- ولم تكن الوحيدة... تلك حياة!

- والآن؟

- الآن نتبع الكلب، فنقع على تدرج، فمتى حطّ على شجرة كان عليك أن تطلق النار.

- كان ينبغي لك أن تحاول مع ماريانا.

- راقب الكلاب، وستحدّثني في المساء عمَّا يجري لك.

قال الشيخ ذلك وهو يومئ إلى ليام، كلبه الأثير.

وصمت الرجلان.

توقّف الشيخ مرة أخرى بعد نحو مائة خطوة، وأشار إلى غصن ساقط على الطريق عرْضاً، فسأل الشاب:

- ما رأيك؟ أتظن أن هذا الغصن ساقط هذا السقوط مصادفةً؟

لا، إنَّ هذه العصا نذير شر.

- نذير شرّ؟ لماذا؟

أنت لا تعرف شيئاً. اصغِ إليَّ. إذا رأيت عصا ملقاةً في الطريق عَرَضاً، فحذار أن تتخطّاها، وإنما يجب عليك أن تلتفّ حولها أو أن ترميها إلى جانب الطريق قائلاً: «المجد للآب والابن وروح القدس»، وتتابع سيرك، فلا يقع لك سوء. ذلك ما علَّمنيه الشيوخ.

هتف أولنين قائلاً:

- سخافات! حدِّثني عن ماريانا. أهي تلهو.إذن مع لوكا؟

فقاطعه الشيخ قائلاً بصوتٍ خافت:

- شتْ! الآن اسكت. افتح أذنيك. إنّنا ندخل الغابة.

تقدّم ياروشكا بحذاءيه الرخيين من دون ضجّة، فصار أمام صاحبه، ودخل ممراً يغوص في الغابة المتوحّشة الكثيفة الملأى أشواكاً. والتفت عابساً عدّة مرات إلى أولنين الذي كان يُحدث ضجّة

بجزمتيه الضخمتين، ويشبك بندقيته أحياناً بالأغصان التي تجتاح الممرّ، وقال له هامساً مستاءً:

- لا تُحدث ضجّة! سِرْ برفقٍ وهدوءٍ أيّها الجندي!

إن المرء يحسّ من رطوبة الهواء أنّ الشمس قد طلعت. وقد انقشع الضباب، لكنّه ما يزال يخفي ذرى الأشجار التي تبدو سامقة سموقاً شديداً. وكان منظر الأشياء يتغيّر عند كلّ خطوة جديدة. فإذا الذي كان يُظَنّ شجرة يتكشّف الآن عن دغل، وإذا عود القصب يصبح الآن شجرة.

19

كان كلّ شيء هادئاً ساكناً. ضجيج القرية ما عاد يبلغ الصيّادين. في بعض الأحيان فقط يقرقع غصنٌ صغير تحت أقدام الكلاب. ومن حين إلى حين تزقزق عصافير. إن أولنين يعلم أن الغابة خطرة: ففي مثل هذه المواضع إنما يختبئ دائماً رجال الآبريك. وهو يعلم أيضاً أن البندقية سلاح لا غنى عنه في الغابة. ليس معنى ذلك أنه خائف. ولكنّه يعلم أنّ غيره لو سار في هذه الغابة لشعر بخوفٍ، فكان يرسل بصره في أعماق الغابة المعتمة الرطبة متفحّصاً منتبهاً أشدّ الانتباه. وكان يصيخ بسمعه إلى أقلّ ضجة، ويشدّ إليه بندقيته، ويحسّ بشعورٍ ممتع لا عهدَ له بمثله من قبل. وكان ياروشكا يسير أمامه، ويتوقّف عند كلّ مغيض يرى فيه آثار أظلاف متشعّبة، فينعم النظر فيها طويلاً، ويدل عليها أولنين. وقد أصبح صامتاً لا يكاد يتكلّم قطّ، ولا يُبدي ملاحظةً إلا من حينٍ إلى حينٍ بصوتٍ خافت. وكان الممرّ الذي يسلكه الرجلان قد شقته في الماضي عربة نقل، ولكنّ الأعشاب قد اجتاحته الآن. وكانت غابة الدردار والدّلب تبلغ من الكثافة وكثرة الأشواك أن المرء لا يستطيع أن يميّز من خلالها شيئاً. وكانت أغصان الدوالي تلتفّ حول جميع الأشجار تقريباً من

أعلاها إلى أدناها، وكانت أدغال كثيفة من شوك أسود تنبت في أسفلها. وما من فسحة في الغابة، مهما تكن صغيرة، إلا غَشِيَها العوسج وملأتها أعواد القصب التي تهتزّ رؤوسها السوداء عند هبوب أضعف نسمة. وفي بعض المواضع، من شقوق عريضة أو شقوق صغيرة كالأنفاق، كانت تفرّ طريدة كبيرة أو تدارج صغيرة وتغيب في غياهب الغابة الكثيفة. وكانت قوّة هذا النبت الذي لم تطأه مواشٍ في يوم من الأيّام يُذهل أولنين في كلّ خطوة. إنه لم ير من قبل شيئاً كهذا أبداً. فكانت الغابة، ومشاعر الخطر، وهذا الشيخ الذي يهمس همساً سرياً، وماريانا ذات الجسم القوي والقدّ الممشوق، والجبال. . . كان ذلك كلّه يبدو له حلماً من الأحلام.

همس الشيخ قائلاً وهو يلتفت إلى الشاب ويخفض طاقيته على وجهه:

- هذا تدرج يحطّ. اخفِ خطمك! تدرج! هذا تدرج! التدارج لا تحبّ خطم الإنسان.

قال ذلك وهو يحرّك يده بإشارة ساخطة، وتقدّم إلى أمام زاحفاً زحفاً، على أربع تقريباً.

كان أولنين ما يزال متأخّراً عن صاحبه حين توقّف الشيخ وأخذ ينظر إلى الشجرة متفحّصاً. وصاح التدرج رداً على نباح الكلب، وأبصر أولنين التدرج. وفي تلك اللحظة دوَّت طلقة قوية كأنّها طلقة مدفع، خرجت من بندقية ياروشكا الضخمة. فصفق الطائر جناحيه وتطاير بعض ريشه، وسقط على الأرض. فلما اقترب أولنين من الشيخ بصر بتدرج آخر، فشدَّ بندقيته إلى كتفه وصوَّبها وأطلق. فارتفع التدرج صاعداً في الهواء، ثم إذا هو يتدحرج من غصنٍ إلى غصن، ثم يسقط بين الفروغ الشائكة كما يسقط حجر.

صاح الشيخ يقول:

- طلقة حلوة!

لقد كان هو نفسه لا يحسن إصابة التدرج طائراً.

وحمل الرجلان التدرجين، وتابعا سيرهما.

كان من شأن هذا النجاح الذي أصابه أولنين، وهذا الثناء الذي أزجاه الشيخ، أن أنعش الشاب انتعاشاً قوياً، فأصبح لا يكفّ عن الكلام.

فقاطعه الصياد الشيخ قائلاً:

- قف! سنمضي من هنا. لقد رأيت بالأمس آثار أقدام أيّل.

ونفذا في الأغيال. حتى إذا قطعا زهاء ثلاثمائة خطوة بلغا فسحة تغشاها أعواد القصب ويُغرق بعضها الماء. إن أولنين ما يزال متخلِّفاً عن الصياد الشيخ في سيره. فالشيخ يتقدّمه مسافة عشرين خطوة، وها هو ذا يميل على الأرض ويشير له بيده، ويهزُّ رأسه بهيئة معبِّرة. فأدركه أولنين فرأى ما كان يدلّه عليه الشيخ من آثار أقدام إنسان.

- هل ترى؟

- أرى. فما هذا؟ آثار أقدام إنسان؟

ألقى أولنين هذا السؤال محاولاً أن يتكلّم بأهدأ لهجة. وخطر بباله، على غير إرادة منه، «مقتفي الأثر» في رواية كوبر، وخطر بباله رجال الآبريك. ورأى ما كان عليه الشيخ من وضع ملفَّع بالسر، فلم يجرؤ أن يلقي عليه سؤالاً، وإنما أخذ يتساءل هل يدلّ هذا الوضع على أن هناك خطراً وشيكاً.

أجابه الشيخ ببساطة:

- بل هذه آثار قدميَّ أنا.

ثم دلّه على عشب تحته آثار حيوان، ولكنها آثار دارسة لا تكاد تُرى.

واستأنف الشيخ سيره، فكان أولنين يتبعه قريباً منه. فسارا مسافة عشرين خطوة هابطين، حتى وصلا إلى خيسٍ كثيف بقرب شجرة كمثري برية منثورة الأغصان قد انتثر على الأرض تحتها بعر طري.

إن المكان مفروش بالدوالي البرية حتى ليشبه أن يكون عرزالاً مريحاً ظليلاً ندياً.

قال الشيخ متنهّداً:

- في هذا الصباح كان هنا. إن مرقده ما يزال مخضلاً بعرقه.

وفجأة سُمعت في الغابة على مسافة عشر خطوات من الصيادَيْن قرقعة شديدة، فانتفضا كلاهما وامتشقا بندقيتيهما، ولكنهما لم يريا شيئاً، وأصبحا لا يسمعان إلا تكسّر الأغصان. ثم ترامى إليهما صوت عدوٍ سريع مطرد خلال لحظة، ولم يلبث الصوت أن استحال إلى همهمةٍ ما تنفكّ تنتشر وتوغل في الغابة الصامتة مبتعدةً مزيداً من الابتعاد شيئاً بعد شيء. شعر أولنين بشيء يتقطّع في صدره. وأرسل بصره في أغوار الغابة محاولاً أن يتبيَّن شيئاً فلم يظفر بطائل. والتفت أخيراً إلى الشيخ. كان ياروشكا شادًّا بندقيته إلى صدره، رادًّا طاقيته إلى وراء، ساكناً لا يتحرّك. وكانت عيناه تسطعان سطوعاً خارقاً. وكانت كشرة قد جمَّدت فمه الذي تبرز منه أسنان صفراء متآكلة، بروزاً فيه غضب وشر.

قال:

- أيّل!

ورمى بندقيته على الأرض بحركةٍ حانقة، وأخذ يشدّ لحيته الشائبة، ويردِّد:

- كان هنا! كان ينبغي أن نأتيه من الممر... ما أغباني! ما أغباني!

وعاد يقبض على لحيته حانقاً، ويشدّها شدًّا موجعاً، ويكرِّر قوله:

- غبي! خنزير!

لكأنّ شيئاً كان يحلِّق في الضباب فوق الغابة. وكانت همهمة ركض الأيِّل الذي فرَّ تترجَّع في بعيد...

لم يرجع الصيادان إلى القرية إلا عند الغسق. كان أولنين متعباً جائعاً، ولكنه يفيض قوّة. فوجد عشاءه ينتظره، فأكل وشرب مع الشيخ، ثم خرج إلى درج الباب مفعم النفس جسارة وسعادة. وعادت الجبال تنتصب أمام عينيه تحت الشمس الغاربة. وعاد ياروشكا يقصّ عليه حكايات لا تنتهي، عن حملات الصيد، ورجال الآبريك، والنساء، وحياة المغامرة واللامبالاة التي عاشها في أيامه الخوالي. وعادت ماريانا الجميلة تخرج وتدخل مجتازةً فناء الدار، فكانت خطوط جسمها القويّ البكر ترتسم تحت قميصها.

20

في الغد ذهب أولنين وحده إلى المكان الذي أخرجا منه الأيِّل بالأمس هو والصياد الشيخ. ولم يغادر الدار من باب الفناء بل وثب فوق سياج الأسل كما يفعل جميع الناس. وما كاد يخلِّص جلبابه من الأشواك التي تشبَّثت به حتى كان كلبه الذي كان يركض أمامه قد بصر بتدرجين. وما كاد ينفذ بين أشجار البرقوق الشائك حتى أخذت التدارج تفرُّ من تحت قدميه (إن الشيخ لم يكشف له أمس عن هذا المكان، وإنما احتفظ به للصيد بالشباك)، فاستطاع أولنين أن يقتل

خمسة تدارج باثنتي عشرة طلقة. ولكنه لقى عناءً كبيراً في جمعها من بين الغصينات الشائكة، حتى لقد تصبّب وجهه عرقاً من فرط الجهد. ونادى كلبه، وأفرغ بندقيته، وخفض زنادها، وتابع سيره بخطى بطيئة وهو يدفع عنه البعوض بكمَّيْ جلبابه الفضفاضين. ولكنه لم يستطع أن يسيطر على كلبه الذي ظلّ يتشمّم آثار التدارج حتى على الطريق. فقتل تدرجين آخرين، فأخَّره ذلك عن متابعة سيره، فلم يستطع أن يهتدي إلى المكان الذي جاء إليه بالأمس إلا نحو الظهيرة.

كان النهار مضيئاً هادئاً حارّاً. وكانت أعداد لا تُحصى من البعوض تعمي الفتى وتلتصق بوجهه وظهره ويديه. والكلب الذي كان أسود اللون قد أصبح من ذلك أسمر أغبر، وتغطّى ظهره بالبعوض، واصطبغ رداء الصياد الذي كان البعوض يلسعه بنباله، اصطبغ بذلك اللون نفسه. وخطر ببال أولنين أن يفرّ، حتى لقد تراءى له منذ ذلك الحين أن الحياة في القرية صيفاً ستكون أمراً مستحيلاً. وفيما هو يقفل راجعاً أدراجه، قال لنفسه إن هناك أناساً قد ألفوا هذه الحياة واعتادوها مع ذلك. فقرّر أن يصبر، وترك نفسه طعاماً لهذه الحشرات. ومن غريب الأمر أنه لم يلبث أن شعر بذلك الإحساس الذي يوشك أن يكون ممتعاً. حتى لقد بدا له أنه لو زال من حوله هذا الجو المدوِّم، وزالت عنه هذه العجينة من البعوض التي كانت يده تفرشها على وجهه الناضج عرقاً، وزال عن جسمه هذا الحكاك المثير الذي يغشاه كله، لفقدت الغابة على الفور طابعها الوحشي وفتنتها الخلابة. إن هذه الأعداد التي لا تُحصى من الحشرات ينسجم وجودها كلّ الانسجام مع هذا النبات الغزير غزارة مجنونة، ومع هذه الكثرة الكبيرة من الحيوانات والطيور، ومع هذه الخضرة القاتمة، وهذا الهواء المحرق المشبع بالروائح، وهذه الحفر الملأى بماء عكر يفد إليها من نهر تيريك ويقرقر تحت أغصانها الواطئة! وهكذا فإن ما

كان يجده أولنين كريهاً لا يطاق أصبح في نظره ممتعاً لذيذاً.

وبعد أن دار حول الحرجة التي فرَّ منها الأيِّل بالأمس، لم يقع بصره على شيء، شعر بحاجة إلى الراحة. كانت الشمس في قبة السماء فوق الغابة تماماً، وكانت أشعتها العمودية تلسع ظهره ورأسه كلما دخل في طريق مشقوق أو صار إلى فسحة مكشوفة. كما كانت التدارج السبعة الضخمة تثقل على خاصرتيه إلى حد إيلامه. ثم ها هو ذا يهتدي إلى آثار الأيِّل التي رآها بالأمس مع ياروشكا، فاندسّ تحت دغل من الحرجة، في المكان الذي كان الأيِّل قد رقد فيه، وتمدَّد أمام مأوى الحيوان. وراح ينعم النظر في الخضرة القاتمة التي تحيط به من كلّ جانب، وفي النقرة التي كان يشغلها الحيوان، وفي بصمة ركبتيه، وفي بعره، وفي تلعة من تراب أسود كان قد انتزعها الأيِّل، وفي آثار أقدامه هو نفسه بالأمس.

كان يحسّ بغبطةٍ وارتياح، ولا يفكِّر في شيء ولا يتمنّى شيئاً. ثم إذا هو، على حين فجأة، تغمره، بغير سبب ظاهر، سعادة تبلغ من الجدّة والقوّة والغرابة، ومحبة واسعة تشمل الكون بأسره وتبلغ من الشدّة والاندفاع والحماسة. لقد رأى نفسه ينقاد لعادةٍ قديمة من عادات طفولته فيرسم إشارة الصليب عدّة مرّات، ويزجي الشكر والحمد إلى أحدٍ لا يدري من هو. وقال يحدّث نفسه بغتةً: «هأناذا إذن، أنا ديمتري أولنين، قد غدوت إنساناً مختلفاً عن سائر الناس، أرقد وحيداً لا يدري إلا الله أين، في مكان كان يسكن فيه أيِّل، أيِّل جميل جداً، لا شك أنه لم ير في حياته إنساناً، في مكان لم يجلس فيه أحد يوماً، ولا خطرت فيه بباله هذه الأشياء!... أنا هنا، ومن حولي تنتصب أشجار فتية وأشجار مسنّة قد التّفت على جذع إحداها دالية برية. وعلى مقربة مني تضطرب وتتحرّك تدارج يطارد بعضها

بعضاً، ولعلّها تتشمّم إخوتها التي قتلتها». وجسَّ أولنين تدارجه، وأنعم النظر فيها، ومسح بجلبابه يده المصطبغة بدم فاتر. وعاد يحدّث نفسه قائلاً: «لعلّ أبناء آوى تشمّ رائحة الدم أيضاً فتبتعد غاضبةً مكشّرة. والبعوض حولي يملأ الهواء ويدندن. ويدوّم بين الأوراق التي لا بدّ أنها تبدو له جزراً واسعة. بعوضة، اثنتان، ثلاث، أربع، مائة، ألف، ملايين. جميعها تدندن لا أدري بماذا، وجميعها تريد شيئاً. وكلّ منها كائن فرد، كلّ منها ديمتري أولنين، مثلي». وأخذ يتصوّر بوضوح ما كان يفكّر فيه البعوض ويدندن به: «من هنا، من هنا يا أصحاب... هذا واحد نستطيع التهامه!». ويلتصق به البعوض ويلتصق. ويبدو له عندئذ أنه ليس سيداً من سادة الروس، ليس فرداً من أفراد المجتمع الراقي بموسكو، ليس صديقاً أو قريباً لفلان أو فلان من الناس، وإنما هو بعوضة كسائر البعوض لا أكثر، أو هو تدرج أو أيِّل كسائر التدارج والأيائل التي تعيش حوله. «مثلها ومثل العمّ ياروشكا، سأعيش زمناً ثم أموت. لقد صدق: سينبت العشب على قبري وينتهي كلّ شيء».

«ولكن أي ضير في أن ينبت العشب على قبري؟ يجب أن أعيش مع ذلك، وأن أكون سعيداً. انني لا أتمنى شيئاً غير هذا: السعادة! لا يهمّني ما أنا: لا يهمّني أن أكون حيواناً كسائر الحيوانات التي سيغطيها العشب، أو أن أكون إطاراً نفذ فيه شيء من الألوهية. فإنما المهم أن أحيا وأن أحيا على أحسن نحو. ولكن كيف يجب أن أحيا من أجل أن أكون سعيداً؟ ولماذا لم أكن سعيداً من قبل؟» واستعرض حياته الماضية، فاشمأزَّ من نفسه أشدّ الاشمئزاز. رأى نفسه أنانياً كثير المطالب، مع أنه لم يكن في الواقع محتاجاً إلى أي شيء لنفسه. وظلّ يتأمّل الخضرة الشاقّة، والشمس التي مالت إلى

الغروب، والسماء الصافية، فكان ذلك الشعور بالسعادة يلازمه وكان يتساءل: «لماذا أنا سعيد؟ ولماذا عشت حتى الآن؟ ما كان أكثر تشدّدي في مطالبي لنفسي! ما أعظم ما كنت أعقّد الحياة فلا أصل إلى غير الحسرات والشعور بالخزي! ثم هأناذا لا أحتاج إلى شيء من أجل أن أكون سعيداً!» وأحسَّ فجأة أنه يكتشف نوراً جديداً. قال لنفسه: «هذه هي السعادة. السعادة هي أن يعيش الإنسان لغيره. ذلك واضح. إن في الإنسان حاجة إلى السعادة. وهذه الحاجة إذن مشروعة. فإذا أرضى هذه الحاجة إرضاءً أنانياً، أي بالسعي لنفسه وراء الغنى والمجد والرخاء والحب، فقد تجري الأمور مجرى يكون فيه إرضاء هذه الرغبات مستحيلاً. فهذه الرغبات هي التي ليست مشروعة، لا الحاجة إلى السعادة. فما هي إذن الرغبات التي يمكن إرضاؤها دائماً مهما تكن الظروف الخارجية؟ ما هي؟ هي الحبّ، وهي التضحية!». فما إن انتهى إلى اكتشاف هذا الذي ظنّه حقيقة جديدة حتى اعتراه فرح شديد هزَّه هزًّا بلغ من القوّة أنه وثب واقفاً على قدميه، وطفق من نفاد صبره يبحث عمَّن يمكن أن يضحّي بنفسه في سبيله فوراً، عمَّن يستطيع أن يحسن إليه، عمَّن يحب. وقال محدِّثاً نفسه: «حقاً ليس الإنسان في حاجة إلى شيء لنفسه، فلماذا لا يحيا من أجل غيره؟».

وحمل بندقيته، وخرج من الحرجة منتوياً أن يرجع إلى بيته بأقصى سرعة، ليفكّر في هذا كلّه، وليقع على فرصة الاحسان إلى أحد. فلما بلغ الفسحة التفت إلى وراء. كانت الشمس قد أخذت تختفي وراء ذرى الأشجار. وكان الجوّ قد ازداد طراوة وبرودة. وبدا له المكان الذي كان فيه مجهولاً لا يشبه حواشي «الستانتسا». لقد تبدَّل كلّ شيء. تبدَّل الجو. وتبدَّل حتى شكل الغابة وطابعها. السماء

تغشاها الغيوم، والريح تهمهم بين أوراق الشجر. ولا تُرى في كلّ مكان إلا أعواد قصب وأغصان ميتة صارت حطباً. نادى أولنين كلبه الذي كان قد ابتعد مطارداً حيواناً، فكان لصوته ترجّع موحش وحشة غريبة. فاستبدّ الغمُّ بأولنين فجأة، واعتراه خوف. وتذكّر ما رُوِي له عن رجال الآبريك وحكايات القتل، فكان يتوقّع أن يخرج له تشاشاني من كلّ دغل. سوف يكون عليه في هذه الحالة أن يدافع عن حياته وقد يموت، أو أن يهرب كما يهرب رجل جبان. وفكّر في الله، وفي الحياة الآخرة، كما لم يفكّر فيهما منذ زمن طويل. وما تزال الطبيعة القاتمة القاسية المتوحّشة تكتنفه هي نفسها من كلّ جانب. قال لنفسه: «هل تستحق الحياة من المرء أن يحياها لنفسه حقاً بينما هو يمكن في كلّ لحظة أن يموت من دون أن يعلم به أحد وقبل أن يصنع أي خير؟». وسار في الاتجاه الذي اعتقد أنه لا بدّ أن يوصله إلى القرية. أصبح لا يفكّر في الصيد، وشعر بتعبٍ مرهق، وأمسى ينظر بإنتباه يكاد يمازجه خوف، إلى كلّ دغل وكل شجرة، منتظراً أن يودِّع الحياة في كلّ لحظة. وظلّ يطوف مدة طويلة قبل أن يصل إلى جدول صغير يسيل فيه ماء بارد محمَّل بالرّمل، آتٍ من نهر تيريك، فقرَّر أن يسير محاذياً هذا الجدول حتى لا يضلّ الطريق. فكان يتقدّم في سيره من دون أن يعرف إلى أين سيفضي به هذا الجدول. وبينما هو كذلك إذ قرقعت وراءه أغصان الأسل، فارتعش وأمسك بندقيته. ولكنه لم يلبث أن خجل من نفسه، كان كلبه اللاهث قد ارتمى في الماء البارد وأخذ يلعق منه بشراهة.

شرب هو أيضاً، وسار في الاتجاه الذي قاده فيه الحيوان معتقداً أنه سيوصله إلى «الستانتسا» ورغم أنه أصبح لا يشعر بالوحدة كان يبدو له كلّ شيء من حوله أشد كآبة وجهامة وشؤماً.

كانت الغابة تعتم، وكانت الريح تهز ذرى الشجر العالية بمزيد من العنف شيئاً بعد شيء. وأخذت طيور كبيرة تدور حول أعشاشها مطلقةً صيحات حادة. وصارت النباتات أقل كثافة، وأخذت الفسحات الرملية التي تُرى فيها أقدام الحيوانات أوفر عدداً، وأمست أعواد الأسل أشد اضطراباً وأقوى حفيفاً. وامتزجت بهمهمة الريح ضجّةٌ أخرى حزينة رتيبة. وكذلك تجهّمت نفس الفتى واجتاحتها كآبة. وتلمس التدارج على ظهره، فلاحظ أنها قد نقصت واحداً. لقد انفصل أحدها وسقط. غير أن رقبته المدماة ورأسه ما يزالان عالقين بالحزام. استولى على الشاب رعب لم يشعر بمثله في حياته. وأخذ يصلّي. لم يكن خائفاً إلا من شيء واحد، هو أن يموت قبل أن يصنع خيراً، بينما هو يريد أن يعيش عمراً طويلاً ليستطيع أن يقوم بتضحية من التضحيات كبيرة.

21

أحسّ أولنين فجأة كأنّ الشمس تضيء نفسه: لقد سمع أصواتاً تتكلّم الروسية! وسمع خرير نهر تيريك ينحدر سريعاً. فما إن سار خطوتين حتى بصر بصفحة ماء النهر سمراء متحرّكة، ورأى الرمل الرطب الأصهب في حافاته وجروفه، ورأى السهب البعيد، ومرقب المخفر مطلاً على الماء، وحصاناً مسرجاً مربوطاً بين أشجار البرقوق الشائك، ورأى الجبال.

وخرجت الشمس الحمراء لحظةً من الغيوم، فأسقطت شعاعاً أخيراً فرحاً على الماء والقصب والمرقب وجماعة القوزاق التي رأى أولنين بينها قامة لوكا القوية الرشيقة، فلفتت انتباهه وخطفت بصره.

شعر أولنين مرةً أخرى بسعادة طافحة ليس لها سبب ظاهر. لقد وصل إلى مخفر نيجني بروتوك الذي يقع على نهر تيريك في مواجهة

قرية على الضفة الأخرى من قرى التشاشان، خاضعة مسالمة. وحيا القوزاق. فلما لم يجد أية فرصة للاحسان إلى أحد، دخل الكوخ، فلم يجد هنالك مثل هذه الفرصة أيضاً، فقد استقبله القوزاق استقبالاً فاتراً، فمضى إلى الكانتين وأشعل سيجارة.

لم يهتم القوزاق بالشاب، أولاً لأنه كان يدخّن، وثانياً لأنهم كانوا في ذلك المساء مشغولين بتسلية أخرى. إن التشاشان المتمرِّدين، أقرباء الآبريك الذي قتله لوكا، قد جاءوا منذ هنيهة في صحبة ترجمان ليفتدوا جثمان القتيل. وكان الجميع ينتظر وصول سلطات «الستانتسا». وكان أخو القتيل، وهو رجل طويل القامة ممشوق القد، له لحية مقصوصة مصبوغة بحناء، هادئاً جليلاً كقيصر، رغم ثيابه الممزقة وطاقيته المهترئة. كان لا يتفضل بإلقاء نظرة على أحد، حتى أنه لم ينظر إلى الجثمان مرةً واحدة. كان يجلس القرفصاء في الظل، ويدخّن غليوناً صغيراً، ويبصق على الأرض، حيناً بعد حين، وينطق أحياناً بأصوات حلقية فيها لهجة آمرة، فكان صاحبه يصغي إلى كلامه باحترام. إن المرء ليدرك أنه دجيغيت سبق له أن لقيَ الروس مراراً كثيرة في ظروف غير هذه الظروف تماماً، وأنْ لا شيء فيهم يمكن أن يدهشه ولا حتى أن يثير اهتمامه. وقد اقترب أولنين من الجثمان وأخذ يتأمّله، فإذا بالآبريك يلقي عليه نظرةً باردة فيها ازدراء، ويقول للترجمان بضع كلمات، فيبادر الترجمان إلى تغطية وجه الميت بجلبابه. وقد أخذ أولنين بهذا الموقف القاسي الجليل المهيب الذي يقفه الدجيغيت، فحاول أن يحادثه، وسأله من أي قرية من قرى التشاشان هو. ولكن التشاشاني لم يكد يلتفت إليه، وبصق على الأرض باحتقار، وأشاح بوجهه عنه. فدهش أولنين من قلّة اهتمام الآبريك به، ولم يستطع أن يفسِّر ذلك لنفسه إلا بأن الرجل

أحمق أو بأنه يجهل اللغة الروسية. فاتجه بالكلام إلى رفيقه. كان رفيقه هذا شديد التحرّك والاضطراب، وكان يرتدي أسمالاً بالية كصاحبه، ولكن شعره أسود لا أحمر. وكانت أسنانه ناصعة البياض نصوعاً شديداً، وكانت عيناه سوداوين ناصعتين. وقد رضي الرجل أن يكلّم أولنين، وطلب منه سيجارة.

قال بلغةٍ روسية ركيكة جداً:

- كانوا خمسة أخوة. وهذا ثالث واحد منهم يقتله الروس، فلم يبق إلا اثنان.

وأضاف يقول وهو يشير إلى صاحبه:

- وهذا دجيغيت، دجيغيت حقاً. وحين قُتل حشمت خان (ذلك هو اسم القتيل) كان هو على الضفة الأخرى بين الأسل. فرأى كلّ شيء. رأى كيف رفع الجثمان إلى المراكب، وكيف وضع على حافة النهر. وبقي هنالك إلى الليل. وقد أراد أن يقتل الشيخ لكن الآخرين صدّوه عن ذلك.

اقترب لوكا وجلس بقرب الرجلين. وسأل:

- من أي قرية من قرى التشاشان؟

فأجابه الترجمان وهو يشير إلى فجّ وراء نهر التيريك يغشاه ضباب أزرق:

- من قرية هناك، في تلك الجبال. هل تعرف سؤق سو؟ قريتنا أبعد منها بعشرة فراسخ.

قال لوكا:

- هل تعرف قيراي خان في قرية سؤق سو؟ إنه صديق لي.

كان واضحاً أن لوكا فخور بهذه العلاقة. أجاب الجبلي:

- هو جاري.

وتابع لوكا الحديث مع الترجمان باللغة التترية مهتماً اهتماماً قوياً:

- رجل شهم!

وما هي إلا لحظات حتى وصل الكابتن ورئيس «الستانتسا» يخفرهما رجلان من القوزاق. فسلّم الكابتن على القوزاق (وهو قد رُفِّع إلى هذه الرتبة منذ مدّة قصيرة) ولكن أحداً لم يردَّ عليه السلام بما جرت به العادة في الجيش: «لك الصحّة يا صاحب النبالة!»، وإنما ردَّ على التحية بعضهم بهزّ الرأس، وهبَّ بعضهم الآخر يقف وقفة التهيؤ ومن هؤلاء لوكا. وانبرى ضابط الصف يذكر أن كلّ شيء في المخفر يجري على ما يُرام.

ذلك كلّه بدا لأولنين أمراً باعثاً على الضحك. لكأن القوزاق يمثّلون دور الجنود تمثيلاً. ولكن هذا الموقف الرسمي لم يلبث أن حلّت محله علاقات بسيطة جداً. واندفع الكابتن، وهو قوزاقي لا يقلّ حذقاً عن الآخرين، اندفع في حديث نشيط مع الترجمان باللغة التترية. ثم حُرِّرت ورقة، وسُلِّمت إلى الترجمان، فدفع مبلغاً من المال، وانهمك بعضهم بنقل الجثمان.

سأل الكابتن قائلاً:

- من منكم لوكا جافريلوف؟

فرفع لوكا طاقيته وتقدّم. فقال له الكابتن:

- أرسلت تقريراً عنك إلى الكولونيل. ولا أدري ما عسى يثمر هذا التقرير. لقد اقترحت منحك وسام الصليب، فأنت أصغر سناً من أن تصبح صف ضابط. هل تقرأ؟

- لا!

قال الكابتن وهو ما يزال يمثّل دور قائد:

- هذا لا ينفي أنك فتى شجاع. غطّ رأسك. ابن أيٍّ جافريلوف أنت؟ ابن جافريلوف «الطويل»؟

فأجاب العريف:

- بل هو ابن أخيه.

- أنا أعرفه.

ثم أضاف يقول ملتفتاً إلى القوزاق:

- هيّا! هلمّوا!

كان وجه لوكا يشرق فرحاً ويبدو أعظم جمالاً. وقد انصرف عن الكابتن، وغطّى رأسه بطاقيته، وعاد يجلس بقرب أولنين.

لما تمّ نقل الجثمان إلى القارب، نزل أخو القتيل إلى حافة النهر. فابتعد القوزاق من طريقه بدون إرادة منهم ليمرّ بينهم. حتى إذا وصل القارب ركله بقدميه ركلة قوية فانزلق القارب عن الشاطئ. وثب هو إليه فصار فيه، وعندئذ ألقى نظرة سريعة على جميع القوزاق لأول مرة، كما لاحظ ذلك أولنين، وسأل رفيقه سؤالاً مقتضباً، فأجابه رفيقه ببضع كلمات مشيراً إلى لوكا. فنظر التشاشاني إلى القوزاقي الشاب ثم أشاح وجهه عنه ببطء وأخذ يتأمّل الضفة الأخرى. لم تشتمل نظرته على أي كره، ولم يكن فيها إلا احتقار هادئ. ونطق ببضع كلمات.

قال أولنين يسأل الترجمان المتحرّك المضطرب:

- ماذا يقول؟

فأجابه الترجمان:

- يقول: اليوم أنتم وغداً نحن. يوم لك ويوم عليك.

كان واضحاً أن الترجمان يكذب. وقد أخذ يضحك كاشفاً عن أسنان ناصعة البياض، ثم وثب بدوره إلى المركب.

كان أخو القتيل جالساً في هدوء وسكون، ما يزال يتأمّل الضفة الأخرى. لقد بلغ من شدّة البغض والاحتقار أنه لم يشعر بأي رغبة في معرفة ما كان يجري هنا. وفي أثناء ذلك أخذ الترجمان يجذِّف تجذيفاً حاذقاً وهو واقف في مؤخرة القارب، ويوجِّه المركب من دون أن يتوقّف عن الكلام لحظة. فكان القارب يصعد التيار مواربا، ويصغر حجمه شيئاً بعد شيء، وضعفت الأصوات فلا تكاد تُسمع. وأخيراً شوهد رجلان يبلغان الضفة الأخرى حيث كان ينتظرهما حصاناهما، فوضعا الجثمان على سرج أحد الحصانين بالعرض رغم أن الحصان قد أشبّ، ثم ركبا وسارا عدواً، متَّبعين الطريق التي تحاذي القرية فكان سكّان القرية يخرجون من بيوتهم ليروا مرورهما.

أما القوزاق في الضفة الأولى من النهر فقد كانوا جميعاً سعداء مرحين فرحين، فلا يسمع المرء عندهم إلا ضحكات وأمازيح. وقد دخل الكابتن ورئيس «الستانتسا» إلى الكانتين ليصيبا شيئاً من طعام وشراب. وكان لوكا، المشرق الوجه، الذي يحاول أن يصطنع هيئة الرزانة فلا يفلح في ذلك، كان جالساً إلى جانب أولنين، جاعلاً كوعيه على ركبتيه، عاكفاً على تقليم قضيب.

قال يسأل أولنين كأن الأمر يهمّه حقاً:

- ما هذا الذي تدخّنه؟ أهو لذيذ فعلاً؟

كان واضحاً أنه لم يلقِ هذا السؤال إلا لأنه لاحظ أن أولنين يشعر بضيق وحرج من وجوده وحيداً بين هؤلاء القوزاق.

أجابه أولنين:

- هي عادة!

- هِمْ... لو أخذ واحد منا يدخِّن لكانت قصة!...

ثم أضاف قائلاً وهو يشير إلى الفجاج:

- انظر إلى هذه الجبال! إنها ليست بعيدة، ومع ذلك يستحيل الذهاب إليها! كيف يمكنك أن تعود إلى مسكنك وحيداً في هذا الظلام الحالك؟ سوف أقودك إذا شئت. استأذن لي المساعد في ذلك.

قال أولنين محدّثاً نفسه وهو ينظر إلى وجه لوكا: «فتى باسل حقاً!». وتذكّر ماريانا، وتذكّر القبلة وراء السياج، فشعر بشفقة على لوكا، ورثى لما هو عليه من جهل، وقال لنفسه: «إنسان يقتل إنساناً فيشعر من ذلك بسعادة، ويحسّ برضى وارتياح، كأنه قام بأجمل عمل!... هل يُعقل أن لا يوحي إليه شيء بأن ما صنعه ليس بالأمر الذي يوجب الاغتباط والابتهاج، وبأن سعادة الإنسان ليست في قتل الناس بل في التضحية بنفسه من أجلهم؟».

وقال أحد القوزاق الذين رافقوا القارب، مخاطباً لوكا:

- كن بعد الآن يقظاً يا بني، حذار أن تقع بين يديه. هل سمعته حين سأل عن اسمك واستعلم عنك؟

قال لوكا:

- من؟ الولد؟

كذلك سمّى القتيل باسم الولد تحقيراً، فأجابه القوزاقي:

- الولد لن يقوم، ولكن هناك أخوه، الأحمر!

فقال لوكا ضاحكاً:

- عليه أن يحمد الله على أنه خرج هو نفسه سالماً!

قال أولنين يسأل لوكا:

- ما الذي يبهجك هذه البهجة كلها؟ أكان يسرك أن يُقتل أخوك؟

كانت عينا القوزاقي تضحكان وهما تنظران إلى أولنين. كان يبدو على القوزاقي أنه أدرك حق الإدراك ما أراد أن يقوله له أولنين، ولكنه كان يحسّ أنه فوق هذه الاعتبارات كلها.

- ماذا تريد؟ هذه أمور تقع! أليسوا يقتلون ذوينا؟

22

كان الكابتن ورئيس «الستانتسا» قد انصرفا. ومن أجل أن يُرضي أولنين الفتى لوكا، وكي لا يجتاز الغابة المظلمة وحيداً، فقد طلب من المساعد أن يأذن للوكا بالذهاب إلى «الستانتسا» فأذن المساعد بذلك. وكان أولنين يقدِّر أن الفتى يرغب في لقاء ماريانا، وكان يسعده على كلّ حال أن يصحبه في عودته هذا الشاب الباشّ الودود الذي ينطلق على سجيّته ويفصح عمّا في نفسه. وكان يجمع في خياله، على غير شعور منه، بين ماريانا ولوكا، ويحلو له أن يفكّر فيهما. كان أولنين يقول لنفسه: «إنه يحبّ ماريانا. لو كنت مكانه لأمكن أن أحبّها أنا أيضاً» واجتاح نفسَه حنان رقيق بينما كانا يسيران معاً في الغابة المعتمة. وكان لوكا يشعر بفرحٍ أيضاً. إن شيئاً يشبه أن يكون محبّة قد نشأ بين هذين الشابين اللذين يختلف كلّ منهما عن الآخر اختلافاً كبيراً. فكان كلّ منهما إذا نظر إلى صاحبه يحب أن يضحك فرحاً.

- من أي باب تعود إلى «الستانتسا»؟

- من الباب الأوسط. سأوصلك إلى المستنقع. وهناك لا يبقى ما يستحق أن تخاف منه.

أخذ أولنين يضحك. وقال:

- أتظن أنني خائف؟ ارجع وحدك. شكراً. سأعود بنفسي!

- لا، لا، لست أتعجّل العودة. ثم كيف لا تخاف؟ نحن أيضاً نخاف.

بذلك أجاب لوكا وهو يضحك، مراعاةً لشعور أولنين، ومداراةً لكبريائه. فقال له أولنين:

- تعال عندي، فنتحدّث، ونشرب، وفي الصباح تنصرف.

- لا تعوزني أمكنة أقضي فيها الليلة!

وأغرق لوكا في الضحك مزيداً من الإغراق. وأردف:

- لكن المساعد طلب مني أن أرجع.

- سمعتك تغني في ذلك المساء، ثم... رأيتك...

- نحن جميعاً رجال...

وهزّ لوكا رأسه.

سأله أولنين:

- هل ستتزوّج؟ هل هذا صحيح؟

- أمي تريد أن تزوّجني، ولكنّني لم أملك حصاناً بعد.

- لم تصبح قوزاقياً نظامياً إذن؟

- لقد. جُنِّدت منذ مدّة وجيزة. ليس عندي حصان، ولا أدري من أين أحصل لنفسي على حصان. لذلك لم أتزوّج بعد.

- كم ثمن الحصان؟

- ساومت في الآونة الأخيرة على حصان في الضفة الأخرى من نهر تيريك. فلم يشاءوا أن يبيعوه بأقلّ من ستين روبلاً فضة، ولكنّه حصان نوجاي.

- هل تقبل أن تلتحق بي «دراباناً» (يسمى باسم «درابان» في الريف الجندي الذي يُلحق بضابط من الضباط ليخدمه)؟ يمكنني أن أحصل على إذنٍ لك بذلك، فأهدي إليك حصاناً.

كذلك اقترح أولنين على لوكا فجأة. وأضاف مؤكّداً:

- حقاً! عندي حصانان، وما بي إلى حصان حاجة!

قال لوكا ضاحكاً:

- ما بك إلى الحصان حاجة؟ كيف هذا؟ ولماذا تهدي إليّ حصاناً؟ سوف نملك مالاً بعون الله!

قال أولنين سعيداً بأن فكرة إعطاء لوكا حصانه قد خطرت بباله:

- لعلك لا تريد أن تكون «درابانا»؟

على أن شيئاً كان يُحرجه ويُخجله، فأصبح لا يعرف ماذا يقول.

وقطع لوكا الصمت إذ سأله:

- هل لك في روسيا منزل؟

فلم يستطع أولنين أن يمنع نفسه عن أن يروي له أنه لا يملك منزلاً واحداً بل منازل كثيرة. فسأله لوكا بسذاجة:

- منزل كبير؟ أكبر من منزلنا؟

- أكبر كثيراً! أكبر عشر مرات! ذي طابقين!

- وخيول؟ هل عندك خيول؟ هل هي كخيولنا؟

- خيول؟ عندي مائة فرس، ثمن كلّ منها ثلاثمائة أو أربعمائة روبل فضة. ولكنها ليست كخيولكم. هي خيول سباق... ومع ذلك أوثر عليها خيول هذه البلاد.

سأله لوكا بتلك اللهجة المرحة نفسها:

- أجئت إلى هنا بإرادتك أم أُجبرت على ذلك إجباراً؟

ثم أضاف يقول وهو يشير إلى ممرٍ تجاوزاه:

- هنا تهت، وكان ينبغي لك أن تدور شمالاً.

أجابه أولنين عن سؤاله قائلاً:

- جئت بإرادتي. أردت أن أعرف بلادكم، وأن أشارك في حملات.

قال لوكا متنهّداً:

- آه... لشدّ ما أحب أن أذهب في حملة!

ثم أضاف يسأل وهو يصيخ السّمع:

- هل تسمع عواء بنات آوى؟

سأله أولنين:

- أليس يخيفك أنك قتلت إنساناً؟

فأجاب لوكا:

- ممَّ عسى أخاف؟ آ... نعم، أتمنى لو أشارك في حملة، أتمنى، أتمنى!

- قد نمضي في حملة معاً. إن سريتنا ستمضي إلى حملة قبل الأعياد. وكذلك سريتكم.

- ما أغرب مجيئك إلى هنا! منزل، وخيل، وخدم! لو كنت أنا في مكانك لعرفت كيف أستمتع بوقتي! ما رتبتك؟

- أنا يونكر، وسوف أُرَفَّع قريباً.

- إذا صدق كلامك وكنت لا تتباهى تباهياً، إذا كانت الأمور في وطنك كما تصف، فإنني ما كنت لأغادر منزلي لو كنت في مكانك. وحتى في حالتي الراهنة، لا أتمنى أن أغادر هذه البلاد إلى أي مكان. الحياة حلوة عندنا، هه؟

قال أولنين:

- طبعاً، حلوة جداً.

كان الليل قد أطبق تماماً حين اقتربا من «الستانتسا» وهما

مسترسلان في هذا الحديث. إن ظلمات الغابة ما تزال تلفّهما، والريح ما تزال تهمهم في ذرى الأشجار. وبدا أن بنات آوى أخذت تعوي أو تئن أو تضحك فجأة على مقربة منهما. ولكنهما يسمعان منذ الآن أصوات نساء ونباح كلاب. أخذت المنازل تلوح أمامهما، وأخذت تتلألأ أضواء، وهذه رائحة تفوح من بعيد: إنها تلك الرائحة الخاصة جداً التي ينشرها دخان «الجلة». أحسَّ أولنين أن في هذا المكان، في هذه «الستانتسا»، إنما يوجد بيته فعلاً، وتوجد أسرته، وتوجد سعادته، وأنه لم يعش من قبل في أي مكان آخر سعيداً هذه السعادة كلها، ولن يعيش من بعد في أي مكان آخر سعيداً هذه السعادة كلها!

ما كان أشد دهشة لوكا حين وصلا إلى بيت أولنين، فإذا أولنين يُخرج بنفسه من الحظيرة، الحصانَ الذي اشتراه في جروزنوي، لا الحصان الذي يركبه عادةً، بل حصاناً آخر ليس صغير السن لكنه ما يزال حصاناً جواداً، ثم يقوده إلى لوكا، ويهديه إليه.

قال لوكا:

- لماذا تهديه إليّ؟ إنني لم أقدِّم لك أية خدمة حتى الآن.

فأجابه أولنين:

- حقاً، إنه لا يكلّفني شيئاً. خذه! سوف تعطيني شيئاً ما في مرّة أخرى. وقريباً سنمضي في حملة معاً.

اضطرب لوكا، وقال من دون أن ينظر إلى الحصان:

- ولكن لماذا؟ الحصان ثمنه باهظ!

- خذه! ان لم تأخذه أزعلتني. يا فانيا، اقتد الحصان الأشهب إلى بيته.

- حسناً... شكراً! حقاً ما كنت أتوقع هذا! يا لها من مفاجأة!

- اربطه هنا. هو حصان جواد اشتريته من جروزنوي. إنه يعدو عدواً سريعاً. يا فانيا، ائتنا بشيء من التشيخير. فلندخل!

وجيء بالخمرة. وجلس لوكا، وتناول طاسه. وقال وهو يشرب:

- بعون الله سأقدّم لك خدمة أنا أيضاً. ما اسمك؟

- ديمتري آندرتش.

- حفظك الله يا ديمتري آندرتش! لنكن صديقين! عليك بعد الآن أن تزورنا. لسنا أغنياء. ولكن عندنا ما نكرم به صديقاً. سأنبئ أمي إذا أنت احتجتَ إلى شيء من جبن أو عنب... وإذا أتيت إلى «الكوردون»، فسأكون في خدمتك للذهاب إلى الصيد أو لقطع النهر، كما تحبّ. ليتني عرفت في ذلك اليوم! ما كان أضخم الخنزير البري الذي قتلته! لقد وزّعته على القوزاق، فلو عرفت لجئتك بقطعة منه.

- شكراً. ولكن لا تقرن الحصان إلى عربة، فإنه لم يقرن إلى عربة في يومٍ من الأيّام قط.

قال لوكا:

- وهل يُقرن حصان؟

ثم أضاف يقول خافضاً صوته:

- سأقول لك شيئاً آخر. إن لي صديقاً هو قيراي خان، اقترح عليَّ أن أكمن في الطريق الذي يمر فيه رجال الجبل متربّصاً. فإذا شئت ذهبنا معاً. إنني لن أتركك. سأكون لك «مريداً»[1].

- سنذهب في يوم من الأيام.

وبدا على لوكا أنه هدأ هدوءاً تاماً. إنه يفهم الآن موقف أولنين

(1) «المريد» من الكلمات العربيّة التي دخلت اللّغة التريّة واستُعملت بمعنى مرافق.

منه. وقد دُهش أولنين من هدوئه وبساطته، حتى لقد ساءه ذلك. ظلّ الشابان يتحدّثان مدّة طويلة إلى ساعة متأخرة، وشرب لوكا كثيراً من دون أن يأخذ منه السكر أي مأخذ (إنه لم يسكر في يومٍ من الأيّام)، ثم قام فصافح أولنين وانصرف.

مال أولنين على النافذة ليرى ما سيفعله لوكا بعد أن تركه. فرأى لوكا يسير بخطى بطيئة خافض الرأس. حتى إذا أخرج الحصان من فناء الدار، هزَّ رأسه هزة قوية، ووثب إلى السرج وكأنها وثبة هر، وأرخى الزمام، وأطلق صرخةً حادة، ومضى يعدو بالحصان عدواً سريعاً.

لقد قدّر أولنين أن لوكا سيدخل على ماريانا ليشركها في فرحته، ولكنه - رغم أن لوكا لم يفعل- شعر بسعادة عظيمة لم يشعر بمثلها في يومٍ من الأيّام. كان مبتهجاً كصبي صغير، ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يروي لفانيا أنه أهدى إلى لوكا حصاناً، حتى أنه أخذ يشرح له السبب الذي دفعه إلى إهداء الحصان، وعرض عليه نظريته الجديدة في السعادة. فلم يؤيّد فانيا هذه النظرية، وقال بفرنسيّته الركيكة «ليس عندنا مال»، وأضاف أن ذلك كله هو إذن طيش وحماقة.

ذهب لوكا إلى بيته، ونزل عن الحصان، وعهد به إلى أمه، وأمرها أن تقود الحصان إلى قطيع أفراس القوزاق، لأنه عليه هو أن يذهب إلى«الكوردون».

تولّت الخرساء اقتياد الحصان، وعبَّرت بالإشارات أنها مستعدة أن تسجد للرجل الذي أهداه إلى أخيها. واكتفت الأم بأن هزَّت رأسها وهي تصغي إلى ابنها، وقالت لنفسها إن لوكا لا بدّ أن يكون قد سرق الحصان. لذلك أمرت الخرساء بأن تقود الحصان إلى قطيع القوزاق قبل أن يطلع النهار.

عاد لوكا وحيداً إلى «الكوردون». وكان لا ينفكّ يفكّر في تصرّف أولنين. إن الحصان، مع أنه ليس في رأيه بالحصان الجواد، يساوي ثمنه أربعين روبلاً في أقلّ تقدير. فلماذا أهداه إليه أولنين؟ ذلك أمر لم يستطع لوكا أن يفهمه. لهذا لم يشعر بأيّ عاطفة من عواطف الشكر والامتنان. حتماً أن شبهات غامضة أخذت تتموّج في رأسه، هل يضمر له اليونكر نيّات سيّئة؟ فما هي هذه النيّات؟ لم يتمكّن لوكا من إدراك شيء، ولكنه لم يستطع كذلك أن يسلّم بأن يهدي إليه رجل مجهول حصاناً ثمنه أربعون روبلاً، هكذا ببساطة، من دون أن يكون مدفوعاً إلى ذلك بغير طيبة النفس. ولو كان أولنين سكراناً، لأمكن أن يكون الأمر مفهوماً، إذ يكون أولنين قد اندفع إلى عمله من باب التبجّح. ولكن اليونكر لم يكن سكراناً، فلا بدّ أنه أراد إذن أن يرشوه لغرض في نفسه. فقال لوكا بينه وبين نفسه: «لا، إنك تخطئ الظن. المهم أن الحصان هو الآن لي، بعدها نرى ما سيكون. أنا أيضاً لست بالغبي. سوف نرى أيّنا المتورّط!». وطفق يستثير في نفسه مشاعر العداوة نحو أولنين، متخيّلاً أن عليه أن يبقى شديد اليقظة والحذر. ولم يقل لأحد من أين جاءه الحصان. زعم لبعضهم أنه اشتراه، وتملّص من بعضهم الآخر بجواب فيه تهرُّب. ولكن لم تلبث الحقيقة أن عُرفت في «الستانتسا» فلما بلغ نبأ هذا الكرم الغريب إلى علم أم لوكا وماريانا وإيليا فاسيلفتش والقوزاق الآخرين، دهشوا جميعاً أشدّ الدهشة وأخذوا يشكّون في أمر اليونكر. ولكنهم رغم ما ساورهم من مخاوفٍ، فقد أيقظت هذه اللفتة في نفوسهم احتراماً عظيماً لما يتّصف به الشاب من «بساطةٍ» وما يملكه من ثراء.

كان أحدهم يسأل آخر:

- هل سمعت النبأ؟ إن اليونكر الذي يسكن عند إيليا فاسيفلتش قد أعطى لوكا حصاناً ثمنه خمسون روبلاً! يا له من ثري!

فيجيبه الآخر مصطنعاً هيئة الفاهم:

- أعرف. لا بدّ أن لوكا خدمه خدمةً ما. سوف نعرف ما سينجم. ولكن ما أكبر حظّ هذا «المنتشل»!

ويقول الثالث:

- ما أشدّ الطيش والاندفاع في أمثال هذا اليونكر! شؤم! إنّ في وسعه أن يحرق الدار أيضاً!

23

كانت حياة أولنين تجري مطَّردة رتيبة. لم يكن لرؤسائه ولا لرفاقه به شأن. إن وضع اليونكر الغني هو من هذه الناحية وضع ممتع جداً في القوقاز. فهو لا يرسل إلى عمل ولا إلى تدريب. وقد رُشِّح بعد الحملة لرتبة ضابط، وبإنتظار حصوله على هذه الرتبة تُرك وشأنه. وكان الضباط يعدّونه ارستقراطياً ويلتزمون في علاقتهم به نوعاً من الرصانة. وقد أصبحت مجالس القمار والسكر والغناء لا تستهويه كما كانت تستهويه قبل نزول الفوج في «الستانتسا»، وأصبح من جهته يبتعد عن الضباط ولا يشاركهم حياتهم.

إنّ حياة الضباط في قرى القوزاق تجري على نسقٍ ترسَّخ منذ مدّة طويلة. فكما أن كلّ ضابط أو يونكر في القلعة يشرب البورتر بانتظام ويلعب لعبة «الستوس» ويتكلّم عن الترقيات والأوسمة، فإنه في «الستانتسا» يشرب التشيخير مع مؤجِّريه، ويولم للبنات حلوى وعسلاً، ويجري وراء النساء القوزاقيات اللواتي يتدلَّه بهنّ، وقد يتزوّج.

إن أولنين قد عاش دائماً كما شاء له هواه أن يعيش، وكانت

الطرق الممهّدة توقظ في نفسه نفوراً منها وعزوفاً عنها على غير شعورٍ منه. وهنا أيضاً لم ينخرط في الطريق المحدودة المرسومة التي تجري فيها حياة الضباط في القوقاز. كان يستيقظ من تلقاء نفسه في الصباح، فيشرب الشاي وقد سرَّح بصره من على درج الباب معجباً مفتوناً، يتأمّل الجبال والفجر وماريانا. ثم يرتدي جلباباً ممزّقاً مصنوعاً من جلد البقر يسمونه «بورشني»، ويتقلّد خنجره، ويأخذ بندقيته وكيساً صغيراً فيه بعض الطعام وشيء من التبغ، وينادي كلبه، ويغادر «الستانتسا» بين الساعة الخامسة والساعة السادسة، ويلج الغابة. حتى إذا كانت الساعة السابعة من المساء رجع إلى البيت متعباً جائعاً، معلّقاً بحزامه خمسة تدارج أو ستة، وربما علق بها كذلك طريدة ضخمة من الطرائد مع الكيس الصغير المحتوى على الطعام والتبغ من دون أن يكون قد مسَّهما. فلو كانت أفكاره مرتبةً في رأسه كما كانت سجائره مرتبةً في كيسه، لاستطاع المرء أن يرى أنه ما من فكرة من تلك الأفكار قد تزحزحت من مكانها. كان يعود إلى بيته نضر النفس قوياً يفيض سعادة، ولو سألته في أي شيء كان يفكّر طوال ذلك الوقت وبأي شيء كان يحلم لما استطاع أن يجيبك. إن شيئاً يشبه أن يكون نثارات أفكار وذكريات وأحلام قد طوَّفت في رأسه. وكان في بعض الأحيان يثوب إلى نفسه ويتساءل عما يفكّر فيه ويحلم به. فإذا هو يتخيّل نفسه قوزاقياً يعمل في بستان مع زوجته التي هي قوزاقية أيضاً، أو يتخيّل نفسه أبريكياً في الجبال، أو يتخيّل نفسه خنزيراً برياً يهرب أمامه هو أولنين... وكان لا ينفكّ يصيخ بسمعه، ويتفحّص الحرجات الشائكة، ويتربّص بالتدرج أو الخنزير أو الأيّل.

ويجيء العمّ ياروشكا في كلّ مساء حتماً. ويأتيهما فانيا

بتشيخير، ويتحدّثان حديثاً هادئاً. حتى إذا فرغا من الشراب افترقا راضين أشدّ الرضى وأوى كلّ منهما إلى فراشه لينام. ويطلع الصباح فيتجدّد الصيد، ويتكرّر تعب الصحّة والعافية، وأحاديث المساء، وخمر التشيخير، وذلك الشعور بالسعادة.

من حينٍ إلى حين، في أيّام الأعياد أو الراحة، يبقى أولنين في المنزل. فكان في تلك الأيّام يهتم بماريانا خاصة. إنه، على غير شعورٍ منه، يتابع كلّ حركة من حركاتهما نهماً، سواء من خلال نافذته أو من على درج الباب. كان ينظر إلى ماريانا ويحبّها - في ما يعتقد - كما يحبّ جمال السماء والجبال من دون أن يخطر بباله قيام علاقات من نوع آخر. كان يبدو له أن لا يمكن أن تقوم بينه وبينها تلك العلاقة نفسها التي تقوم بينها وبين القوزاقي لوكا، ولا يمكن - من باب أولى - أن تقوم بينه وبينها تلك العلاقات التي قد تقوم بين ضابط غنيّ وفتاة قوزاقية بسيطة. وكان يبدو له أنه لو حاول معها ما يحاوله رفاقه مع نساء أخريات لاستبدل بسعادته الواسعة الكاملة هوةً من الآلام وخيبات الأمل وعذاب الضمير. ثم إنه بإزاء هذه المرأة قد سبق أن قدّم تضحيةٍ جنى منها فرحاً عظيماً. ذلك عدا أن ماريانا كانت تخيفه قليلاً - لا يدري لماذا - فما كان له أن يجرؤ بحالٍ من الأحوال على أن يخاطبها بكلمة مغازلة.

وفي ذات يومٍ من أيّام الصيف، كان أولنين في بيته فإذا بشاب كان قد عرفه في موسكو والتقى به في المجتمع، يدخل عليه فجأة، ويخاطبه قائلاً بلغته الفرنسية الموسكوبية:

- آ... عزيزي... ما أعظم سعادتي حين علمت أنك هنا! وتابع كلامه بالروسية تزخرفها كلمات فرنسية:

- قالوا لي: أولنين! أي أولنين؟ فما كان أعظم سعادتي!...

لقاء هيأته العناية الإلهية!... هيه... كيف صحّتك؟ ماذا تعمل؟ ما أخبارك؟

وروى الأمير بلتسكي قصته: كيف انخرط في هذا الفوج، وكيف أن القائد يحرص على اتخاذه مرافقاً له ثم سيبقى معه بعد انتهاء الحملة رغم أن ذلك لا يشوّقه البتة.

واستمر الأمير بلتسكي يتدفّق في الكلام بغير توقّفٍ:

– إذا كان لا بدّ من الخدمة هنا، في هذا الحجر... فلا أقلّ من تحقيق النجاح!.. والأوسمة... والرتب... ذلك لا غنى عنه، لا لي أنا، بل لأهلي، ولأصحابي. لقد أحسن الأمير استقبالي. سأنال وسام صليب سانت آنا على الحملة الأخيرة. والآن أبقى هنا بإنتظار الحملة القادمة. الحياة هنا حلوة جداً! النساء خاصة! وأنت، كيف تعيش؟ إن صاحبنا الكابتن ستارتسيف، الذي تعرف، رجل طيّب لكنه غبيّ. ذكر لي أنك تعيش حياة منعزلة، وأنك لا تريد أن ترى أحداً. على أنني أفهم أن لا ترغب في مصادقة الضباط هنا. ما أسعدني بلقائك! سنلتقي كثيراً بعد الآن! لقد أنزلوني عند المساعد. يا لها من بنيّة! أوستينكا! لذيذة... لذيذة!...

كانت الكلمات الروسية والفرنسية تنهمر انهمار المطر من ذلك العالم الذي كان يظن أولنين أنه تركه إلى الأبد. والناس مجمعون على أن بلتسكي فتى لطيف حلو المعشر. ولعلّه كان كذلك حقاً. ولكنه رغم ظرفه ووسامة وجهه، بدا لأولنين كريهاً، فهو مشبع بذلك الدنس الذي أنكره أولنين وهجره. غير أن الشيء الذي أحنق أولنين أكثر من كلّ ما عداه هو أنه لا يملك القوّة التي تمكنه من صدّ هذا الرجل الآتي من المجتمع القديم صدًّا شَرِساً، فكأن ذلك المجتمع القديم، الذي كان مجتمعه هو، ما يزال له عليه حقوق لا يبليها

الزمن. كان أولنين مغتاظاً من بلتسكي، ومغتاظاً من نفسه، ومع ذلك كان يدسّ في كلامه، على غير إرادة منه، جملاً فرنسية، ويهتم بأمر القائد وأصدقاء موسكو. ولأنهما الوحيدان اللذان يتحدثان بالفرنسية في «الستانتسا»، فقد تكلّم أولنين باحتقار عن الضباط - رفاقه - والقوزاق، وعامل بلتسكي معاملة صديق. ومع ذلك لم يذهب أولنين إلى بيت بلتسكي. أما فانيا فقد استلطف الزائر كثيراً، وقال عنه: «إنّه سيّد حقاً».

إن بلتسكي قد ولج على الفور في الحياة المألوفة التي يحياها الضبّاط الأغنياء في «الستانتسا». فما انقضى شهر حتى أصبح، على مرأى من أولنين، شبيهاً كلّ الشبه بأولئك الذين يقيمون في «الستانتسا» منذ عهدٍ بعيد. أصبح يسقي الشيوخ، ويقيم سهرات صغيرة، ويذهب راضياً مسروراً إلى سهرات عند بنات، ويتباهى ويفاخر بما يصيب من نجاح. ولا تدري لماذا لقّبته نساء القرية وبناتها بلقب «الجدّ». أما القوزاق فقد ألفوا هذا الرجل الذي يحبّ الخمرة والنساء، وأصبحوا في آخر الأمر يؤثرونه على أولنين الذي بقي في نظرهم لغزاً لا يُفهم.

24

الساعة هي الخامسة صباحاً. إن فانيا يؤجج السماور على درج الباب. وقد ذهب أولنين على صهوة حصانه للاستحمام في مياه نهر تيريك (كان أولنين قد وجد تسليةً جديدة هي أن يستحمَّ حصانه في النهر). ربّة الدار تشعل نار الفرن في الكوخ، فيخرج من مدخنته دخان. والبنت تحلب الجاموسة في الحظيرة، إنها تهتف قائلة بصوتها المتململ: «هذه البهيمة الملعونة لن تقف هادئة أبداً!». ثم يعود صوت الحليب يسقط في الإناء مطّرداً.

تدوّي في الشارع خطى حصان رشيقة، ويقف أولنين أمام باب الفناء ممتطياً ظهرَ حصانه الأشهب الداكن بغير سرج، والحصان لمّا يجف جسمه بعد فهو يلتمع. ويظهر من الحظيرة رأس ماريانا الجميل الذي يغطّيه خمار أحمر ثم سرعان ما يغيب. إن أولنين يلبس قميصاً من حرير أحمر، وجلباباً أبيض يشده على خصره زنّار من جلد قد عُلّق به خنجر، ويضع على رأسه طاقية عالية. وإن في انتصابه على ظهر جواده الشبعان لشيئاً من تصنّع. ها هو يميل ليفتح باب الفناء بإحدى يديه، بينا هو يحمل بيده الأخرى بندقية. كانت عيناه مبتلّتين، وكان وجهه يشعّ شباباً وعافية. وهو يعتقد أنه جميل الوجه خفيف الحركة شبيه بديجيغيت. ولكن اعتقاده هذا ليس صحيحاً. فهو في نظر أي قوزاقي ذي خبرة، يظلّ جندياً رغم كلّ شيء. ما إن لمح أولنين رأس ماريانا حتى انحنى بحركة فيها جسارة خاصة، وفتح الباب، وشدَّ اللجام بيد، وهزَّ سوطه بيدٍ أخرى، ودخل الفناء.

صاح يسأل خادمه مرحاً من دون أن يلتفت إلى الحظيرة:

- هل هيّأت الشاي يا فانيا؟

كان يشعر بلذّة كبيرة حين يحس بحصانه الجميل تحته مرتجفاً متوتّر العضلات، يشدّ اللجام ويهم أن يجتاز السياج بوثبة ويقرع الأرض الغضارية بحافريه.

أجابه فانيا بالفرنسية:

- الشاي مهيّأ!

كان أولنين يظن أن ماريانا ما زالت تنظر إليه من وراء باب الحظيرة، ولكنه لم يلتفت. ووثب إلى الأرض، فاشتبكت بندقيته بدرابزين الدرج، فأجرى حركة خرقاء، وأسرع يلقي نظرة قلقة إلى جهة الحظيرة، فلم يرَ أحداً. كان صوت حلب الجاموسة ما يزال يُسمع وحده رتيباً مطرداً.

دخل إلى بيته، ثم خرج بعد قليل حاملاً كأساً من الشاي وكتاباً وغليوناً، على درج الباب في مكان محميٍّ من أشعّة شمس الصباح المائلة. كان ينوي أن يبقى في البيت إلى موعد الغداء، وأن يكتب عدداً من الرسائل ما يزال يؤجّل كتابتها من يومٍ إلى يومٍ منذ مدّة طويلة. ولكنه لا يدري لماذا لم يحبَّ الآن أن يتركَ ركنه الصغير على الدرج، فأحجم عن دخول بيته الذي يبدو له أشبه بسجن. كانت الأم قد أوقدت الفرن. وأخرجت البنت المواشي من الحظيرة، وأخذت تجمع الجلة وتصفّها على طول السياج. وأخذ أولنين يقرأ. ولكنه لم يفهم شيئاً مما كان مطبوعاً في كتابه المفتوح. فكان لا ينفكّ يحول بصره عن الكتاب، وينظر إلى الفتاة القوية التي تخطر أمامه ذاهبة آيبة. فسواء دخلت الظل المندّى من البيت أم تقدمت إلى وسط الفناء الذي يغمره نور فرح، كانت الشمس تضيء تضاريس جسمها الممشوق تحت ثيابها ذات الألوان الزاهية، وتُسقط تحت قدميها ظلاً طويلاً أسود. كان أولنين يخشى أن تفوته أيسر حركة من حركاتها. كان يبهجه أعظم البهجة أن يرى رشاقتها الحلوة ومرونتها الجميلة حين تثني جسمها، وأن يرى كيف كان يلتف قميصها الوردي - لباسُها الوحيد - على صدرها وعلى جسدها، وأن يرى كيف كان القميص ينشدُّ على جيدها الذي يحرّكه تنفسّها فيبرز حواشيه إبرازاً واضحاً، وكيف كانت قدماها الصغيرتان اللتان تنتعلان جزمتين حمراوين عتيقين تحطّان على الأرض من دون أن يتشوّه شكلهما، وكيف كانت ذراعاها القويتان اللتين شمرّت كمّاهما وتوتّرت عضلاتهما تحرّكان المجرفة بما يشبه الغضب. وكانت عيناها العميقتان السوداوان ترميانه أحياناً بنظرة سريعة، فيتقطّب عندئذ حاجباها، ولكن المرء يستطيع أن يقرأ في هاتين العينين ما كانت

تشعر به الفتاة من لذّة الإعجاب بها، وما كانت تحسّه من أنها جميلة.

- هيه! أولنين! هل استيقظت منذ مدّة طويلة؟

كذلك سأله بلتسكي الذي دخل فناء الدار مرتدياً بزة الضبّاط القوزاق. فأجابه أولنين وهو يمدّ إليه يده:

- آ... بلتسكي! كيف حدث أن صحوتَ من نومك مبكّراً هذا التبكير كلّه؟

- ما حيلتي؟ لقد طُردت طرداً. عندي اليوم حفلة رقص.

وأضاف يسأل الفتاة:

- ماريانا، ستجيئين إلى أوستينكا، أليس كذلك؟

فأدهش أولنين أن يخاطب بلتسكي هذه المرأة بهذه البساطة كلّها. ولكن ماريانا تظاهرت بأنها لم تسمع السؤال، وخفضت رأسها، وحملت مجرفتها على كتفها، ودخلت إلى الكوخ بخطاها الخفيفة السريعة كأنها خطى الرجال.

قال بلتسكي وهو يتابعها ببصره:

- إنها محرَجة. أنت الذي تجعلها تضطرب!

وابتسم في مرحٍ، وصعد الدرجات مسرعاً.

قال أولنين يسأله:

- حفلة رقص عندك؟ منْ طردك؟

- نعم، عند أوستينكا، بنت مؤجرتي. وأنت مدعوّ إلى الحفلة. حفلة الرقص تعني اجتماع بناتٍ وفطيرةً محشوة.

- وما ذهابنا نحن إلى الحفلة؟

ابتسم بلتسكي ابتسامة ماكرة، وغمز بعينه، وأشار بحركة من رأسه إلى الكوخ الذي غابت فيه ماريانا. فهزّ أولنين كتفيه واحمرّ وجهه، وقال:

- يميناً إنّك لإنسان غريب!

- دعك من هذا الكلام!

اربدَّ وجه أولنين، فلاحظ بلتسكي ذلك، فقال وقد صارت ابتسامته ابتسامة ملاطفة:

- لا ... اسمح لي... إنكما تسكنان في بيت واحد... وهي فتاة فاتنة، رائعة، آية من آيات الجمال!

فقال أولنين مؤيّداً:

- جمال مذهل! ما رأيت في حياتي امرأة تضارعها جمالاً.

- فماذا إذن؟

كذلك سأله بلتسكي مدهوشاً دهشة منْ لا يفهم من الأمر شيئاً. فأجابه أولنين قائلاً:

- قد يدعو هذا إلى الدهشة فعلاً. ولكن لماذا يجب أن لا أقول الحقيقة؟ إنني منذ أقمت هنا أصبحت كمن لا وجود للنساء في نظري. وهذا حسن جداً، حسن حقاً. فما يجمعنا بهؤلاء النساء؟ أما ياروشكا، فإن حبّ الصيد والشغف به يجمع بيني وبينه.

- غريب! ما يجمعنا بهنّ؟ وما يجمع بيني وبين امرأة اسمها آماليا إيفانوفا؟ الأمران واحد. قد تقول لي إنهنّ لسن نظيفات. ذلك شيء آخر. «ولكن للحرب أحكامها»!...

- ولكنني، أنا، لم أعرف في حياتي نساءً أسماؤهن آماليا إيفانوفا، ولست أحسن التصرّف معهنّ، ولا أحترمهن أي احترام. أما هؤلاء فأحترمهنّ.

- احترمهنّ ما شئت أن تحترمهنّ، لا شيء يمنعك من ذلك.

لم يجب أولنين. وكان واضحاً أنه يحبّ أن يفصح عن فكرته إلى نهايتها، فهو حريص عليها أشدّ الحرص، وهي غالية على نفسه كثيراً. قال:

- أعرف أنني استثناء (كان يشعر بحرج واضح وضيق بيّن)، ولكن حياتي تجري مجرى معيناً يجعلني لا أشعر بأي ضرورة إلى تغيير مبادئي، بل إنني لا أستطيع أن أحيا هنا، ناهيك عن أن أحيا سعيداً كما أنا سعيد الآن، إذا أنا عشت كما تعيش أنت.

رفع بلتسكي حاجبيه كأنه لا يصدق ما تسمعه أذناه، وقال:

- تعال إليَّ في هذا المساء رغم ذلك، وستأتي ماريانا وسأتولّى تعريف أحدكما بالآخر. تعال، أرجوك. فإذا شعرت بضجر فلن يكون عليك إلا أن تنصرف. هل تجيء؟

- يسرّني أن أجيء، ولكن... لا أكتمك أنني أخشى أن أنجرف فعلاً...

هتف بلتسكي يقول:

- أوه! أوه! تعال فقط، وسأراقبك. هل تجيء؟ هل تعاهدني على أن تجيء؟

- سأجيء، ولكن... حقاً إنني لا أفهم... ما عسانا نفعل؟ ما دورنا نحن؟

- أرجوك!... تعال!... هل تجيء؟...

أجابه أولنين:

- نعم، قد أجيء.

- عجيب أمرك! نساء جميلات لا يرى المرء مثلهنّ في أي مكان آخر، ثم تعيش كما يعيش راهب! ما أغربه من تفكير! علامَ يفسد المرء حياته ولا ينتهز الفرصة التي تُعرض له؟ هل سمعت أن سريتنا قد تُرسَل إلى فوزدفيجنسك؟

- احتمال ضعيف. قيل لي إنّ السرية الثامنة هي التي سوف تُرسل.

- لا، لا. لقد تلقّيت رسالةً من مرافق القائد، وفيها يقول إن

الأمير سيشارك بنفسه في هذه الحملة. وأنا سعيد بهذا، لأنّني سوف أراه. لقد بدأت أسأم الحياة هنا.

- يظهر أننا سنقوم بحملةٍ بعد مدّة قصيرة.

- لا أدري. لكنني سمعت أن كرينوفستين نال صليب سانت آنا على الحملة الأخيرة. لقد كان يتوقّع أن يحصل على رتبة ليوتنان، فخاب أمله. وقد ذهب إلى الأركان...

حلَّ المساء، وأخذ أولنين يفكّر في الاجتماع الذي سيتمُّ في بيت أوستينكا. إن دعوة بلتسكي تُقلقه وتُعذّبه. إنّه يحبُّ أن يحضر هذا الاجتماع، ولكنه مضطرب مرتبك، وهو خائف مما قد يحدث هناك. هو يعلم أنّه لن يكون ثمّة قوزاق ولا نساء مسنّات، بل فتيات فحسب. فما عسى يحدث؟ كيف سيكون سلوكه؟ ماذا يجب عليه أن يقول؟ وهنَّ، ما عسى يَقُلْنَ؟ وما عسى يقوم من علاقات بينه وبين بنات القوزاق هؤلاء اللواتي يشبهن أن يكنَّ متوحّشات؟ لقد حدَّثه بلتسكي عن علاقات عجيبة جداً، فيها استهتار وفيها تحفُّظ معاً... لسوف يكون أمراً غريباً كلّ الغرابة أن يجد نفسه هناك في غرفة واحدة مع ماريانا، حتى لقد يضطر إلى مخاطبتها! كان هذا يبدو له مستحيلاً حين يتذكّر موقفها المتكبّر. ولكن بلتسكي قال له مع ذلك إنَّ الأمر بسيط كلّ البساطة. حدّث أولنين نفسه قائلاً: «هل يُعقل أن يكون سلوكه مع ماريانا أيضاً هو ذلك السلوك نفسه؟ لا، لا، الأفضل أن لا يذهب إلى الحفلة. ذلك كلّه بشع، ذلك كلّه قذر، وهو خاصةً لا داعي إليه». غير أنّ السؤال عاد يعذّبه: «ما عسى يحدث؟» ثم إنّه قد قطع على نفسه عهداً.

خرج أولنين وهو ما يزال متردّداً لم يعزم أمره. ولكنه ما أن وصل إلى بيت بلتسكي حتى دخل.

إنّ المنزل الذي يسكنه بلتسكي شبيه بالمنزل الذي يسكنه أولنين. هو منزل مبني على مجموعة أوتاد تعلو عن سطح الأرض مسافة أرشينين، ويتألف من غرفتين. فالغرفة الأولى، وهي التي دخلها أولنين صاعداً درجات عالية، تزدان على الأسلوب القوزاقي بوسائد من ريش وسجاد وأغطية مصفوفة صفاً منسّقاً جميلاً على طول الحائط المقابل، كما تزدان جدرانها الأخرى بدسوت من نحاس وأسلحة. وقد صُفَّت تحت الدكة يقطينات وبطيخات. أما الغرفة الأخرى ففيها مدفأة ومائدة ودكة وأيقونات قديمة. هذه الغرفة الثانية هي التي يشغلها بلتسكي مع سرير الميدان وحقائبه، وقد علَّق على الجدار سجادة صغيرة تصطف عليها أسلحته، ورتّب على المائدة أدوات زينته وصوراً ذات براويز. وعلى الدكة كان ثوب للمنزل من الحرير قد أُلقي مهملاً بغير عناية. وكان بلتسكي نفسه، وهو شاب وسيم جميل، يرقد على السرير بقميص وسروال مستغرقاً في قراءة رواية «الفرسان الثلاثة».

فما إن رأى أولنين داخلاً عليه حتى وثب من السرير، وبادره قائلاً:

- أرأيت كيف أسكن؟ مسكن حسن، هه؟ خيراً فعلت إذ جئت. إنهنّ منهمكات في العمل. هل تعرف بماذا ستُحشى الفطائر؟ بلحم خنزير، وزبيب. ولكن ليس هذا هو الأمر المهم. انظر ما يُهيَّأ هناك!

ونظر الشابان من النافذة فرأيا في مسكن المؤجر حركة شديدة، ورأيا البنات يدخلن ويخرجن حاملاتٍ أشياء شتى.

وصاح بلتسكي سائلاً:

- هل اقترب الموعد؟

- حالاً. هل «الجدّ» جائع؟

ودوَّت ضحكات رنَّانة.

هذه أوستينكا، المتورِّدة اللون، الممتلئة الجسم، الجميلة، تدخل الغرفة راكضة لتأخذ منها أطباقاً. وصرخت تقول لبلتسكي بصوتٍ حادّ:

- انتبه أنت! كدت أكسر الصحون!

ثم أضافت مخاطبةً أولنين وهي تضحك في مرح:

- عليك أن تأتي تساعدنا. لا تنسَ الحلويات لنا نحن البنات.

- هل ماريانا معكن؟

- كيف لا؟ لقد جاءت بالعجين!

قال بلتسكي:

- هل تعلم أن أوستينكا هذه، إذا هي أُحسن إلباسها وتنظيفها واعتُنِيَ بها قليلاً، يمكن أن تبزَّ جميع حسناواتنا؟ هل رأيت بورتشيفا، القوزاقية؟ لقد تزوجت كولونيلاً. فتّانة!«ما أعظم أبّهتها»! إن المرء ليتساءل من أين جاءها هذا!

- لم أرَ بورتشيفا، ولكن يخيَّل إليَّ أنَّ الثياب التي يرتدينها لا تضارعها في جمالها ثياب.

قال بلتسكي وهو يزفر مرحاً:

- أنا من جهتي أتلاءم مع أي طراز من طرز المعيشة.

وأضاف يقول:

- سأذهب إليهنَّ فأرى ماذا يطبخن فيبطئن هذا الإبطاء كله.

وألقى ثوب المنزل على كتفيه. وصاح يقول لأولنين وهو يخرج:

- اهتم أنت بأمر الحلويات.

عهد أولنين إلى الجندي الخادم بأن يشتري عصائد وعسلاً. ولكنه سرعان ما أحسّ باشمئزازٍ لأنه أعطى الخادم مالاً، فكأنه يرشو أحداً ويفسد أخلاقه. لذلك فإنّه حين سأله الخادم: كم عصيدة بالعسل وكم عصيدة بالنعناع؟»، أجابه بقوله:

- اشترِ ما تشاء.

فقال له الجندي العجوز يسأله:

- بالمبلغ كلّه؟ إن عصائد النعناع أغلى ثمناً، ستة عشر كوبكاً.

فأجابه أولنين:

- نعم نعم، بالمبلغ كلّه.

ثم جلس إلى النافذة وتساءل لماذا يخفق قلبه هذا الخفقان الشديد، كأنما هو على وشك اقتراف فعل خطير سيِّيء.

وسمع صرخات حادة وزقزقات استقبلت بلتسكي حين دخل على البنات، ثم رآه بعد بضع دقائق يخرج متدحرجاً على الدرجات وقد أخذت تنهمر عليه الصيحات والضحكات.

قال:

- طردْنني!

وما هي إلا لحظات حتى جاءت أوستينكا تعلن لهما أن كلّ شيء قد أعدّ، ودعتهما برصانةٍ وأبّهةٍ.

فلما دخلا غرفة مضيفاتهما كان كلّ شيء معدّاً بالفعل، وكانت أوستينكا تصفّ الوسائد على طول الجدار. وقد فُرِش على المائدة غطاء صغير جداً، وصُفَّ عليها إبريق تشيخير وطبق سمك جاف. كانت رائحة الفطير والعنب تملأ جوَّ الغرفة. وكانت ست بنات تتزاحم وراء المدفأة متهامسةً ضاحكةً وهي ترتدي سترات مطرّزة وقد نضت عن رؤوسها المنديل الأبدي الذي يغطي رؤوسها في العادة.

قالت أوستينكا وهي تدعو ضيفيها إلى المائدة:

- نرجوكما أن تشرفا بحضوركما احتفالي بيوم قديستي.

سرعان ما رأى أولنين بين هذا الجمع من البنات اللواتي كنَّ جميعاً جميلات، سرعان ما رأى ماريانا، فشقَّ عليه وآلمه أن يجد نفسه معها لأوَّل مرة في ظروفٍ محرجة مبتذلة كهذه الظروف. وشعر بضيق وحرج، فقرر أن يقلِّد بلتسكي في كلِّ ما سيفعله. وهذا بلتسكي يتقدّم من المائدة بهيئة فيها أبهة وجلال، ولكن فيها كذلك ثقة وطلاقة، فيشرب كأساً من الخمرة نخبَ أوستينكا، ويدعو الجميع إلى أن يفعلوا مثلما فعل. فتجيبه أوستينكا قائلة إنَّ البنات لا يشربن خمرة. فإذا بصوت من بين البنات يقول:

- ربما مع العسل!

ونودي على الجندي الخادم الذي كان قد عاد من الدكّان محمَّلاً بالعسل والحلويات. فألقى على السيدين نظرةً من تحت، نصفُها احتقار ونصفُها حسد، لأنهما في رأيه إنما يلهوان ويقصفان، وسلَّم بكثير من العناية كتلة العسل والعصائد ملفوفةً بورق أشهب. وقد أراد أن يفيض في الكلام عن ثمن الحلويات وأن يردَّ باقي النقود، ولكن بلتسكي أسرع يطرده.

قام بلتسكي بمزح العسل والتشيخير في الأقداح. وبحركة عريضة بسط على المائدة ثلاثة أرطال من العصائد: ثم أخرج البنات من ركنهن وراء المدفأة بالقوة، وأجلسهن حول المائدة، وأخذ يوزع عليهن العصائد. فأتيح لأولنين أن يرى ماريانا تمدّ يدها الصغيرة الملوحة فتتناول عصيدين بالنعناع مكوّرتين، وعصيدة ثالثة سمراء، ثم لا تعرف ماذا تصنع بما أخذت. ورغم الجهود التي بذلها بلتسكي وبذلتها أوستينكا لتسلية الصحب، ورغم لهجتهما المرحة الطلقة، فإن

الحديث ظلّ يجري بطيئاً مرتبكاً شاقاً. وكان أولنين يشعر بضيق وحرج، ويحاول أن يقول شيئاً، ويحسّ أنه يثير الفضول وربما السخرية أيضاً وأنه ينقل خجله بالعدوى إلى الآخرين. كان يحمر، ويتصوّر أنّ ماريانا تشعر بحرج شديد. وقال يحدّث نفسه: «لعلهنّ ينتظرن أن نعطيهن مالاً. ولكن كيف نفعل؟ آه... فلنعطهن المال بأقصى سرعة وننصرف».

25

قال بلتسكي مخاطباً ماريانا:

- كيف لا تعرفين نزيلَ داركم؟

فأجابته ماريانا وهي تنظر إلى أولنين:

- كيف لي أن أعرفه وهو لا يزورنا أبداً؟

فاعترتْ أولنين خشية غريبة، واحمرَّ وجهه، وقال من دون أن يعرف جيداً ماذا يقول:

- أمها هي التي أخافتني. فحين جئتها أول مرة أمطرتني بوابل من الشتائم، فأصبحت لا أجرؤ على العودة.

فانفجرت ماريانا ضاحكةً. وقالت وهي ترمقه بنظرة أخرى:

- أهذا ما روَّعك؟

ثم أشاحت عنه.

حينذاك استطاع أولنين أن يرى كلّ وجه الفتاة لأول مرة وكان قبل ذلك، لا يلمحها إلا مغطّاة الرأس بمنديلها. ليس عبثاً أنها كانت تُعدُّ أجمل فتاة في «الستانتسا». إن أوستينكا فتاة حلوة، لطيفة، وردية اللون، ممتلئة القد، لها عينان سمراوان تشعّان مرحاً، وشفتان حمراوان تبتسمان دائماً، وهي ضاحكة المحيَّا كثيرة الكلام. أما ماريانا فهي ليست فتاة حلوة، بل هي فتاة «جميلة» حقاً. إنها آية من

آيات الجمال. وكان يمكن أن يبدو في قسمات وجهها كثير من ذكورة، بل وشيء من غلظة، لولا قامتها الفارعة، ونسبها المنسجمة المتسقة، وصدرها الناهد وكتفاها القويتان، ولا سيما عيناها السوداوان الواسعتان اللتان تظللهما أهداب يضرب لونها إلى زرقة تحت حاجبين دقيقين، وتعبّران عن كثيرٍ من الجدّ ورقّة العاطفة في آنٍ واحد، وكذلك شفتاها اللتان تنفرجان عن ابتسامة لطيفة محبّبة إذا هي ابتسمت. صحيح أنها لا تبتسم إلا نادراً، ولكن ابتسامتها تخطف البصر دائماً. وإن شخصها كلّه يفيض عافية وقوّة بكراً. لقد كانت الفتيات جميعاً جميلات، ولكنهن جميعاً ينظرن إلى ماريانا على غير إرادة منهن، مثلما ينظر إليها بلتسكي والجندي الخادم الذي جاء بالعصائد. وإليها إنما كان يُلتفت حين يتوجَّه بالكلام إلى الفتيات. فهي بينهن الملكة الفخورة الفرحة.

كان بلتسكي يحاول أن يُبقي الجو نشيطاً حياً، فهو يتكلم بغير انقطاع، ويجبر الفتيات على تقديم التشيخير، ويمازحهنّ ويلاعبهنّ، ولا ينفكّ يقول لأولنين، بالفرنسية، ملاحظات خليعة عن جمال ماريانا التي كان يسميها له بقوله «صاحبتك» (بالفرنسية)، ولا ينفك يدعوه إلى أن يحذو حذوه. وبينما كان أولنين يشعر بمزيد من الإرهاق شيئاً بعد شيء، ويحاول أن يجد عذراً للهرب، إذ أعلن بلتسكي أن على أوستينكا، وهذا عيدها، أن تقدّم للجميع تشيخيراً وقبلة. فقبلت أوستينكا، مشترطة أن يوضع في طبقها مال، على ما جرت به العادة في ولائم الزفاف. قال أولنين محدّثاً نفسه: «أي شيطان دفعني إلى المشاركة في هذا الاجتماع المقزّز؟». ثم نهض يريد أن يخرج. فسأله بلتسكي:

- إلى أين تذهب؟

فأجابه وقد قرّر جازماً أن يهرب:

- أريد أن آتي بتبغ.

فقال له بلتسكي بالفرنسية:

- معي مال.

قال أولنين لنفسه مغتاظاً من خراقته: «لا سبيل إلى الانصراف. لا بدّ من الدفع. ألا يمكنني حقاً أن أتصرف كما يتصرف بلتسكي؟ كان ينبغي أن لا أجيء، أما وقد جئت فيجب أن لا أفسد عليهم متعتهم. سوف أشرب كما يشرب القوزاق!».

تناول قصعة كبيرة من الخشب تتسع لما يملأ ثماني أقداح (واسمها «تشابورة»)، فملأها خمرة، وأفرغها في جوفه كلها تقريباً. فكانت البنات تنظر إليه، وهو يشرب، مدهوشاتٍ بل مرتاعات بعض الارتياع. لقد بدا لهن ذلك أمراً غريباً غير لائق. وقدمت أوستينكا لكلٍّ من الشابين كأساً أخرى، وقبّلتهما كليهما. وقالت وهي ترنّن على الطبق ما وضعه فيه الشابان من نقود:

- انظرن يا بنات، سوف نتسلّى الآن!

أصبح أولنين لا يحسّ بما كان يحسّ به من الضيق والحرج، وانحلّت عُقدة لسانه.

وقال بلتسكي لماريانا وهو يمسك يدها:

- الآن دورك يا ماريانا، فقدّمي إلينا خمراً وقبلة.

فأجابته وهي ترفع يدها كأنها تهمُّ أن تضربه:

- خذ لك هذه القبلة!

وقالت أخرى:

- «الجدّ» يمكن تقبيله حتى بغير نقود!

قال بلتسكي:

- هذه لطيفة!

وقبّل الفتاة فأخذت تدافع عن نفسها متخبّطة! ثم عاد يخاطب ماريانا فقال لها مُلِحًّا:

- هيه! هلاً عزمت أمرك، فأكرمتِ نزيل دارك!

ثم أمسك بيدها واقتادها إلى الدكة وأجلسها بقرب أولنين، وقال يسأله وهو يدير وجهها ليُرى من جانب:

- انظر ما أجملها!

لم تقاوم ماريانا، واتجهت إلى أولنين بعينيها الواسعتين وهي تبتسم ابتسامة اعتزاز وفخر. وكرّر بلتسكي يقول:

- يا له من جمال!

كانت نظرة ماريانا كأنها تقول: «ما أجملني!». وطاش لبُّ أولنين، فإذا هو يطوّق الفتاة من دون أن يدري ماذا يفعل، ويحاول أن يقبّلها، ولكن الفتاة تملّصت منه بخشونة وقوّة، وصدمت بلتسكي وصدمت كل ما كان على المائدة، ووثبت إلى جهة المدفأة. فتعالت الصيحات، وانطلقت الضحكات. وهمس بلتسكي للفتيات ببعض الكلمات، فإذا هنّ يخرجن فجأة راكضاتٍ إلى الدهليز، ويوصدن الباب وراءهن ويغلقنه بالمفتاح.

سألها أولنين:

- لماذا قبّلت بلتسكي ورفضت أن تقبّليني؟

فأجابته وقد ارتعش حاجباها قليلاً واختلجت شفتها السفلى بعض الاختلاج:

- هكذا! لا أريد وكفى!

ثم أضافت تقول وهي تبتسم:

- أمره هو أمر آخر. إنه هو «الجدّ».

ومضت إلى الباب وأخذت تدقّه وتصيح قائلة:

- افتحن الباب يا شيطانات!

قال أولنين وهو يقترب من الفتاة:

- بل فليبقين هن هناك، ولنبق نحن هنا!

فقطّبت ماريانا حاجبيها وأبعدته عنها بحركة من يدها في رصانة ووقار. فإذا بأولنين يرى فيها من الفخامة والجلال مرة أخرى ما جعله يثوب إلى رشده ويخجل من سلوكه. فاقترب من الباب وشدَّ قبضته، وقال:

- افتح يا بلتسكي! ما هذا المزاح السخيف!

فعادت ماريانا تضحك ضحكها الوضّاح السعيد. وقالت تسأل أولنين:

- أتراك خائفاً مني؟

- إنك لا تقلّين عن أمك في سوء معاملتي!

- استمرّ في مصاحبة ياروشكا، فتحبك البنات مزيداً من الحبّ!

ونظرت إلى عينيه محدِّقةً عن قرب وهي ما تزال تبتسم. فلم يعرف ماذا يقول. ثم ها هو يسألها فجأة:

- وماذا لو زرتكم؟

فأجابته وهي تهزّ رأسها:

- يختلف الأمر عندئذ.

في تلك اللحظة فتح بلتسكي الباب بغتةً، فارتدت ماريانا إلى الوراء ارتداداً من الشدّة أنّها صَدَمت بوركها ساق الشاب.

«كلّ ما قدَّرته قبل الآن لم يكن إلا ترّهات، الحب والتضحية

ولوكا على السواء! لا شيء إلا السعادة! السعيد هو المصيب». برقت هذه الفكرة في ذهنه، فإذا هو يمسك ماريانا بقوّة أدهشته هو نفسه، فيقبّلها على الصدغ وعلى الخد. فلم تزعل ماريانا، وإنما ضحكت ضحكة مجلجلة وهربت إلى الفتيات الأخريات.

هكذا انتهت الأمسية. وحين عادت أم أوستينكا من عملها قرّعت البنات تقريعاً شديداً وطردتهنّ.

26

حدَّث أولنين نفسه وهو يعود إلى منزله قائلاً: «نعم، يكفي أن أرخي الأعنّة قليلاً حتى أتوله بحبّ هذه القوزاقية». ورقد على سره مع هذه الفكرة، ولكنه قال لنفسه إنه سرعان ما سينسى هذا كلّه ويرجع إلى حياته السابقة. غير أن حياته السابقة لم تعد. لقد تبدّلت علاقته بماريانا. انهدم الجدار الذي كان يفصل بينهما من قبل. إن أولنين يقول لها الآن بضع كلمات كلّما لقيها. والليوتنان الذي جاء يقبض أجرة المسكن قد سمع عن ثراء أولنين، ودعاه إلى زيارته، واستقبلته الأمّ ببشاشةٍ وترحيب، فأصبح أولنين منذ ذلك الحين يدخل على مؤجّريه أحياناً كثيرة، ويبقى عندهم مثرثراً إلى الليل. صحيح أنه يبدو عليه أن حياته في «الستانتسا» لم تتغيّر، غير أن انقلاباً قد حدث في نفسه. إنه يقضي النهار في الغابة، فإذا كانت الساعة الثامنة من المساء دخل على الليوتنان، وحده أو مصطحباً ياروشكا. وقد بلغ من تعوّد مؤجّريه عليه أنهم أصبحوا يدهشون إذا لم يروه. كان يدفع ثمن الخمرة جزيلاً، وكان إنساناً وديعاً مسالماً. وكان فانيا يأتيه بالشاي إليهم.

كان يجلس في ركن بقرب المدفأة، وكانت العجوز تتابع عملها بغير حرج، كانوا يشربون الشاي أو التشيخير وهم يتحدّثون

عن القوزاق، وعن الجيران، وعن روسيا التي كان أولنين يفيض في الكلام عنها مجيباً عن الأسئلة التي تُلقى عليه. وكان في بعض الأحيان يتناول كتاباً، ويسترسل في القراءة وحده. وكانت ماريانا- كعنزة متوحّشة- تجلس على سطح المدفأة أو تمكث في ركن مظلم من الأركان مصالبةً ساقيها تحتها، ما كانت لا تشارك في الحديث، ولكن أولنين يرى عينيها ووجهها ويسمع حركتها ويسمع صوت قضمها بذور دوّار الشمس. كان يحسُّ حضورها أثناء استرساله في القراءة. وكان يبدو له في بعض الأحيان أن عيني الفتاة تحدِّقان إليه، فإذا التقى بتألقّهما كفَّ عن الكلام على غير إرادةٍ منه، ونظر إليها، فإذا هي تُسرع في الاختباء، فيتظاهر هو بالاستغراق في الحديث مع العجوز. كان يتجسّس على أنفاسها، ويرصد أيسر حركاتها، وينتظر اللحظة التي سيلتقي فيها بنظرتها مرةً أخرى. كانت، بحضور الآخرين، مرحةً لطيفة معه على وجه العموم. أما إذا كانا وحيدين فإنها تبدي له توحّشاً وشراسة. وربما جاء قبل أن تكون ماريانا قد رجعت إلى البيت، ثم إذا هو يسمع وقع خطاها الثابتة على حين فجأة، وإذا بقميصها الأزرق الشاحب يظهر في شق الباب، ثم ها هي تدخل، فتراه، فتبتسم له عيناها ابتسامةً خفيفة لا تُدرك، فكان يشعر عندئذٍ بفرح وارتياع في آن واحد. كان يسألها شيئاً، مع أنه لا يريد أن يحصل منها على شيء، غير أن حاجته إلى حضورها كانت تشتدّ يوماً بعد يوم.

قد بلغ أولنين من عمق الدخول في حياة «الستانتسا» أن ماضيه أصبح يبدو له شيئاً غريباً عنه. أما المستقبل، ولا سيما في خارج نطاق هذا العالم الذي يعيش فيه، فقد كان أولنين لا يهتم به. وإذا وصلته رسائل من روسيا، من أقارب أو أصدقاء، استغرب أشدّ

الاستغراب أن يرى هؤلاء يرثون لحاله، ويعدّونه شاباً ضائعاً، بينما هو في قريته يصف بالضياع جميع أولئك الذين لا يعيشون الحياة التي يعيشها. كان مقتنعاً بأنه لن يندم على أنه قطع الصلة بحياته الماضية ليعيش هذه الحياة الهادئة المنعزلة. لقد سبق له أن شعر بسعادة أثناء الحملات أو في القلاع، ولكنه هنا فقط، تحت جنح العمّ ياروشكا، في الغابة، وفي هذا البيت الذي يقع في تخوم المدينة، ولا سيما حين يتصوّر ماريانا ولوكا، إنما رأى زيف الحياة التي كان يعيشها في الماضي، رؤيةً واضحة، وهو زيف كان يثيره هناك منذ ذلك الحين، ولكنه أصبح الآن يراه شيئاً حقيراً سخيفاً لا يطاق. إن القوقاز يبدو له الآن مختلفاً كل الاختلاف عما كان يتخيّله من قبل. لا شيء هنا يشبه ما كانت تصوّره له أحلامه، أو ما كانت تصوّره له الأوصاف التي قرأها أو سمعها. أصبح يقول لنفسه: «ليس ههنا هاويات سحيقة، ولا أملات بك، ولا أبطال، ولا قطّاع طرق، وإنما الناس هنا يعيشون حياة الطبيعة نفسها، يموتون ويولدون ويتناسلون ثم يولدون ويقتتلون ويشربون ويأكلون ويبتهجون ويموتون، غيرَ خاضعين لشروط أخرى غير الشروط الثابتة الدائمة التي فرضتها الطبيعة على الشمس والعشب والحيوان والشجر... فليس لهم قوانين غير هذه القوانين». لذلك كان إذا قارن بين هؤلاء البشر وبين نفسه رآهم جميلين أقوياء أحراراً، وإذا نظر إليهم خزي من ذاته ورثى لحاله. وكثيراً ما خطر بباله جادّاً أن يترك كل شيء ويسجّل نفسه قوزاقياً، ويشتري بيتاً ومواشي، ويتزوج امرأةً من هذه البلاد، ولكنه لا يتزوج ماريانا وإنما يتركها للوكا، ويعيش هنا مع ياروشكا، ويشارك في الحملات مع القوزاق. وكان يتساءل: «ما بالي أتردّد؟ ماذا أنتظر؟». كان يشجّع نفسه ويقرّعها قائلاً: «أأنا خائف من تنفيذ ما أؤمن بأنه العدل

والعقل؟ هل الرغبة في أن أكون قوزاقياً بسيطاً، وأن أعيش بقرب الطبيعة، وأن لا أسيئ إلى أحد، وأن أُحسِن إلى البشر، هل الرغبة في هذا أسخف من الأحلام التي كانت تساورني في الماضي في أن أصبح وزيراً أو قائد فوج مثلاً؟» ولكن صوتاً في قرارة نفسه كان يأمره بأن ينتظر، وأن لا يتخذ قراراً. كان الشيء الذي يصدّه هو هذا الشعور الغامض بأنه قد لا يستطيع أن يعيش حياة ياروشكا أو لوكا كاملةً، لأنه عرف سعادة أخرى. كان الشيء الذي يصده هو تلك الفكرة التي تقول له إن السعادة في التضحية. وكان لا ينقطع عن الابتهاج والاغتباط إذ يفكر في سلوكه إزاء لوكا.كان دائم البحث عن فرصة التضحية في سبيل الآخرين. ولكن الفرصة لا تعرض له. إنه في بعض الأحيان ينسى «وصفة» السعادة هذه التي اكتشفها، فيعتقد بأنه قادر على أن يشارك ياروشكا حياته. ولكنه لا يلبث أن يثوب إلى نفسه فيتشبّث مرّةً أخرى بفكرة التضحية الواعية. فإذا بهذه الفكرة تشدّ أزره وتحيي عزيمته، وإذا هو يعود ينظر إلى الناس وإلى سعادتهم هادئاً فخوراً.

27

قبل موسم قطاف العنب، وصل لوكا ذات يوم إلى أولنين راكباً صهوة جواد. كان يبدو أنشط حركة وأشدّ جسارة منه في أي وقت مضى.

سأله أولنين وهو يستقبله فرحاً مرحاً:

- هيه! ألا تنوي أن تتزوّج؟

فلم يجب لوكا عن السؤال رأساً، وبادره قائلاً له:

- أرأيت؟ لقد أبدلت حصانك بحصانٍ آخر من الضفة الثانية. يا له من حصان! حصان كاباردا حقًّا! إنني خبير في شؤون الخيل!

فأخذ الشابّان يفصحان الحصان، وقاما ببضعة تمرينات فروسية في فناء الدار. إنه حصان ممتاز حقاً. هو خصي كميت عريض طويل، ملتمع الوبر كثيف الذيل، ناعم العرف رقيقه، يبلغ من حسن الامتلاء أن المرء «يستطيع أن ينام على ظهره» كما قال لوكا. وكل شيء فيه، من حافريه إلى عينيه إلى أسنانه، أنيق رشيق كما يكون في أكرم الخيول نسباً وأصفاها عرقاً. فلم يسع أولنين إلا أن يعجب به، فإنه لم يرَ حصاناً أجمل من هذا الحصان فيما رأى بالقوقاز.

قال لوكا وهو يربت على رقبة الحصان:

- وما أحلى مشيته! وما أروع هملجته! وهو فوق ذلك ذكي يعدو وراء صاحبه!

سأله أولنين:

- هل دفعت فرق الثمن ضخماً؟

فأجابه لوكا مبتسماً:

- لم أدفع شيئاً. لقد أمدَّني به صديق.

- حصان رائع! هو آية من آيات الجمال! بكم ترضى أن تبيعه؟

قال لوكا بمرح:

- عرضوا عليّ مائة وخمسين روبلاً. أما لك أنت فإنني أتنازل عنه بغير ثمن. قل كلمة واحدة فأعطيك إياه. أنزعُ عنه السرج ويكون لك. وتعطيني حصاناً ما للخدمة العسكرية.

- لا، مستحيل!

قال لوكا وهو يحلّ حزامه وينزع عنه واحداً من خنجرين كانا معلّقين به:

- خذ! لقد حملت إليك «بشكشاً» حصلت عليه من الضفّة الثانية.

- شكراً.

- وستأتيك أمي بعنب.

- لماذا؟ لم يبقَ لأحد منّا على صاحبه دَيْن، لأنني لن أدفع لك ثمن الخنجر، أليس كذلك؟

- طبعاً لن تدفع! إن فيراي خان، في الضفّة الأخرى من النهر، قد ذهب بي إلى بيته وقال لي: «اختر الخنجر الذي تشاء»، فأخذت هذا. تلك هي العادة عندنا.

ودخل الشابان إلى البيت وشربا. سأله أولنين:

- هل تنوي أن تبقى هنا بعض الوقت؟

- لا. لقد جئت لأودّع. سيرسلونني مع مفرزة إلى الضفة الأخرى من نهر تيريك. وسنرحل في هذا اليوم أنا ونازار؛ رفيقي.

- ومتى الزفاف؟

- سأرجع قريباً، فتتمّ الخطبة، ثم أستأنف الخدمة العسكرية.

بذلك أجابه لوكا على مضض. فسأله لوكا:

- كيف؟ ألن ترى خطيبتك؟

- لن أراها. علامَ أراها؟ حين تمضي في حملة فاسأل في السرية عن لوكا، «العريض». ما أكثر الخنازير الوحشية هناك! لقد قتلت خنزيرين. وسوف أدلّك.

- استودعك الله. حماك يسوع!

ركب لوكا الحصان، وخرج إلى الشارع وهو يُرقص جواده، من دون أن يعرِّج على ماريانا. وكان نازار في انتظاره.

سأله نازار وهو يغمز بعينه في اتجاه بيت يامكا:

- أندخل إلى هنا؟

فأجابه لوكا:

- قد ندخل. خذ، اقتَدْ حصاني إليها، فإذا تأخرت فأعطه علفاً. وسأكون في المفرزة قبل طلوع النهار على كل حال.

- ألم يعطِك اليونكر شيئاً آخر؟

- لا، لحسن الحظ. أعطيته أنا خنجراً جزاء ما أعطاني هو من قبل.

قال لوكا ذلك وهو ينزل عن حصانه إلى الأرض، ويعهد به إلى نازار، ثم تسلّل إلى فناء دار ماريانا تحت نافذة أولنين تماماً.

كان الظلام دامساً. وكانت ماريانا تمشّط شعرها قبل النوم وهي لا تلبس إلا قميصها.

دمدم القوزاقي يقول:

- هذا أنا يا ماريانا.

كان وجه ماريانا رصيناً يُعبّر عن قلّة الاكتراث، ولكنّها ما إن سمعت صوته حتى تهلّلت أساريرها. وفتحت النافذة، ومالت عليها فرحةً خائفة في آنٍ واحد.

- ماذا؟ ما تريد؟

قال لوكا:

- افتحي. اسمحي لي أن أدخل لحظة قصيرة. فأنا أشعر بسأم شديد في البعد عنك. شيء رهيب!

وأمسك بيديه رأس ماريانا وقبّلها.

- حقاً! افتحي.

- لا فائدة من قول هذه السخافات. قلت إني لن أدعك تدخل. أأنت باقٍ هنا مدة طويلة؟

لم يجبها لوكا واستمر يقبّلها، وانقطعت هي عن سؤاله. قال لوكا:

- انظري! إنني لا أستطيع حتى أن أُحسن تقبيلك من خلال النافذة.

صاحت العجوز منادية:

- ماريانا! مع من أنتِ؟

فأسرع لوكا ينزع طاقيته التي كان يمكن أن تشي به، وأقعى تحت النافذة.

همست ماريانا تقول له:

- انصرف حالاً.

ثم قالت تجيب أمها:

- هو لوكا جاء عابراً ليرى أبي.

- ارسليه إذن إلى هنا!

- لقد مضى. قال إن وقته لا يتّسع.

كان لوكا قد انحنى نصفين، ومرَّ تحت النوافذ سريعاً وهرع إلى عند يامكا، ولم يبصره إلا أولنين.

شرب لوكا ونازار جرّتين من التشيخير، ثم غادرا «الستانتسا». كانت الليلة دافئة مظلمة ساكنة. وكانا يتقدّمان صامتين، فلا يُسمع إلا وقع خطى حصانيهما. أخذ لوكا يغني أغنية القوزاقي منجال، ولكنّه لم يُنه المقطع الأول منها، حتى قال لنازار:

- لم تدَعني أدخل.

فأجابه نازار قائلاً:

- كنت أقدِّر ذلك. اسمع ما روته لي يامكا: لقد أخذ اليونكر يتردّد عليهم، وياروشكا يتباهى بأنه حظي من اليونكر بغدّارة ليقنع له ماريانا..

قال لوكا غاضباً:

- كذب هذا الشيطان. ليست ماريانا بالبنت التي تفعل مثل هذا. لسوف أهشّم أضلاعه تهشيماً.

وطفق يصدع بأغنيته الأثيرة:

من حديقة جميلة طار صقر مضيء
إنها الحديقة الأثيرة عند مولانا القيصر.
فأسرع صياد شاب يجري وراء الصقر،
ويقول له: تعال حطّ على يدي اليمنى أيها الباز.
ولكن الصقر النيِّر أجابه بقوله:
لم تقدر أن تحبسني في قفص من ذهب
لم تقدر أن تبقيني على يدك اليمنى.
وأنا الآن راحل إلى البحر الأزرق،
وسأصطاد عند البحر الأزرق بجعة بيضاء جميلة
وسأشبع من لحمها الطري.

28

كان يُحتفل عند الليوتنان بخطبة ماريانا. لقد جاء لوكا إلى «الستانتسا» ولكنه لم يدخل على أولنين. وأولنين لم يحضر الاحتفال، رغم أنه دُعي إليه. كان يشعر بحزن لم يشعر بمثله قط منذ وصوله إلى القرية. لقد رأى لوكا ذاهباً في المساء مع أمّه إلى بيت الليوتنان مرتدياً أحسن ثيابه، وتساءل لماذا كان لوكا بارداً هذا البرود كلّه في معاملته. كان هذا السؤال يعذِّبه. فاعتكف في غرفته وأخذ يكتب في دفتر يومياته:

«فكَّرت كثيراً وتغيَّرت كثيراً في الآونة الأخيرة. لقد رجعت إلى الألفباء من أجل أن يكون الإنسان سعيداً، يكفيه أن يحب، أن يحبّ حبّاً يفيض بالتضحية، أن يحبّ كل الناس وكل شيء، أن يمدّ شباك

الحب في كل جهة فيلتقط بها جميع من يقعون فيها. على هذا النحو إنما اصطدت فانيا، وياروشكا، ولوكا، وماريانا».

ما إن كتب أولنين هذه الأسطر حتى دخل عليه ياروشكا مرحاً شديد المرح. كان أولنين قد عرّج على مسكن ياروشكا في ذات مساء قبل بضعة أيام، فوجده في فناء الدار أمام خنزير بري قتيل وقد أخذ ياروشكا يقصبه بسكين صغير قصباً حاذقاً. وكانت الكلاب، ومنها كلبه الأثير ليام مستلقية على الأرض من حوله تنظر إليه وتحرّك أذيالها تحريكاً خفيفاً. كان عدد من الصبيان يرمقونه من فوق السياج بإحترام، لا يناكدونه ولا يغيظونه. وكان الناس- وهم لا يلاطفونه في العادة كثيراً- يحيّونه، وهذا يجيئه بتشيخير وهذا بلبنٍ رائب وهذا بشيء من دقيق. في صباح الغد جلس ياروشكا في بيته ملوثاً بالدم، يوزّع لحم الحيوان بالوزن، فمن هؤلاء يأخذ الثمن مالاً، ومن أولئك يأخذ الثمن خمراً. وكان وجهه يقول بوضوح: «لقد منَّ الله عليَّ بأن أصطاد حيواناً. أفرأيتم العمّ ياروشكا كيف أنه ما يزال صالحاً لشيء من الأشياء!». ولا حاجة إلى القول إنّ العمّ ياروشكا قد أخذ بعد هذا الحادث يشرب ويشرب ولا يبرح القرية، وهو مستمر في هذا منذ أربعة أيام. وقد شرب أيضاً في حفلة الخطبة.

دخل ياروشكا على أولنين مترنحاً من السكر، محمرَّ الوجه، مشعّث اللحية، لكنه كان يرتدي جلباباً أحمر جديداً كلّ الجدّة مزداناً بأشرطة. وكان يحمل بالالايكا، مصنوعة من يقطينة، جاء بها من الضفّة الأخرى لنهر تيريك. فقد وعد أولنين بهذه التسلية منذ مدّة طويلة، وكان مشرق المزاج جداً. فلما رأى أولنين عاكفاً على الكتابة بدا عليه الحزن، وقال له بصوتٍ خافت كأنما هو يخشى أن يروِّع روحاً من الأرواح موجودةً بينه وبين الورق:

- اكتب اكتب يا بنيّ!

وجلس على الأرض بغير ضجّة. فالتفت أولنين، وأمر له بخمر، واستمرّ في الكتابة. ضجر ياروشكا من الشرب وحده، وكان يشتهي أن يثرثر، فقال:

- كنت في حفلة الخطبة. يا لهم من خنازير! وقد مللت وسئمت فجئت إليك.

سأله أولنين وهو ما يزال يكتب:

- وهذه البالالايكا؟ من أين جئت بها؟

فأجابه يقول بصوتٍ خافت:

- كنت في الضفّة الأخرى من النهر، ومن هناك جئت بها. إنني أعزف! لا يوجد اثنان مثلي!

إنني أعزف أية أغنية تشاء، أغنية تترية، أغنية قوزاقية، أغنية من أغاني النبلاء، أغنية من أغاني الجنود... ما تشاء!

نظر إليه أولنين من جديد، وابتسم، واستمرّ يكتب.

فطمأنت هذه الابتسامة الشيخ. فإذا هو يقول له فجأة بلهجةٍ حازمة:

- دعك يا بنيّ! جرحوا شعورك، أليس كذلك؟ فلا تكترث بهم، وابصق عليهم! ما بالك تظلّ تكتب وتكتب! علامَ هذا؟ ما جدواه؟

وأخذ يحاكي أولنين مطبطباً على الأرض بأصابعه السميكة، مقبّضاً وجهه الضخم على جعدة فيها احتقار. واستطرد يقول:

- بدلاً من عكوفك على تدبيج هذه الشكاوى، انصرف إلى التسلية، وكن فتى شجاعاً حقاً!

إن ياروشكا يعتقد أن الكتابة لا يمكن أن تكون إلا تحرير

شكاوى يرفعها كاتبها إلى السلطات.

انفجر أولنين ضاحكاً. وضحك ياروشكا أيضاً، ونصب قامته، وطفق يبرهن على مواهبه عازفاً ومغنياً.

- ما فائدة الكتابة؟ أحرى بك أن تسمع ما سأغنيه لك. إنك بعد الموت لن تسمع أغاني. هيّا تسلّ!

غنّى في أول الأمر لحناً من ابتكاره مع لازمة رقص:

آها، آها، آها!
أين رأيتها؟
في دكان السوق
تبيع إبراً.

ثم غنّى أغنية تعلّمها في الجيش من الضابط الصف:

في يوم الاثنين عشقت
وفي الثلاثاء شقيت
وصرحت بحبي يوم الأربعاء
وانتظرت طوال يوم الخميس.
وجاءني الجواب يوم الجمعة،
يحظر عليّ كل أمل!
وقررت أن أنتحر يوم السبت.
لكن حتى لا أموت كافراً.
غيّرت رأيي يوم الأحد.

ثم عاد يردّد:

آها، آها، آها
أين رأيتها؟

ثم غمز بعينيه وهزّ كتفيه وأخذ يغني وهو ينطّ:

سأقبّلك، سأطوّقك
وبشريط أحمر سأوثقك.
وناديا جنكا سأسمّيك.
حبيبتي ناديا جنكا.
أتراك تُخلصين لي الحبّ؟

وفي غمرة هذا الاهتياج وثب ياروشكا وهو ما يزال يعزف، وأخذ يرقص.

فأما الأغاني التي هي من نوع «آها، آها، آها»، وهي التي وصفها بأنها راقية، فإنه لم يغنّها إلا من أجل أولنين. ولكنه بعد أن شرب ثلاث كؤوس أخرى من التشيخير، تذكّر الزمان القديم، فأخذ يصدح بأغانٍ هي الأغاني حقاً في رأيه، فكان منها ما هو تتري ومنها ما هو قوزاقي. وفيما كان يغني واحدة من تلك الأغاني يحبّها حبّاً خاصّاً، أخذ صوته يرتجف فجأة، ثم صمت وما تزال أصابعه تضرب على الأوتار. وقال:

- آه يا صديقي!

فالتفت أولنين إليه مستغرباً رنّة صوته الغريبة، فإذا هو يرى الشيخ باكياً. كانت عينا ياروشكا تفيضان دموعاً، وكانت قطرة من الدمع تسيل على خدّه.

قال الشيخ وهو يحوزق:

- انقضيت يا زماني الجميل!

وصمت. ثم أضاف صارخاً بصوت شديد على حين فجأة، من دون أن يجفف عينيه:

- اشرب لماذا لا تشرب؟

كانت أغنية شركسية تؤثر في قلب ياروشكا تأثيراً خاصاً. وهي لا تضم إلا كلمات قليلة، وإنما يكمن سحرها كلّه في لازمتها الشاكية: «آي، واي، دالالاي!». ترجم ياروشكا كلمات الأغنية: مضى شاب شركسي بقطيع غنمه إلى الجبل. وجاء الروس، فأشعلوا النيران في «الآوول»[1] وقتلوا الرجال، واقتادوا النساء. وعاد الشاب من الجبل. فحيث كانت القرية لم يرَ شيئاً. ولم يجد أمّاً، ولا أخاً ولا منزلاً. لم يبقَ إلا شجرة. جلس الفتى تحت الشجرة وبكى بكاءً مرًّا، وقال يخاطب الشجرة: «أنا وحيد مثلك». وغنّى: «آي! واي! دالالاي!».

ردّد الشيخ هذه اللازمة الشاكية الممزّقة عدّة مرات.

وبينما هو ينهي ترديدها آخر مرة، تناول بندقية معلّقة على الحائط، وخرج إلى فناء الدار راكضاً، وأطلق النار من الفوهتين، ثم استأنف صداحه الشاكي بمزيدٍ من الحزن: «آي! واي! دالالاي!». وصمت.

وقد تبعه أولنين إلى درج الباب، ووقف هنالك صامتاً يتأمّل السماء القاتمة المزدانة بالنجوم، في الجهة التي توهّجت فيها طلقتا النار. كانت أضواء تسطع في بيت الليوتنان. وكانت تترجّع أصوات، وتزاحمت بنات في فناء الدار أمام درج الباب وأمام النوافذ وجعلت تركض من الكوخ إلى الدهليز. وخرج عدد من القوزاق لم يستطيعوا أن يملكوا أنفسهم، فأخذوا يردّدون بأصواتٍ حادّة على لازمة العمّ ياروشكا وعلى إطلاقه النار.

سأله أولنين:

---

(1) «الآوول»: القرية عند الشراكسة.

- لماذا لا تحضر الخطبة معهم؟

فأجاب الشيخ الذي لا بدّ أن أحداً منهم كان قد ضايقه، أجاب يقول:

- ليباركهم الربّ، ليباركهم الربّ! إنني لا أحبّهم. لا. لا أحبّهم! يا لهم من أناس كريهين مقيتين! لنرجع إلى البيت. لهم تسليتهم ولنا تسليتنا!

عاد أولنين إلى غرفته. وقال يسأل الشيخ:

- ولوكا؟ هل هو فَرِح؟ ألن يمر بي ليراني؟

قال الشيخ هامساً:

- دع لوكا. لقد كذبوا عليه. قالوا له إنني أتوسّط بينك وبين البنت. البنت؟ إننا نستطيع أن نملكها إذا أردنا. ادفع مالاً فتكون لنا! سأدبّر لك هذا الأمر. سوف ترى!

- لا يا عمّ! المال لا يُجدي إذا هي لم تحبّني. لا تحدّثني في هذا بعد الآن!

- يا لليتيمين البائسين نحن كلينا! لا أحد يحبّنا!

كذلك قال الشيخ فجأة، وعاد يبكي.

وكان أولنين قد شرب أثناء إصغائه إلى قصص الشيخ أكثر مما اعتاد أن يشرب. وها هو ذا يحدّث نفسه قائلاً: «سعيد إذن لوكا الآن». وكان هو حزيناً.

وقد بلغ الشيخ من شدّة السكر أنه انهار أخيراً على الأرض. فاضطر فانيا أن يستدعي جنوداً لمساعدته، ونقله بمعاونتهم وهو يبصق من فرط الغضب. لقد بلغ فانيا من الغضب بسبب سوء سلوك الشيخ أنّه لم يقل كلمة واحدة باللغة الفرنسية.

29

إنه شهر آب. منذ أيام لا تُرى في السماء سحابة. الشمس تحرق بغير رحمة. والريح الحارّة تهبّ منذ الصباح فتثير في الطرق وفي الكثبان غيوماً من رمل محرق تنشرها من خلال الأدغال والأشجار والقرى. أعشاب الأرض وأوراق الأشجار مغطّاة بالغبار. والطرق والمروج العطشى عارية يابسة مخشخشة. الماء انخفض منذ مدّة طويلة في نهر تيريك. والأقنية قد جفّت جميعها تقريباً. وبانخفاض الماء تنكشف مساحات متزايدة من الحافات الموحلة في غدير «الستانتسا»، فتطؤها المواشي. وطوال النهار تُسمع أصوات الأطفال من بنين وبنات وهم يصيحون ويرتعون في القليل الباقي من الماء. وقد يبس العشب والقصب في السهب، والمواشي تفرّ إلى الحقول وهي تجأر. والحيوانات المتوحشة تهاجر إلى بعيد، إلى غياض القصب أو إلى الجبال فيما وراء نهر تيريك. وغمامات من صغير الذباب والبعوض قد انصبّت على الوديان والقرى انصباباً. وضباب بلون الرماد يغطي الذرى المكسوّة بالثلوج. والهواء ثقيل غليظ. والناس يقولون إن رجالاً من الآبريك قد قطعوا نهر تيريك مخاضةً، فهم يحوّمون في الضواحي. والشمس تغطس كلّ مساء في شفق مشتعل.

هذا أوان العمل. فالناس جميعاً يزدحمون في حقول البطيخ وكروم العنب. والنباتات المتسلّقة تغزو البساتين الملأى بالظل الطري. وفي كل مكان، تحت الأوراق التي تشبه أن تكون شفّافة، تسودُّ عناقيد ثقيلة. وعلى الطريق الغبراء التي توصل إلى البساتين، تتعاقب عربات النقل مقرقعةً محملةً عنباً. وعلى التراب تتناثر عناقيد داستها العجلات. والصبية والبنات يركضون وراء أمهاتهم وقد تلوّثت

قمصانهم القصيرة بعصير العنب، والعناقيد في أيديهم وفي أفواههم. والعمال الذين يرتدون ثياباً رثّة يحملون سلال العنب على أكتافهم القوية والنساء قد غطّين رؤوسهنّ بمناديل تستر الجبين وتصل إلى العينين، وطفقن يقدن عربات النقل التي قُرنت بها أبقار وعلت حمولتها علوّاً كبيراً. والجنود الذين يلقونهم يسألونهم عنباً، والقوزاقي يتسلّق العربة وهي سائرة فيتناول منها ملء باع من العناقيد فيسكبها في حضن معطفه.

وفي بعض الأقنية يُعصر العنب منذ الآن، فتملأ رائحة عصيره الهواء. وتحت الأطناف تُرى أدلاء كبيرة من خشب صار لونها كلون الدم، ويُرى عمال من النوجاي قد شمروا سرواويلهم واصطبغت ربلات سيقانهم بالحمرة، وطفقوا يتحرّكون في الفناء منهمكين بالعمل. والخنازير تلتهم الثغل وتتخبّط فيه مهمهةً. والسقوف المسطّحة، من أكواخ الخشب تختفي تحت عناقيد العنب التي يشبه لونها لون العنبر وهي تجفّ وتيبس تحت أشعّة الشمس. والغربان وطيور القندس تتزاحم حول السقوف فتنقر البذور وتطير هنا وهناك.

إن الناس يجنون ثمرات سنة من العمل والكدّ فرحين مرحين. لقد كانت ثمار تلك السنة جميلة جمالاً نادراً، وافرة وفرة خاصة. ففي البساتين المخضوضرة الظليلة تنطلق ضحكات وأغان فرحة من هذا البحر من الأشجار التي تتناثر بينها وتبقّعها ثياب النساء ذات الألوان الزاهية.

الوقت ظُهر. وهذه ماريانا جالسة في بستانها في ظلّ شجرة درّاق، تسحب غداء الأسرة من تحت عربة فُصلت عن الدابة التي تجرّها. وهذا هو الليوْتنان جالس أمامها فوق غطاءٍ بُسط على الأرض، يغسل يديه بماء جرّة صغيرة بعد أن عاد من المدرسة. وهذا

أخو ماريانا الصغير، الذي رجع من الغدير راكضاً في هذه اللحظة، يجفف وجهه بيديه مسرعاً، ويلقي على أخته وأمّه نظرات قلقة بإنتظار الغداء. والأمّ قد شمّرت كمَّيها على ذراعيها الملوّحتين القويتين، وأخذت تصف على مائدة مستديرة تترية صغيرة عنباً وسمكاً مجففاً ولبناً رائباً وخبزاً. ويفرغ الليوتنان من تنشيف يديه، فيكشف رأسه ويرسم إشارة الصليب ويدنو من المائدة. إن الحرّ خانق حتى في الظل. والهواء مشبع برائحة حادّة. والريح الساخنة الشديدة التي تهب من خلال الأغصان لا تحمل أية طراوة، لكنها تحني ذرى أشجار الكمثري والدراق والتوت جميعاً. ويصلي الليوتنان صلاة جديدة، ويتناول جرّة تشيخير صغيرة تغطي فمها ورقة كرمة، فيعبّ منها ثم يمدّ الجرّة إلى الأمّ. إنّه يلبس قميصاً محلول الأزرار عند العنق، يكشف عن صدر بارز العضلات غزير الشعر. وفي وجهه الرقيق الماكر تعبير عن فرح، ولا شيء من تكلّف أو تصنّع في وضعه ولا في لغته، على خلاف المعهود فيه. إنه الآن منطلق على السجية متهلل الأسارير.

قال يسأل وهو يمسح لحيته:

- هل نفرغ هذا المساء من الجزء الفوقاني؟

فأجابته امرأته:

- نعم، بشرط أن لا يتغيّر الجوّ.

ثم أضافت تقول:

- إن آل ديومكين لمّ ينجزوا بعد نصف العمل. لا أحد يُتعب نفسه منهم إلا أوستينكا. إنها تضنى ضنًى شديداً.

قال الليوتنان مفتخراً:

- لن يستطيعوا أن ينجزوا...

وقالت العجوز وهي تناول ابنتها الجرّة:

- خذي يا ماريانا، اشربي. سيكون معنا ما ننفقه على عرسك بعون الله.

فقال الليوتنان وهو يقطّب حاجبيه قليلاً:

- لا شيء يدعو إلى الإسراع.

وخفضت الفتاة رأسها. وقالت العجوز معقِّبة:

- لِمَ لا نتكلّم في الأمر؟ لقد تمّت الخطبة، فعلامَ التأخير؟

- لا تتكلّمنَ في الأمر قبل الأوان. نحن الآن بصدد العمل.

قالت الأمّ تسأل:

- هل رأيت الحصان الجديد الذي يركبه لوكا؟ ليس هو الحصان الذي أهداه إليه ديمتري آندرتش. لقد أبدله بحصانٍ آخر.

- لا، لم أره. ولكنني تحدّثت مع خادم المستأجر. فقال إن مولاه تلقّى ألف روبل مرة أخرى.

قالت العجوز مؤمِّنة:

- ثريّ ثراءً طائلاً. ليس في ذلك شكّ.

وكانت الأسرة كلها فرحة سعيدة.

كان العمل يتقدّم. وكان العنب أغزر وفرة، وأكثر جودة من المتوقَّع.

ولما فرغت ماريانا من طعامها، قدّمت إلى الأبقار عشباً، ولفّت رداءها فجعلته مخدّة تحت رأسها، واضطجعت تحت العربة على الحشيش الكثيف المتلبّد من كثرة الدوس عليه. لم يكن يكسوها إلا قميص من قطن أزرق شاحب، وخمار من حرير أحمر يلفّ رأسها. ومع ذلك كانت تشعر بحرٍّ رهيب. كان وجهها يحترق

احتراقاً، وكانت ساقاها تبحثان عن شيء من طراوة فما تفلحان، وكان النعاس والتعب يحجّبان عينيها. وكانت شفتاها تنفرجان بغير إرادتها، وكان صدرها يتنفس تنفّساً ثقيلاً.

إن العمل متواصل منذ خمسة عشر يوماً. وهذا الكدّ الشاق المتصل يستغرق كل حياة الفتاة. إنها تثب عن سريرها إلى الأرض منذ الفجر، فتغسل وجهها بالماء البارد، وتعقد على رأسها خماراً، وتركض إلى المواشي حافية القدمين. ثم تنتعل حذاءيها بسرعة، وتلبس ثوبها، وتأخذ خبزاً، وتقرن البقر إلى العربة، وتمضي إلى الكروم تقضي فيها نهارها كله. وهي هناك لا ترتاح إلا ساعة واحدة، تقضي سائر الوقت في قطف العنب وحمل السلال. حتى إذا كان المساء، جرّت الأبقار بالحبل فرحةً لا تحسّ بتعبٍ، وجعلت تستحثّها بعصاها الطويلة، وعادت إلى «الستانتسا» فإذا فرغت من إدخال الأبقار إلى الحظيرة عند الغسق، أخذت قدراً من بذور دوّار الشمس فجعلتها في كمَّي قميصها الفضفاضين، وخرجت إلى ركن الشارع لتضحك وتثرثر مع البنات. ولكنها ترجع إلى البيت ليلاً، فتتعشى مع أبيها وأمّها وأخيها الصغير في الكوخ المظلم. ثم تدخل البيت طَلِقة النفس زاخرة بالقوّة، وتجلس على سطح المدفأة، وتصغي إلى حديث المستأجر نصف نائمة. فما أن ينصرف أولنين حتى ترتمي في سريرها، وتنام إلى الصباح نوماً هادئاً عميقاً. وفي الغد يتكرر كلّ شيء...

إنها لم ترَ لوكا منذ الخطبة، وهي تنتظر يوم عرسها بهدوء. ولقد أَلِفت اليونكر، وأصبحت تجد بعض الإنس والمسرّة في نظرته المنتبهة إليها، الثابتة عليها.

30

رغم الحرّ الذي لا يمكن الهروب منه، ورغم البعوض الذي يدندن في ظلّ العربة، ورغم أن أخاها الصغير لا ينفكّ يدفعها حين ينقلب إلى هذه الجهة أو تلك، فإن ماريانا، وقد بسطت خمارها على وجهها، كانت قد نامت حين هرعت أوستينكا نحوها فجأةً، فغطست تحت العربة، واستلقت إلى جانبها.

قالت أوستينكا وهي تستقرّ بقربها:

- فلننم!

ثم استدركت وهي تنصب جذعها:

- بل انتظري! لا يصلح الحال هكذا.

ووثبت فقطعت بعض الأغصان الخضراء، وربطتها من الجانبين بعجلات العربة، وألقت عليها رداءها، وصرخت تقول للصبي وهي تتسلّل من جديد تحت العربة:

- اخرج أنت من هنا. هل مكان القوزاقي هنا؟ بقرب البنات؟ انصرف!

فلما خلت إلى صديقتها طوّقتها بذراعيها بغتة، وشدّت جسمها إليها، وأخذت تقبّلها على الخدّين والعنق. وقالت وهي تضحك ضحكها الحادّ الرنّان:

- أخيّ الحبيب!

فقالت ماريانا متخبطةً:

- ما هذا؟ هل «الجد!» هو الذي علّمك هذا العلم؟ كُفّي!

وانطلقت البنات تضحكان ضحكاً بلغ من الشدّة أنّ الأمّ وبّختهما.

همست أوستينكا تسألها:

- ألا تحبين هذا؟

- سخافة! لننمْ! لماذا جئت؟

ولكن أوستينكا لم تهدأ. وقالت:

- ماذا أريد أن أقول لك؟ آه... لو علمت!...

فانتصبت ماريانا على كوعها وعدّلت خمارها وسألتها:

- هيه... ماذا تريدين أن تقولي لي؟

- علمت شيئاً عن نزيل داركم.

- ليس هناك ما يُعلم.

فهتفت أوستينكا قائلة وهي تلكزها بكوعها وتضحك مزيداً من الضحك:

- آه... يا للوغدة! إنها لا تحكي شيئاً. هل يجيء إليكم؟

- يجيء، ماذا؟

واحمرّت ماريانا فجأة.

- أنا بنت لا تعرف المكر. أنا أروي كلّ شيء. لماذا التكتّم؟

وأربد وجه أوستينكا المرح المتورّد. واستطردت تقول:

- لست أؤذي أحداً. أحبّه وكفى!

- الجدّ؟

- طبعاً.

- هذا إثم.

- ماريانا! متى أتسلّى إذا لم أتسلّ وأنا بنت؟ سوف أتزوّج قوزاقياً، وسوف ألد أولاداً، وسوف أعرف الحاجة. وأنت حين تتزوّجين لوكا، فلن تستطيعي أن تبتهجي، فهناك الأولاد، وهناك العمل..

قالت ماريانا:

- أي ضير في هذا؟ هناك من يعشْن حياة بهيجة ولو كنّ متزوّجات.

- ولكن احكي لي على الأقل ما تمّ بينكم وبين لوكا.

- لا شيء. خطبني، فاستمهله أبي سنة، ثم وافق على الخطبة، وسيتمّ الزواج في الخريف.

- ولكن ماذا قال لك لوكا؟

ابتسمت ماريانا وقالت:

- أمر معروف: قال إنه يحبّني. وكان يطلب مني طوال الوقت أن أذهب معه إلى البساتين.

- يا للملحاح! أظن أنك لم تذهبي. ولكن ما أجمله من فتى شجاع! إنه أحسن «دجيغيت»! ويقال إنه في «الكوردون» أيضاً أصبح لا ينام. لقد جاء كيريكا في الآونة الأخيرة فروى أن لوكا حصل على حصان رائع! لا بدّ أنه يضجر في البعد عنك. ماذا قال لك أيضاً؟

قالت ماريانا ضاحكةً:

- ألا بدّ أن تعرفي كل شيء؟ فاسمعي إذن: لقد جاء في ذات ليلة تحت نافذة غرفتي راكباً حصانه، وكان ثملاً، وسألني أن أفتح له.

- ولم تفتحي له؟

- أفتح له؟ مستحيل. متى قلت لا، فقد انتهى الأمر. أنا صلدة كصخرة.

كذلك قالت ماريانا بلهجة رصينة. فأجابت أوستينكا:

- يا له من فتى باسل! يكفي أن يريد فلا تمتنع عليه بنت!

فردّت عليها ماريانا باعتزاز:

- فليذهب إذن إلىٰ غيري!

- ألا تشفقين عليه؟

- بلى. لكنني لن أرتكب حماقات. هذا سوء.

اعترى أوستينكا ضحك أخذ يهزّها كلها فجأة، ثم إذا هي تسقط برأسها على صدر ماريانا فتطوّقها بذراعيها، وتقول لها:

- ما أغباك! إنك ترفضين سعادتك!

أخذت تزغزغ ماريانا. فقالت ماريانا وهي تضحك وتصرخ صرخات صغيرة:

- آي... كفّي.

فإذا العجوز تصيح وراء العربة مرة أخرى قائلةً بصوتها النائم:

- ما هاتان الشيطانتان؟ أما اكتفتا؟

فأنهضت أوستينكا جذعها، وكرّرت تقول ولكن بصوت خافت في هذه المرة:

- إنك ترفضين السعادة مع أن فرصتها سانحة. ما أكثر ما يحبّونك! آه... لو كنت في مكانك لعرفت كيف أستميل نزيل داركم! لقد نظرت إليه حين كنتم عندنا، فرأيت كيف كان يلتهمك بعينيه التهاماً. لقد أهدى إلى الجدّ هدايا كثيرة. ولكن يقال إن نزيل داركم هو أغنى من جميع هؤلاء الروس. حتى أن خادمه يروي أنه يملك أقناناً!

فأنهضت ماريانا جذعها وابتسمت شاردة الفكر. ثم قالت وهي تعضّ على عشبة:

- هل تعرفين ماذا قال لي نزيل دارنا في ذات مرة؟ قال لي: وددت لو أكون لوكا، القوزاقي، أو أن أكون أخاك الصغير. لِمَ قال هذا؟

أجابتها أوستينكا:

- قال هكذا! هو يتكلم، يقول كلّ ما يخطر بباله. ما أكثر ما

يقوله لي صاحبي! حتى ليغلب عليَّ الظنّ أنّ به لوثة!

عادت ماريانا تهوي برأسها على ردائها الملفوف مخدّة، وأحاطت بذارعها كتفي أوستينكا، وأغمضت عينيها. وقالت بعد صمت:

- أراد أن يجيء اليوم إلى البساتين ليشارك في العمل. لقد دعاه أبي.

ثم نامت.

31

ظهرت الشمس من وراء شجرة الكمثري التي كانت تحمي العربة، وأحرقت أشعتها المائلة وجهي الفتاتين حتى من خلال الأغصان التي شبكتها أوستينكا. فاستيقظت ماريانا، وعدّلت خمارها، حتى إذا ألقت نظرة فيما حولها، لمحت أولنين وراء الكمثري حاملاً بندقيته على كتفه مسترسلاً في الحديث مع الليوتنان. فلكزت أوستينكا لكزة خفيفة، وأشارت إلى اليونكر مبتسمة من دون أن تقول كلمة واحدة.

كان أولنين يقول وهو يلقي على ما حوله نظرات قلقة من دون أن يرى ماريانا التي كانت تحجبها الأغصان:

- ذهبتُ إلى هناك فلم أقع على واحد.

قال له الليوتنان وقد غيّر لغته فوراً:

- فاذهب إذن في هذه الجهة قُدُماً. فتصل إلى بستان مهجور يقال له «الصحراء»، فهناك تكثر الأرانب دائماً.

فانبرت العجوز تقول مرحةً:

- ما لذّة صيد الأرانب في موسم القطاف؟ أليس خيراً من الصيد أن تجيء تساعدنا بالعمل مع البنات.

ثم صرخت منادية:

- هلمّوا يا أولاد! انهضوا!

كانت ماريانا وأوستينكا تتهامسان تحت العربة، ولا تكادان تستطيعان أن تحبسا ضحكهما.

منذ أهدى أولنين إلى لوكا حصاناً ثمنه خمسون روبلاً، صار أصحاب الدار يلاطفون أولنين ملاطفة أعظم. وصار يسعد الليوتنان خاصةً أن يرى أولنين متقرّباً من ابنته متودّداً إليها.

قال أولنين وهو يبذل قصارى جهده كي لا ينظر إلى جهة العربة التي لمح تحتها من خلال الأغصان قميص ماريانا الأزرق، وخمارها الأحمر.

- لكنني لا أُحسن هذا العمل.

قالت العجوز:

- تعال فسأعطيك مشمشاً.

قال الكولونيل كأنما يشرح كلمات العجوز ويجد لها عذراً:

- هذه عادة قوزاقية قديمة، وامرأتي تتمسّك بها عن غباء. أظن أن عندكم في روسيا ما هو خير من المشمش. لا بدّ أن عندكم فاكهة الأناناس مربية ومحفوظة تأكلون منها ما شئتم أن تأكلون.

سأله أولنين:

- سأجد إذن أرانب في البستان المهجور؟ أنا ذاهب إلى هناك...

وألقى نظرة سريعة من خلال الأغصان الخضراء، ورفع طاقيته، وغاب وراء صفوف الدوالي المنتظمة.

حين رجع أولنين إلى بستان أصحاب مسكنه، كانت الشمس قد اختفت وراء أسوار الحدائق، وكانت أشعّتها المتبعثرة تسطع من

خلال أوراق الشجر الشفّافة. وقد سكنت الريح وشاعت الطراوة شيئاً فشيئاً في الكروم. استطاع أولنين، بنوع من الغريزة، أن يتعرّف إلى قميص ماريانا الأزرق بين صفوف الدوالي من بعيد، فاتجه إليها وهو يقطف أثناء مروره حبّات من العنب. كان كلبه الظمآن يقبض بخطمه المبلول على عنقود واطئ من العناقيد في بعض الأحيان. وكانت ماريانا مشمورة الكمّين شديدة الاحمرار، تقطع العناقيد الكبيرة بسرعة وترتّبها في سلّة. ها هي تتوقف من دون أن تترك الغصن الذي تمسكه، فتبتسم ابتسامة ملاطفة ثم تستأنف عملها. يدنو أولنين منها، ويردّ بندقيته عن كتفه ليحرر يديه، ويهمّ أن يقول لها محيياً: «أعانك الله! أين أهلك؟ أأنت وحيدة؟»، ولكنه لم يقل شيئاً واقتصر على أن رفع طاقيته. كان يشعر بحرجٍ وضيق من وجوده وحيداً مع ماريانا. ومع ذلك اقترب من الفتاة اقتراباً شديداً معذِّباً نفسه مزيداً من التعذيب.

قالت ماريانا:

- سوف تقتل البنات ببندقيتك.

- لا، ليست ملقّمة.

وصمت الاثنان.

- عليك أن تساعدني.

فاستلّ موساه وأخذ يقطع العناقيد. فلما رأى تحت الأوراق عنقوداً ضخماً يزن نحو ثلاثة أرطال وقد تلاصقت حبّاته تلاصقاً شديداً حتى لقد تسطّحت من ضيق المكان، أظهر ماريانا على هذا العنقود وسألها:

- هل يجب قطع العناقيد جميعاً؟ هذا ليس أخضر.

- هاته.

فتلامست يداهما. فما كان من أولنين إلا أن أمسك يد الفتاة التي كانت تنظر إليه مبتسمة. وسألها:

- ستتزوّجين قريباً؟

لم تجب بشيء، ونظرت إليه بعينيها الرصينتين، وأشاحت عنه.

- أنتِ تحبّين لوكا إذن؟

- ما شأنكَ أنت في هذا؟

- أنا أحسده.

- كيف؟

- حقّاً. إنّك آية من آيات الجمال!

قال أولنين ذلك ثم شعر بخزي رهيب من كلامه.

بدا له أن أقواله هذه سمجة وزائفة. واحمرّ احمراراً شديداً، واضطرب، وأمسك يديها كلتيهما.

قالت ماريانا تجيبه:

- مهما يكن من أمري، فلست أصلح لك. لماذا هذا التهكّم؟

ولكن نظرتها كانت تقول إنها تعلم حقّ العلم إنه لا يتهكّم.

- التهكّم؟ لو علمت كم أنا...

وبدت له هذه الأقوال سمجة مزيداً من السماجة، منافية مزيداً من المنافاة لما كان يحسّه. ومع ذلك تابع يقول:

- إنني مستعد من أجلك لأن أفعل كل شيء....

- من أجلي؟؟ دعني! متملّق...

ولكن وجهها، وعينيها الساطعتين، وصدرها الناهد، وساقيها الممشوقتين، ذلك كلّه كان يقول شيئاً آخر. بدا لأولنين أنها قد أدركت إدراكاً واضحاً كلّ ما يشتمل عليه كلامه من سماجة، ولكنها أرفع من هذه الأمور كلّها. وبدا له أنها تعلم منذ زمنٍ طويل ما كان

يريد أن يقوله لها فلا يفلح، ولكنها تريد مع ذلك أن تسمع كيف عساه يقوله. قال محدِّثاً نفسه: «كيف يمكن أن لا تعرف ما كان يريد أن يقوله لها وهو عين حقيقتها. ولكن لا. إنها لا تريد أن تفهم ولا تريد أن تجيب!».

- هوهو! هوهو!

كذلك دوّى صوت أوستينكا وراءهما فجأة، وسُمعت ضحكتها الحادّة. وصاحت تقول:

- تعال ساعدني يا ديمتري آندرتش، فأنا وحيدة!

وظهر وجهها المستدير الساذج بين الأغصان.

لم يجب أولنين ولم يتحرّك.

ومضت ماريانا في عملها تقطف العناقيد، ولكنها لا تنفكّ تنظر إلى الفتى. ويبدأ الفتى يقول جملة، ولكنه سرعان ما أمسك عن إتمامها، ورفع منكبيه، وعدّل بندقيته، وغادر البستان سائراً بخطوات سريعة.

32

توقف أولنين مرّة أو مرّتين مصيخاً بسمعه إلى ضحكات ماريانا وأوستينكا اللتين انضمت إحداهما إلى الأخرى وأخذتا تصيحان ببعض الكلام.

وقضى المساء كلّه يبحث عن صيد في الغابة، ثم عاد عند الغسق من دون أن يصطاد شيئاً. وفيما هو يجتاز فناء الدار لمح من خلال الباب المشقوق قميصاً أزرق. فنادى فانيا بصوتٍ عال لينبِّه إلى حضوره. ثم جلس على درج الباب في المكان المعهود. كان أصحاب الدار قد عادوا من البساتين. وها هم يخرجون من الكوخ ويدخلون البيت، لكنهم لم يدعونه إلى الدخول معهم. خرجت ماريانا إلى

الشارع مرتين. وخيِّل إلى أولنين في عتمة الغسق أنها التفتت إليه مرّة. فكان يتابع كلّ حركة من حركاتها بنهم. ولكنه لا يجرؤ أن يدنو منها. حتى إذا غابت في البيت، نزل عن الدرج وأخذ يذرع الفناء ذاهباً آيباً. وقضى الليل كلّه في الفناء لا ينام، مصيخاً بسمعه إلى أيسر ضجّة تخرج من بيت الليوتنان. وقد سمعهم منذ أوّل السهرة يتحدّثون ويتعشّون ويبسطون الألحفة ويضطجعون للنوم... وسمع ضحك ماريانا... وسمع انقطاع اللغط وتخييم الصمت. همس الليوتنان لامرأته ببضع كلمات. وتنفّس أحد تنفّساً عميقاً.

دخل أولنين بيته. كان فانيا نائماً بثيابه كلها. حسده أولنين. وعاد إلى الفناء يذرعه جيئةً وذهاباً وهو ما يزال ينتظر شيئاً ما. ولكن لم يخرج أحد، ولم يتحرّك أحد. ولا يُسمع شيء إلا أنفاس الأشخاص الثلاثة تتردّد منتظمة. كان أولنين يعرف تنفّس ماريانا فيصغي إليه. وكان يصغي أيضاً إلى دقّات قلبه هو.

القرية صامتة. طلع القمر في ساعة متأخّرة، وأخذ يصعد في السماء. فأصبح الناظر يستطيع أن يبصر المواشي التي كانت في الحظائر تشخر وترقد وتنهض متثاقلة بطيئة. «ماذا أنتظر»، كذلك تساءل الفتى حانقاً. ولكنه لا يستطيع أن ينتزع نفسه من ذلك الليل. فجأة سمع وقع خطى وسمع صرير خشب الأرض في بيت الليوتنان سمعاً واضحاً. فهرع نحو الباب، ولكنه عاد لا يسمع شيئاً غير أنفاس النائمين تتردّد مطّردة. مرةً أخرى انقلبت الجاموسة على جنبها في الحظيرة ثقيلةً وهي تزفر زفرة عميقة، ثم انتصبت واقفة على قوائمها وحرّكت ذيلها. وقرقع شيء على الغضار اليابس من أرض الحظيرة قرقعة منتظمة وعادت الجاموسة تستلقي في ضوء القمر الخافت... تساءل أولنين: «ماذا يجب أن أعمل؟». وهمّ أخيراً أن يعزم أمره على

الرقاد في فراشه لولا أن ترامت إلى سمعه مرّة أخرى ضجّة خفيفة وتراءت لفكره صورة ماريانا خارجة من البيت في هذه الليلة التي يملؤها الضباب وينيرها ضوء القمر. فهرع نحو الباب ثانيةً، وخيِّل إليه من جديد أنه يسمع وقع خطى.

فلما كان الفجر اقترب من النافذة فنقر على مصراعها، ورجع إلى الباب، فسمع زفرة وسمع خطو ماريانا، ولكن سماعه في هذه المرّة كان بيِّناً جليًّا. فطرق الباب. إنّ قدمي ماريانا العاريتين لا تكادان تهزّان خشب الأرض. وأخذ الخطو الخفيف يقترب من الباب. وتحرّك المزلاج، وانفتح الباب صارفاً. هبّت على أولنين رائحة عشب ويقطين، ثم ظهرت قامة ماريانا على العتبة.

لم يلمحها في ضوء القمر إلا لحظة، لأن ماريانا لم تلبث أن أغلقت الباب بعد أن دمدمت بضع كلمات مبهمة، وولّت هاربة تجري بخطوها الخفيف. قرع أولنين الباب برفق، ولكن لم يجبه أحد. فعاد إلى النافذة وأصاخ بسمعه.

وإنه لكذلك إذا بصوت خشن صارخ - هو صوت رجل - يدوِّي وراءه فيرتعش.

إن قوزاقياً قصير القامة، على رأسه طاقية بيضاء، كان آتياً إليه من الفناء وهو يقول:

- حلو! حلو! رأيت بعيني! حلو!

واقترب القوزاقي من أولنين. فعرفه أولنين. إنه نازار. ولزم أولنين الصمت، لأنه لم يعرف ما عساه يعمل ولا ما عساه يقول.

- جميل! سأمضي إلى رئيس «الستانتسا»، فأحدِّثه بكل شيء. وسأحكي لأبيها أيضاً. حلو! لا يكفيها. واحد!

واستطاع أولنين أخيراً أن يتكلّم فقال يسأله:

- ماذا تريد؟ ماذا تحتاج؟
- لا شيء. لكنّني سأحدّث رئيس «الستانتسا» بما رأيت.
كان نازار يتكلّم بصوت عالٍ، وكان واضحاً أنه يتعمّد ذلك. وأردف يقول:
- آ... إنّه لماكر، هذا اليونكر!
كان أولنين شاحباً، وكان يرتجف. وها هو ذا يقول:
- تعال! تعال إلى هنا!
وأمسك يد القوزاقي بقوّة، وجرّه نحو بيته قائلاً له:
- لم يحدث شيء. لم تسمح لي أن أدخل. ولا أنا أرضى أن أدخل أيضاً... إنها فتاة شريفة.
قال نازار:
- طيّب طيّب. ستُعرف جليّة الأمر.
- لم يحدث شيء. ومع ذلك سأعطيك. لا بأس. سأعطيك. انتظر.
صمت نازار. وأسرع أولنين يدخل بيته ثم يعود ومعه عشرة روبلات يقدّمها إلى القوزاقي قائلاً:
- لم يحدث شيء. لكنني أخطأت مع ذلك. خذ هذا لك. ولكن ناشدتك الله لا يعرفنْ أحد شيئاً. لم يحدث شيء البتّة!
فقال نازار وهو يضحك:
- طابت ليلتك.
وانصرف.
لقد جاء نازار في تلك الليلة إلى «الستانتسا» تنفيذاً لأوامر من لوكا. كان عليه أن يجد مكاناً مأموناً لإخفاء حصان مسروق. فلما مرّ في الشارع سمع وقع خطى، فكان ما كان.

وحين عاد في الغد إلى المفرزة حكى لرفيقه متباهياً كيف كان حاذقاً فاستطاع أن يحصل على عشرة روبلات.

رأى أولنين أصحاب الدار في الصباح، ولم يكونوا قد سمعوا شيئاً. ورأى ماريانا فلم يكلّمها، ولم تزد ماريانا على أن ابتسمت وهي تنظر إليه. وقضى ليلة أخرى ساهراً يجوب الفناء من غير طائل.

في الغد تعمّد أن يمضي إلى الصيد، حتى إذا كان المساء ذهب إلى بلتسكي هرباً من الوحدة. كان خائفاً من نفسه، وقد عاهد نفسه على أن لا يزور أصحاب الدار أبداً بعد الآن. في الليلة التالية أيقظه من نومه ضابط الصف، لأن السرية كانت ستتحرّك في تلك الساعة للمشاركة في حملة. سعد أولنين بهذا النبأ، وخطر بباله أن لا يرجع إلى هذه القرية بعد اليوم. دامت الحملة أربعة أيام. وأراد رئيسها أن يرى أولنين الذي يمتّ إليه بقرابة، وعرض عليه أن يبقى في الأركان. لكن أولنين رفض. إنه لا يستطيع أن يعيش بدون «الستانتسا». وطلب إذناً بالعودة. وقد كسب من هذه الحملة وساماً هو وسام صليب القدّيس جورج الذي يناله الجنود، والذي طالما تمنّى الحصول عليه في الماضي. ولكنه الآن لا يكترث بالوسام أي اكتراث، ولا يكترث حتى بترقيته إلى رتبة ضابط، وهي الترقية التي طال انتظاره لها.

رحل مع فانيا متقدّماً على السرية عدة ساعات. وقضى المساء كله على درج الباب ينظر إلى ماريانا. حتى إذا كان الليل طفق يذرع فناء الدار من جديد، بغير هدف وبغير تفكير.

33

استيقظ أولنين في الغد عند الضُحى، فكان الليوتنان وأسرته قد غادروا الدار. ولم يذهب إلى الصيد، وإنما تناول كتاباً وخرج إلى

درج الباب ثم دخل ثانية واستلقى على سريره. فقدّر فانيا أنه مريض. وفي نحو المساء نهض وقد لاح في وجهه العزم، وأخذ يكتب وظلّ يكتب إلى ساعة متأخّرة من الليل. كتب رسالة، ولكنه لم يبعثها، لأن أحداً ما كان ليستطيع أن يفهم ما كتب، ولأن أحداً من جهة أخرى ما كان في حاجة لأن يفهم ما كتب، إلا أولنين نفسه. وإليكم نص الرسالة:

«تصلني من روسيا رسائل تعبّر عن الشفقة عليّ والرثاء لحالي. إنهم يخافون عليّ أن أفنى مدفوناً في هذا الركن النائي من الأرض. يقولون عني: إنه سوف يختبل ويبتله، ويفقد الاهتمام بكلّ شيء، ويعكف على الشراب، و... من يدري؟ قد يتزوّج قوزاقية أيضاً! فليس عبثاً أن قال أرمولوف: من يخدم عشر سنين في القوقاز يصبح سكّيراً مدمناً أو يتزوّج امرأة فاجرة. شيء رهيب! ألا يكون أمراً فظيعاً حقاً أن أفنى في القوقاز بينما كان يمكنني أن أسعد السعادة الكبرى بتزوّج الكونيسة ب، وأن أصبح ضابطاً في حرس القيصر، أو أن أصبح مارشال نبالة؟ آه... ما أشدّ ما تظهرون لي أناساً أشراراً حُقَراء! إنكم لا تعرفون ما السعادة وما الحياة! لا بدّ للمرء أن يكون قد عرف بالمعاناة مرةً واحدة على الأقل ما هي الحياة في كل جمالها الطبيعي. يجب أن يكون قد رأى وأدرك ما أرى كلّ يوم أمامي: الثلوج الأبدية التي لا يمكن الوصول إليها، وجبالاً، وامرأة في كلّ جمالها المتكبّر البدائي لا بدّ أنها كانت المرأة الأولى حين خرجت من بين يدي خالقها. عندئذٍ نستطيع أن نرى من منا يفنى، من منّا يعيش في الحقّ ومن منّا يعيش في الباطل: أنا أم أنتم؟ ليتكم تعلمون كم تثيرون في نفسي أنتم وأوهامكم من عاطفة الإشفاق وشعور الاشمئزاز. حين أتصورني مستبدلاً ببيتي الصغير وغابتي وحبّي، تلك

الصالونات وأولئك النساء ذوات الشعر المدهون المزخرف بالأقراط، والشفاه المتغنّجة، والأعضاء الهزيلة الشوهاء التي يُحكمن سترها، ذلك الهذر في الصالونات، ذلك الهذر الذي يسمّى حديثاً وما هو من الحديث في شيء، فإنني أشعر بتقزّز لا يطاق! إنني أستعرض بخيالي تلك الوجوه البليدة، وتلك الفتيات الغنيات المعروضات للزواج، اللواتي يقول وجه الواحدة منهنّ: «لا تخشى شيئاً وتقدّم، رغم أن زواجك بي فيه خير لك»، وأستعرض بخيالي أولئك المرائين من روّاد المجتمع الراقي، وتلك القوّادات الخالعات العذار، وتلك النمائم التي لا تنقطع، وذلك النفاق، وتلك المواصفات الاجتماعية البليدة: فلهذا مصافحة باليد، وذاك تكفيه تحيّة بهزّ الرأس، والثالث له حقّ في بضع كلمات، وأستعرض بخيالي ذلك الضجر الأزلي الأبدي الذي يسري في الدم، وينتقل من جيلٍ إلى جيل (وذلك كلّه عن وعي، وعن اقتناع كامل بأنه ضرورة لا غنى عنها)، إنني أستعرض هذا كله بخيالي! ألا فافهموا هذا الأمر أو صدّقوا كلامي. يجب على المرء أن يرى وأن يدرك ما الحقيقة وما الجمال، فإذا كل ما تقولونه، وكلّ ما تفكّرون فيه، وكلّ ما تتمنّونه لأنفسكم وتتمنّونه لي، ينتثر غباراً! إن سعادة الإنسان هي أن يكون مع الطبيعة، وأن يراها، وأن يكلّمها. «قد يتزوّج- لا سمح الله- امرأة قوزاقية فإذا هو يغيب عن المجتمع إلى الأبد فيضيع». هذا ما أتخيّل أنهم يقولونه عني مشفقين إشفاقاً صادقاً. أما أنا فإنني لا أتمنى إلا شيئاً واحداً: هو أن أضيع ضياعاً تامّاً بالمعنى الذي تفهمونه من كلمة الضياع. إنني أتمنّى أن أتزوّج قوزاقية بسيطة، ولكنني لا أجرؤ أن أفعل، لأن ذلك يكون هو السعادة الكبرى ولست بها جديراً.

«انقضت شهور ثلاثة على اليوم الذي رأيت فيه ماريانا،

القوزاقية، لأوّل مرة. وكانت الأفكار وأخطاء الرأي الشائعة في المجتمع الذي خرجت منه ما تزال حيّة قويّة في نفسي. كنت لا أعتقد حينذاك بأنني يمكن أن أحبّ هذه المرأة. كنت أُعجب بها كإعجابي بجمال الجبال والسماء، ولم يكن في وسعي إلا أن أُعجب بها ذلك الإعجاب، لأنها جميلة كجمال الجبال والسماء، ثم أحسست أن تأمّل هذا الجمال قد غدا ضرورة لي، فتساءلت ألست أحبّها حقّاً. غير أنني لم أجد في نفسي شيئاً يشبه عاطفة الحبّ كما كنت أتصوّرها. كانت عاطفتي لا تشبه لا كآبة العزلة ولا رغبة الزواج، ولا الحبّ الأفلاطوني، لا ولا عشق الجسد كما سبق أن عانيته. وإنما كنت في حاجة إلى أن أراها، وأن أسمعها، وأن أعرف أنها قريبة، ولم أكن عندئذٍ سعيداً بقدر ما كنت مرتاحاً هادئاً. وبعد الأمسية التي قضيتها معها ولمستها فيها، أحسست أن بيني وبين هذه المرأة صلة لا يمكن أن تنهدم وإن لم تكن معترفاً بها، صلة كان يستحيل عليّ أن أصارحها وأكافحها. ومع ذلك ظللت أصارع وأكافح فكنت أقول لنفسي: «هل يُعقل أن أحبّ امرأة لن تفهم في يومٍ من الأيّام أعمق تطلّعات كياني؟ هل يُعقل أن أحبّ امرأةً لجمالها وحده، أن أحبّ امرأة تمثالاً؟». كنت ألقي على نفسي هذه الأسئلة، ولكنني كنت قد أحببتها على استمراري في رفض الاعتراف بعاطفتي.

«بعد تلك الأمسية التي كلّمتها فيها أوّل مرة تبدّلت صلاتنا. كانت قبل ذلك في نظري شيئاً من أشياء الطبيعة الخارجية غريباً لكنه رائع. أما بعد تلك الأمسية فقد أصبحت كائناً إنسانيّاً. صرت ألقاها وأكلّمها وأشارك أحياناً في أعمال أبيها وأقضي عندهم سهرات كاملة. فكانت في هذه الصلات اليومية تظلّ تبدو لي طاهرة عزيزة المنال فخمة إلى أبعد الحدود. كانت تجيب عن كلّ ما يقال لها بنفس الهدوء ونفس الرصانة ونفس المرح الذي يشتمل على عدم الاكتراث.

كانت تبدو في بعض الأحيان رقيقة. ولكن كلّ نظرة من نظراتها وكلّ حركة من حركاتها وكلّ كلمة من كلماتها كانت تعبِّر في أكثر الأحيان عن قلّة اكتراث، لا أقول إن فيها احتقاراً ولكن أقول إن فيها علوّاً وتفوّقاً وإنها ملأى فتنة وسحراً. كنت في كلّ يوم أصطنع ابتسامةً على شفتيَّ، وأحاول أن أمثِّل دوراً لا أدري ما هو، فأقاربها ممازحاً وقلبي يتمزّق هوى ورغبة. وكانت ترى ذلك كلّه مفتعلاً، ولكنها تظلّ مستقيمة صريحة بسيطة. غدوت لا أطيق هذا الوضع. كنت لا أريد أن أكذب عليها، وكنت أريد أن أقول لها كل ما أفكّر فيه وكلّ ما أشعر به. كان يحدث ذلك في البساتين وكنت أضطرب اضطراباً شديداً. كلّمتها عن حبّي بأقوالٍ يخزيني أن أتذكّرها لأنني ما كان ينبغي لي أن أبيح لنفسي مخاطبتها بهذه الأقوال، فهي أعلى مني كثيراً وهي تسمو فوق العاطفة التي أحاول التعبير عنها سموّاً لا نهاية له. وصمت. وأصبح وضعي منذ ذلك الحين لا يُطاق. لم أشأ أن أذلّ نفسي فاستأنف ثرثرتنا القديمة، وأحسست أنني لمّا أرتق بعد إلى مستوى الصلات البسيطة الصريحة التي أتوق إليها. فكنت أتساءل مكروباً يائساً: «ماذا يجب أن أعمل؟». وفي أحلام اليقظة التي كنت أستسلم لها كانت تصبح زوجتي تارة وخليلتي تارة أخرى، فكنت أدفع عن نفسي هذه الصور مرتاعاً. أتُجعل غانية؟ ذلك أمر فظيع، تلك جريمة قتل. أتُجعل سيدة، زوجة ديمتري آندرتش أولنين، على غرار تلك القوزاقية التي تزوّجها أحد ضبّاطنا؟ ذلك أسوأ. آه.. ليتني أستطيع أن أستحيل قوزاقياً، أن أصبح لوكا: أسرق خيلاً، وأسكر بالتشيخير، وأغنّي صائحاً بأعلى صوتي، وأقتل رجالاً من الآبريك، وأتسلّل إليها في الليل سكران لا أتساءل من أنا، ولا لماذا أتصرّف هذا التصرّف. إن الأمر يختلف عندئذ كل الاختلاف! يكون في وسعنا عندئذ أن نتفاهم، يكون في إمكاني أن أسعد. لقد حاولت أن أستسلم

لهذا الطراز من الحياة فأحسست بضعفي وقلّة بساطتي إحساساً أشدّ وأقوى. فلم أفلح في أن أنسى نفسي، أن أنسى ماضيَّ المعقّد الدميم المتنافر. وإن مستقبلي ليبدو لي أبعث على اليأس أيضاً. إنني في جميع الأيّام أرى هذه الجبال المكلّلة بالثلوج وهذه المرأة السعيدة الشمّاء. وليست لي أنا، هذه السعادة الوحيدة الممكنة في هذا العالم، ليست لي أنا هذه المرأة! وأفظع ما في وضعي وأحلى ما فيه هو إحساسي بأنني أفهمها، وأنها لن تفهمني في يوم من الأيّام. لن تفهمني، ليس لأنها دوني. بالعكس. وإنما يجب أن لا تفهمني. هي سعيدة. وهي- كالطبيعة- متساوية وادعة غارقة في نفسها. أما أنا فإنسان ضعيف مفكّك، لا أريد أن تفهم تشوّهي وتباريحي.

«سهرت ليالي كاملة، بقيت تحت نوافذها وأنا لا أعرف لماذا أفعل ما أفعل، ولا أدرك ماذا يجري في نفسي. في اليوم الثامن عشر من الشهر مضت سريّتنا تشارك في حملة فقضيت ثلاثة أيام بعيداً عن «الستانتسا». كنت حزيناً، وكنت لا أكترث بشيء. فالأغاني واللعب بالورق وجلسات السكر والأحاديث عن المكافآت، ذلك كلّه كان أبغض إلى نفسي من أيّ وقت مضى. وقد رجعت اليوم. ورأيتها. ورأيت من على درج الباب مُسكني والعمّ ياروشكا والجبال المكلّلة بالثلوج، فاجتاحني شعور بالفرح من الجدّة ومن القوّة بحيث فهمت كل شيء. فهمت أنني أحبّ هذه المرأة حبّاً حقيقيّاً. أحبّ لأوّل مرّة، الحبَّ الوحيد في حياتي.

«إنني أعرف ما يحدث في نفسي. لست أخشى أن تخفض هذه العاطفة قيمتي، لست أخجل من حبّي، بل أنا به فخور. ليس ذنبي أنني أحبّها. لقد حدث هذا برغم إرادتي. لقد حاولت أن أتحاشى حبّي بالتضحية بنفسي، تخيّلت أنني سأجد سعادتي في حبّ لوكا القوزاقي لماريانا، ولكن هذا زاد أوار حبّي وغيرتي. ليس حبّي هو

ذلك الحبّ المثالي الذي يعتبر حبّاً سامياً والذي شعرت به من قبل، وليس هو تلك الاندفاعة التي يحلو للمرء فيها أن يتأمّل حبّه، ويحسّ فيها أنه ينبوع عاطفته، ويفعل فيها كلّ شيء من تلقاء نفسه. هذا كلّه قد شعرت به أيضاً. وليس حبّي كذلك شهوة اللّذة. وإنما هو شيء آخر. يجوز أنني أحبّ فيها الطبيعة نفسها، يجوز أنّني أحبّ فيها تجسّد كلّ ما في الطبيعة من جمال. ولكن إرادتي ممحوّة. إن قوّةً مجهولة من قوى العناصر الأولى هي التي تحبّها من خلال ذاتي، إنّ كل الكون الذي خلقه الله هو الذي يحبّها عن طريقي. إن الطبيعة كلّها هي التي تفرض حبّها على نفسي. فأنا لا أحبّها بعقلي، ولا بخيالي، بل بكلّ كياني. وأنا إذ أحبّها أشعر أنني جزء لا يتجزّأ من كلّ الكون السعيد الذي براه الله. لقد تكلّمت من قبل عن اقتناعات جديدة استمددتها من حياة العزلة. ولا يستطيع أحد أن يعرف مدى ما عانيت من صعاب في تكوينها، ومدى ما شعرت به من فرح حين وعيتها واكتشفت الطريق الذي تفتحه لي ولم يكن شيء أعزّ على نفسي من تلك الاقتناعات... ثم جاء الحبّ، فإذا هي تذهب بدداً، وإذا أنا لا أشعر من ذلك بأي أسف. حتى أنني أستغرب كيف أمكن أن أتعلّق بحالة نفسية تبلغ ذلك المبلغ من التفاهة والبرودة وخضوع الذهن. جاء الجمال، فإذا كلّ ذلك العمل النفسي والكدّ العقليّ ينهار تراباً. لست آسفاً على زواله! التضحية؟- سخف! غباء! وهي أيضاً غرور وصلف، مأوى نعتصم به من الشقاء الذي نستحقّه ودواء نجرعه لنشفى من الحسد الذي تثيره في أنفسنا سعادة الآخرين. أحيا في سبيل غيري! أفعل الخير! علام هذا بينما لا يتملّكني إلا حبّ نفسي، ولا تسيطر عليّ إلا رغبة واحدة، أن أحبّها هي، وأن أحيا حياتي معها؟ الآن أتمنى السعادة لنفسي، لا للآخرين ولا للوكا. أنا الآن لا

أحبّ هؤلاء «الآخرين». في الماضي كان يمكن أن أقول إنّ هذا شرّ، وكان يمكن أن أرهق نفسي بأسئلة ألقيها قائلاً: ما الذي سيقع لها؟ ما الذي سيحدث لي؟ ما الذي سيصير إليه لوكا؟ أما الآن فهذا كلّه لا يعنيني. أنا لا توجّهني الآن إرادتي، وإنما يوجّهني شيء أقوى مني. صحيح أنّني أتعذّب. ولكنني كنت من قبل ميتاً. والآن إنما أصبحت أحيا. سأذهب اليوم إليهم. فأقول لها كل شيء».

34

بعد أن فرغ أولنين من كتابة هذه الرسالة في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، ذهب إلى جيرانه أصحاب الدار. كانت الأم جالسة على الدكّة وراء المدفأة تغزل حريراً. وكانت ماريانا تخيط شيئاً بقرب الشمعة، حاسرة الرأس. فلما أبصرت أولنين انتفضت وتناولت خمارها ودَنَت من المدفأة.

قالت لها أمها:

- ابقي معنا قليلاً يا ماريانا.

فأجابت البنت:

- لا، إنني حاسرة الرأس.

وصعدت إلى المدفأة. فكان أولنين لا يرى إلا ركبتها وإحدى ساقيها الرشيقتين.

قدَّم أولنين للعجوز شاياً، وقدَّمت له العجوز في مقابل ذلك لبناً رائباً أمرت مريانا بأن تجيء به. ولكن ماريانا ما إن وضعت الطبق على المائدة حتى لاذت مرّة أخرى بالمدفأة، فلم يشعر أولنين إلا ببريق نظرتها.

تحدّث أولنين والعجوز في شؤون المنزل. وقد اجتاحت أوليتا عاصفة من كرم الضيافة، فإذا هي تحمل إليه عنباً منقوعاً، وفطيرة

بالزبيب، وخمرة من أطيب خمرها. كانت تضيف أولنين كريمة ذلك الكرم الشعبي البسيط الخشن الفخور الذي لا يراه المرء إلا لدى أولئك الذين يكسبون خبزهم بعرق جبينهم. إن هذه المرأة العجوز التي شدهت فظاظتها أولنين أوّل مرّة تؤثر في نفسه أحياناً كثيرة، بما تظهره لابنتها من عاطفة وحنان.

قالت:

- إنه لإثم أن نشكو! ليس يعوزنا شيء والحمد لله! عصرنا قدراً كافياً من العنب للتشيخير، ونقعنا قدراً، فسنبيع ثلاثة براميل ويبقى لنا ما نشربه. لا تسافر مرة أخرى. سوف نتسلّى كثيراً في العرس سترى.

شعر أولنين بالدم يصعد إلى وجهه، وأحسّ بقلبه يخفق خفقاناً مضطرباً أليماً، وسألها:

- متى العرس؟

تحرك شيء على المدفأة، وسُمعت قزقزة بذور دوار الشمس.

أجابت العجوز ببساطة وهدوء كأنّ أولنين لم يوجد في يومٍ من الأيام:

- يجب أن يكون العرس في الأسبوع القادم. لقد أعددت كل شيء. أدّخرت لماريانا كل شيء. سنزوِّدها لزواجها بأحسن ما تُزوَّد به عروس. غير أن هناك شيئاً لا يعجبني. إن صاحبنا لوكا يسرف قليلاً في اللهو. إنه يبالغ. ويرتكب حماقات. ولقد وصل قوزاقي من المفرزة منذ أيام فروى أن لوكا ذهب إلى النوجاي.

قال أولنين:

- نرجو أن لا يقع في الفخ!

- هذا ما قلته له: «دعك من الحماقات يا لوكا. صحيح أنَّ كلّ

شاب لا بدَّ له أن يتبجّح. ولكنّ لكلِّ شيءٍ وقته. لقد سرقتُ حصاناً، وقتلتُ رجلاً من الآبريك، وأنت فتًى جسور جَلِف. ولكنّ عليك الآن أن تلزم الهدوء. وإلا فقد تسوء الحال».

- نعم، رأيته مرّة أو مرّتين أثناء حملتنا. إنّه لا يكفّ عن اللهو. وقد باع حصاناً أيضاً.

قال أولنين ذلك وهو يلقي نظرة صوب المدفأة. فرأى العينين الواسعتين تحدجانه بقسوةٍ وعداوةٍ. فخجل مما قاله. وقالت ماريانا فجأة:

- إنّه لا يؤذي أحداً. وبماله إنما يلهو.

وبسطت ساقيها، وقفزت عن المدفأة وخرجت وهي تصفق الباب صفقاً شديداً.

تابعها أولنين ببصره إلى أن غادرت الغرفة، ثم أخذ يحدّق إلى الباب منتظراً وقد أصبح لا يفهم شيئاً مما تحدّثه به العجوز. وبعد بضع دقائق دخل زوار جُدُد: شيخ هو أبو أوليتا، والعم ياروشكا، ووراءهما ماريانا وأوستينكا.

صاحت أوستينكا تقول:

- يوم سعيد!

ثم أضافت تخاطب أولنين:

- أما تزال تقصف؟

فأجابها بقوله:

- فعلاً!

وبدون أن يعرف لماذا، شعر بخزيٍ وحرجٍ.

أراد أن ينصرف، لكنه لم يقوَ على ذلك. وأسعفه أبو أوليتا إذ طلب شراباً فشربا معاً، ثم شرب مع ياروشكا، ثم مع قوزاقي آخر.

كان أولنين يزداد انقباض صدره كلما شرب المزيد. ولكن الشيوخ انطلقوا انطلاقاً صاخباً. فكانت الفتاتان تتهامسان جالستين على المدفأة، وتنظران إلى الشاربين. وظلّ الشاربون يشربون حتى المساء، وكان أولنين صامتاً وكان أكثرهم إقبالاً على الشراب. وكان القوزاق يصرخون. وكانت أوليتا تحاول أن تطردهم، وترفض أن تعطيهم مزيداً من التشيخير. والبنتان تتهكّمان على العم يارشوكا. حتى إذا كانت الساعة العاشرة خرج الجميع إلى درج الباب. وأحبّ الشيخان أن يكملا السهرة في بيت أولنين. وعادت أوستينكا إلى منزلها راكضة.

قاد ياروشكا القوزاقي الشيخ إلى فانيا. ومضت العجوز إلى الكوخ ترتّبه. فبقيت ماريانا وحيدة. شعر أولنين بنشاط وراحة كأنه استيقظ منذ لحظة، ووعى على كل شيء. فبعد أن دخل الشيخين إلى مسكنه، قفل راجعاً إلى بيت الليوتنان. كانت ماريانا تتهيأ للنوم. فاقترب منها وأراد أن يقول لها شيئاً، لكن صوته اختنق. جلست ماريانا على السرير جاعلة ساقيها تحتها، وتقهقرت عن الشاب ما وسعها أن تتقهقر، وحدجته صامتة بنظرة متوحشة مرتاعة. كان واضحاً أنها خائفة منه. وقد شعر أولنين بذلك، فأحسَّ بخجلٍ من نفسه وبشفقةٍ عليها في آن واحد. ولكنّه أحسَّ في الوقت ذاته بزهوٍ لذيذٍ من أنه يثير في نفسها هذا الخوف على الأقل.

قال:

- ماريانا! ألن تأخذك بي شفقة أبداً؟ لا يمكنني أن أصف مدى ما أحمله لك من حبّ!

فتقهقرت مزيداً من التقهقر. وقالت له:

- هي الخمرة صعدت إلى رأسك. لا، لن تنال شيئاً!

- ليست هي الخمرة. لا تتزوّجي لوكا. سأتزوّجك أنا...

في اللحظة التي كان ينطق فيها بهذه الكلمات تساءل: «ما هذا الذي أقوله؟ هل أستطيع أن أقوله في الغد أيضاً؟». فأجابه صوت في داخله يقول: «طبعاً، حتماً، وسأكرِّره الآن أيضاً!».

سألته:

- تتزوّجني؟

ونظرت إليه برصانة، وبدا أن خوفها قد زال. قال:

- ماريانا! سأفقد عقلي، سأُجن! أصبحت لا أملك نفسي. كلّ ما تريدينه سأفعله!

وانطلقت من لسانه، برغم إرادته تقريباً، كلّ كلمات الحب الجيّاشة المجنونة!

فقاطعته ماريانا وهي تبادر فتمسك يده التي مدّها إليه:

- ما هذا الذي تقول؟ هل يتزوّج السادة بنات قوزاقيات؟ اذهب عني!

ولكنها لم تنبذ يده، وإنما ضغطتها ضغطاً شديداً بأصابعها الخشنة القوية.

- هل تتزوّجينني؟... كلّ ما تريدين...

قالت ضاحكة:

- ولوكا؟ ماذا نصنع به؟

سحب أولنين يده التي كانت ماريانا ما تزال قابضة عليها، فطوّق بها جسمها الفتي، ولكن الفتاة وثبت كالظبية، فإذا هي واقفة على قدميها الحافيتين، فإذا هي تهرب خارجةً إلى درج الباب في طرفة عين.

ثاب إلى أولنين رشده، وارتاع من سلوكه.

وقارن بينه وبينها، فرأى مرّة أخرى أنه دنيء وحقير إلى أبعد

حدود الدناءة والحقارة. ولكنّه لم يأسف دقيقة واحدة على أنه اعترف لها بحبّه. ورجع إلى بيته، وبدون أن يلقي نظرة على الشيخين اللذين كانا يشربان، رقد في سريره، ونام نوماً عميقاً لم ينم نوماً مثله منذ فترة طويلة.

35

كان الغد يومَ عيد. ارتدى سكّان القرية في المساء أجمل ثيابهم التي أخذت تتلألأ تحت أشعة الشمس الغاربة، وخرجوا إلى الشوارع لقد صنعوا خمراً أكثر مما يصنعون في العادة. انتهت الأعمال الآن. وبعد شهر يمضي القوزاق إلى القتال. وقد بدأ عدد من الأسر يستعدون للاحتفال بأعراس.

تجمهر الناس في الساحة أمام منزل رئيس «الستانتسا» وأمام الدكانين اللتين تبيع إحداهما حلوى وتبيع الأخرى مناديل ملوّنة وأقمشة قطنية. وعلى السهلة بقرب منزل الرئيس تجمّع الشيوخ جالسين أو واقفين، لابسين قفاطينهم السوداء أو الرمادية بدون أشرطة ولا زخارف. إنّهم يتحدّثون فيما بينهم بلهجة رصينة موزونة عن المحاصيل والأولاد وشؤون « الستانتسا» والزمان الماضي، ويلقون على الجيل الجديد نظرات تفيض بالأبهة وتعبّر عن قلّة الإكتراث. فإذا مرّت النساء أمامهم توقفن وحنين رؤوسهن محيّيات. أما الشباب فيبطؤون خطوهم مراعاةً واحتراماً، ويرفعون طاقياتهم عن رؤسهم ويحفظونها بأيديهم لحظة، فيسكت الشيوخ، ويتأمّلون المارّة، فبعضهم يتأمّلهم بقسوة، وبعضهم يتأمّلهم بعطف ومحبّةٍ، ويرفعون طاقياتهم ببطء ثم يردّونها.

لمّ تبدأ النساء حلقات رقصهنّ وغنائهنّ بعد. لقد لبسن ثيابهن الزاهية، وعصبن رؤوسهن بمناديلهن البيضاء، وتفرّقن جماعات

صغيرة تجلس على الأرض أو على الدكك أمام البيوت تحت أشعّة الشمس المائلة، وتأخذ تثرثر وتضحك. والأولاد يلعبون بالكرات، يقذفون الكرة في السماء الصافية إلى أعلى ما يستطيعون قذفها، ثم يركضون ليلتقطوها حين تنزل وهم يطلقون صيحات حادة. وفي الطرف الآخر من الساحة بدأ بعض المراهقين يدورون منذ الآن راقصين مغنّين بأصواتهم النحيلة الخجلى.

والقوزاق الشبّان الذين عادوا إلى «الستانتسا» بمناسبة العيد، يرتدون جلابيب جديدة، بيضاء أو حمراء، مزدانة بأشرطة، ويتجوّلون هنا وهناك مبتهجين، متماسكين بالأيدي اثنين اثنين، أو ثلاثة ثلاثة، منتقلين من جماعة من جماعات النساء إلى جماعة أخرى، متوقّفين لممازحتهنّ وإغاظتهنّ على سبيل الدعابة.

وصاحب الدكان الأرمني، الذي يرتدي جلباباً أزرق من الصوف الناعم مزداناً بأشرطة، يقف أمام باب دكّانه المفتوح الذي تُرى وراءه كدسات من مناديل ملونة مطوية طياً أنيقاً. إنه ينتظر المشترين بوقار البائع الشرقي شاعراً شعوراً قوياً بخطورة شأنه وعلوّ مقامه. وهذان رجلان من التشاشان لهما لحية حمراء قد جاءا من ضفّة تيريك الأخرى لحضور العيد، وجلسا القرفصاء حافيين بقرب منزل صديق. إنهما يدخنان الغليون بغير اكتراث، ويبصقان، ويتبادلان بلغتهما الحلقية كلمات مقتضبة من حينٍ إلى حينٍ وهما ينظران إلى الجمهور. وفي بعض الأحيان يمرّ جندي لابس بزّته الكابية، فيجتاز الساحة مسرعاً بين الجماعات المبرشقة. وهنا وهناك تُسمع منذ الآن أغنية مخمورة يصدح بها صوت قوزاقي ثمل. والدور مغلقة كلها، قد غُسلت درجات أبوابها منذ أمس، وغادرتها حتى العجائز. وفي الشوارع التي جفّ ترابها يتراكم تحت الأقدام قشر

بذور البطيخ والشمام. والهواء رطب ساكن. والسماء زرقاء شفافة. والجبال البيضاء، التي تُرى فيما وراء سطوح المنازل، تبدو قريبة كلّ القرب، وتتلوّن قليلاً تحت أشعة الشمس الغاربة. ومن ضفة نهر تيريك الأخرى يترامى إلى الأسماع بين حين وآخر صوت هدير المدفع بعيداً. أمّا من القرية فتتعالى ضجات العيد متنوعة فرحة.

كان أولنين قد ظلّ طوال الصباح يذرع الفناء آملاً أن يرى ماريانا. ولكن ماريانا كانت قد لبست ثيابها ومضت إلى الكنيسة للصلاة، حتى إذا رجعت من الكنيسة كانت تارة تجلس أمام الدار تقضم بذوراً في صحبة بنات أخريات، وتارةً تدخل البيت لحظةً مع صاحباتها وهي ترشق أولنين بنظرات عذبة فرحة. كان أولنين لا يجرؤ أن يكلِّمها بحضور أحد ممازحاً. فهو يريد أن يقول لها تتمة ما قاله لها بالأمس، وأن يحصل منها على جوابٍ شافٍ. فكان ينتظر أن تسنح له دقيقة كالتي سنحت ليلة البارحة، ولكن هذه الدقيقة لم تسنح. وفي أثناء ذلك كان يحسّ أنه أصبح لا يطيق البقاء في هذه الحالة من القلق وعدم الاستقرار وفقدان اليقين. خرجت ماريانا مرّة أخرى إلى الشارع تبعها بعد برهةٍ قصيرةٍ وهو لا يدري إلى أين يمضي. وتخطّى الركن الذي كانت تجلس فيه متألّقة بثوبها المصنوع من قماش الساتان الأزرق الفاتح، فسمع ضحك البنات ينطلق وراء ظهره، فانقبض صدره.

كان مسكن بلتسكي يقع على الساحة، فلما مرَّ أولنين أمامه سمع صوت الضابط يناديه قائلاً: «هلاً دخلت!». فدخل.

بعد أن ثرثرا قليلاً جلسا كلاهما إلى النافذة، وسرعان ما انضمّ إليهما ياروشكا الذي كان يرتدي جلباباً جديداً، فجلس بقربهما على أرض الغرفة.

قال بلتسكي وهو يبتسم ويشير بطرف سيجارته إلى جماعة مبرشقة:

- هذه هي الزمرة الارستقراطية. إن صاحبتي بينهن، فهل تريانها؟ ذات الثوب الأحمر. ثوب جديد.

ثم صاح يقول منادياً وهو يميل على النافذة:

- ألا تبدأن حلقات الرقص والغناء؟

وعاد يكلّم صاحبيه فقال:

- انتظرا قليلاً. متى كان الغسق خرجنا أيضاً. ثم ندعوهنّ جميعهنّ إلى منزل أوستينكا. يجب أن نقيم لهنّ حفلة رقص.

قال أولنين بصوتٍ جازم:

- سأصحبك إلى منزل أوستينكا. هل تجيء ماريانا؟

- تجيء. تعال!

كذلك أجاب بلتسكي بدون أقلّ دهشة. ثم أضاف وهو يشير إلى الجمهور الزاهر المتلألئ:

- شيء يخلب اللبّ حقاً!

فأمّن أولنين على كلامه فقال وهو يحاول أن يبدي عدم الاكتراث:

- يخلب اللبّ.

ثم استأنف فقال:

- إن ما يدهشني دائماً في مثل هذه الأعياد هو أن الناس يصبحون مرحين مسرورين فجأة لا لشيء إلا لأن هذا هو اليوم الخامس عشر من الشهر! فإذا كل شيء يتخذ هيئة العيد، الأعين والوجوه والأصوات والحركات والثياب والهواء والشمس! أما نحن فلم تبقَ لنا أعياد كهذه.

قال بلتسكي الذي لا يحبّ هذا النوع من التأمُّل والتفكير:

- نعم.

ثم أضاف يسأل ياروشكا:

- لماذا لا تشرب؟

فغمز ياروشكا مشيراً إلى بلتسكي قائلاً لأولنين: «صاحبك فخور!».

رفع بلتسكي كأسه قائلاً: «أعطاك الله» (هذه هي الجملة التي يقولها القوقازيون حين يقرعون الكؤوس بعضها ببعض).

وشرب. فأجابه ياروشكا مبتسماً بقوله: «عافاك الله»، وأفرغ كأسه. ثم استأنف كلامه فقال مخاطباً أولنين مقترباً من النافذة:

- تتكلّم عن الأعياد. أهذا احتفال بعيد؟ ليتك تعلم كيف كنا نحتفل بالعيد في زماننا!... كانت النساء تخرج لابساتٍ «سرفانات» تزينها أشرطة، واضعات على صدورهن صفَّين من النقود الذهبية. فإذا مررن سمعت خشخشة الأثواب «خش... خش...». كانت كلّ امرأة أشبه بأميرة. كن يخرجن قطيعاً كاملاً من النساء ويأخذن في الغناء، فتترجع أصواتهنّ في جميع القرى، ويبقين على هذه الحال طوال الليل، والقوزاق يدحرجون براميل الخمرة في أفنية الدور، ويجلسون حولها، ويظلّون يشربون إلى مطلع الصباح، أو يتماسكون بالأيدي ويجوبون «الستانتسا» سلسلة تجرف كلّ من يلقونه. ثم يدخلون إلى بيت هذا فإلى بيت ذاك، وقد يستمرون في الاحتفال بالعيد على هذا النحو ثلاثة أيام متصلة.

إنني ما زلت أذكر أبي. كان يرجع إلى الدار محمَّراً، منتفخ الوجه، بغير طاقية، لأنه نثر جميع أمتعته، فمتى وصل رقد، وكانت أمي تعرف ما هو في حاجة إليه فتحمل له الكافيار الطازج والتشيخير

ليستردَّ قوته، ثم تمضي باحثةً عن طاقيته في كل مكان. وينام هو نهارين وليلتين. أولئك كانوا رجالاً، أمَّا في هذا الزمان...

- والبنات تلبس «سرفانات»؟ وهل كنّ يلهون على حدة؟

- نعم، على حدة. ويقول القوزاق بعضهم لبعض: هلمّوا نكسر حلقات الرقص. ويصلون على صهوات جيادهم، وتحمل البنات عصياً. فإذا اخترق صفَّهن قوزاقي على ظهر حصانه الذي يعدو سريعاً، أخذن يضربن بعصيِّهن، يضربنه ويضربن الحصان. ولكنه يكسر الحلقة، ويقبض على تلك التي يحبها، ويخطفها وهو ينادي: «حبيبتي، روحي!». ما كان أروعهنّ من بنات أيضاً في ذلك الزمان! أميرات!...

36

من شارع جانبي خرج في تلك اللحظة فارسان أحدهما نازار والثاني لوكا. كان لوكا ملتفت الجذع قليلاً إلى جانب على صهوة جواده الكميت الكاباردي الذي يتقدّم بخطى خفيفة على الطريق اليابسة ويحرّك رأسه الجميل ذا العنق الملتمع تحريكاً موزوناً.

إنَّ البندقية المغمودة في قرابها غمداً محكماً، والمسدس المشدود إلى الظهر، والمعطف الملفوف وراء السرج، إنَّ ذلك كلّه يدلّ على أن لوكا ليس واصلاً من مكانٍ قريبٍ يخيِّم عليه الهدوء والسلام. وإنَّ وضعه الرشيق الطلق، والحركة المهملة التي ينزل بها على ردف الحصان ضربة خفيفة من سوطه، ولا سيما عينيه السوداوين اللامعتين اللتين يغضّنهما بعجبٍ وزهوٍ وهو ينظر في ما حوله، إن ذلك كله وسائر شخصه يفيض بما يفيض به من الشباب من قوّة وثقة بالنفس، حتى لكأنّ نظراته التي ينثرها يمنةً ويسرةً تقول: «هل رأيتم فتًى شجاعاً جسوراً؟». فما إن رأى الجمهور المحتشد في

الساحة هذا الحصان الجميل وعدته المزدانة بالفضة، وما إن رأوا هذه الأسلحة والقوزاقي الوسيم نفسه حتى خطف ذلك كله أبصارهم. وكان نازار، الهزيل القصير، لا يرتدي ثياباً أنيقة كثياب لوكا. فلما مرَّ لوكا أمام الشيوخ، توقف ورفع طاقيته البيضاء محيياً، كاشفاً عن رأس أسمر مقصوص الشعر. فقال يسأله شيخ قصير، نحيل، قاتم النظرة، مقطب الحاجبين:

- هيه! هل سرقت من النوجاي أحصنة كثيرة؟

فأجاب لوكا وهو يشيح عنه:

- أحْصِها يا جد، فيغنيك إحصاؤها عن السؤال!

فردَّ عليه العجوز قائلاً:

- ما عسى يكون عمل هذا الفتى التي تصطحبه أن لم يكن هو ذاك؟

قال لوكا بصوت خافت:

- يا للعجوز الشيطان! يعرف كل شيء!

وألمَّ بوجهه تعبير عن همٍّ وقلق. لكنه وقد أبصر جمهور الفتيات اتجه بحصانه إليهن، وصاح يقول بصوت قوي ترجّع بعيداً وهو يستوقف حصانه عندهن:

- طاب يومكنّ يا بنات! ما لي أرى الشيخوخة دبّت إليكنّ في غيبتي يا عفريتات؟

وانفجر ضاحكاً.

قالت البنات بأصوات فرحة:

- طاب يومك يا لوكا، طاب يومك! هل جئت بمال كثير؟ لا تنسى أن تشتري للبناتْ حلوى! هل إقامتك بيننا طويلة؟ لم نرك منذ أيام كثيرة!

فأجاب لوكا وهو يشهر سوطه ويدفع حصانه نحو البنات:

- جئنا نتسلى أنا ونازار ليلة واحدة.

صاحت أوستينكا تقول بصوتها الحاد وتلكز بكوعها صديقتها ماريانا:

- أن ماريانا قد نسيتك نسياناً تاماً!

وأخذت تضحك.

تراجعت ماريانا أمام الحصان الهاجم عليها، وردَّت رأسها إلى الوراء، ونظرت إلى القوزاقي بعينيها الواسعتين الساطعتين في هدوء. ثم قالت بخشونة:

- لم نرك منذ مدة طويلة. كفَّ عن هجومك علينا بحصانك.

وأشاحت بوجهها.

كان لوكا يبدو متهلّل الأسارير شديد المرح. وكان وجهه يشعّ جسارة وفرحاً. ولكن أقوال ماريانا الخشنة أدهشته دهشة واضحة. فها هوا يقطّب حاجبيه. ثم يقول لها فجأة كأنما يطرد من ذهنه الأفكار السيئة:

- ضعي قدمك في الركاب، فأمضي بك إلى الجبال يا روحي الحبيبة!

وأخذ يُرقِّص حصانه. ثم مال على ماريانا وأضاف يقول لها:

- سوف أُقبّلك، سوف أُقبّلك تقبيلاً يبلغ من القوة أن... آه!...

والتقى بصرهما، فاحمرت الفتاة فجأةً، وتقهقرت قائلة له:

- انتبه! كدت تدوس قدميَّ.

وخفضت رأسها، وتأمّلت ساقيه الرشيقتين اللتين يلفهما جوربان أزرقان نُقشت عليهما أسهم، ونظرت إلى قدميه اللتين تنتعلان حذاءين أحمرين مطرّزين بفضة.

التفت لوكا صوب أوستينكا. وجلست ماريانا إلى جانب امرأة تحمل على ذراعيها طفلاً. فمال الطفل على الفتاة وأمسك بيده الصغيرة السمينة عقد النقود الفضية الذي كان يزيّن صدرها. فاقتربت ماريانا من الصبي الصغير وهي تنظر إلى وجه لوكا نظرة مواربة، كان لوكا في تلك اللحظة يستل من جيب جلبابه صرةً صغيرة سوداء فيها حلوى وبذور دوار الشمس، ويمدُّ الصرة إلى أوستينكا قائلاً لها:

- خذي هذه للبنات.

فلما رأى ماريانا وهي تنظر إليه ابتسم. ولكن وجه الفتاة عاد يعبّر عن شيء من القلق، وغشي عينيها الرائعتين نوع من ضباب. فإذا هي تخفض الخمار الذي كان يغطي فمها، وتميل على الصبي فتأخذ تقبّله تقبيلاً نهماً. أسند الصبي يديه الصغيريتين إلى صدر ماريانا الناهد، وصرخ كاشفاً عن فم لا أسنان له، فقالت أمّ الصبي وهي تنتزع ابنها من ماريانا، وتحلُّ فتحة قميصها لترضعه:

- إنك توشكين أن تخنقيه بهذا التقبيل الشديد. قبّلي القوزاقي فذلك خير لك!

قال لوكا وهو يقرع سوطه:

- إني ذاهب بالحصان إلى الدار، ثم نعود أنا ونازار فنتسلّى الليل كله.

دخل القوزاقيان شارعاً جانبياً، ثم وقفا أمام منزلين متجاورين، فقال لوكا لرفيقه:

- ها قد وصلنا. لا تتأخر. عذْ بسرعة!

ونزل عن حصانه أمام المنزل المجاور، ثم دخل به إلى فناء داره محاذراً. كانت الخرساء تهرع عندئذٍ إلى الشارع لاستلام زمام الحصان مرتدية أجمل ما عندها من ثياب، فقال لها أخوها:

- يومك سعيد يا ستبكا!

وأخذ يشرح لها بالاشارات أن عليها أن تقدم للحصان علفاً، ولكن يجب أن لا تنزع عنه السرج.

فأخذت الخرساء تعول وتصفق شفتيها وهي تومئ إلى الحصان، ثم راحت تقبّل منخريه تعبيراً عن أنها تحب الحصان، وأن الحصان جميل.

قال لوكا وهو يصعد درج الباب ممسكاً بندقيته بيده:

- يومك سعيد يا أمي! ألم تخرجي بعد؟

ففتحت الأم الباب أمام ابنها، وهتفت تقول له:

- ما كنت أتوقع أن تجيء. كان كيركا يقول إنك لن تأتي!

- أعطنا تشيخيراً يا أمي! سنمضي أنا ونازار إلى العيد نحتفل مع المحتفلين.

قالت الأم:

- حالاً يا لوكا، حالاً. إنَّ نساءنا تبتهج اليوم. وأظن أن الخرساء خرجت أيضاً.

وأخذت مفاتيحها وأسرعت إلى الكوخ.

وعاد نازار ينضم إلى لوكا بعد أن آوى حصانه، وأودع بندقيته.

37

قال لوكا وهو يتناول من أمه جرة ملأى ويحملها إلى شفتيه محاذراً:

- صحّتك!

وهتف نازار يقول متعجّباً:

- أمر غريب! ما هذا الكلام الذي قاله الشيخ حين سأل: هل سرقتَ أحصنة كثيرة؟ أهو عالم بالأمر إذن؟

فأجابه لوكا مقتضباً:

- شيخ عفريت!

ثم أضاف قائلاً وهو يهزّ رأسه:

- ولكنّ ما قيمة هذا كلّه؟ إن الخيل قد قطعت النهر، فليبحثوا عنها ما شاءوا أن يبحثوا!

- هذا سيء مع ذلك!

- لماذا يكون سيئاً؟ أحمل إليه تشيخيراً في الغد. ذلك ما يُعمل فيجري كلّ شيء مجرى حسناً. أما الآن فلنقصف! اشرب!

كذلك صاح لوكا بنبرة كنبرة العم ياروشكا. واستطرد يقول:

- سوف نلهو ونتسلّى. هلمَّ بنا إلى حشد البنات! هيا ائتنا بعسل! بل انتظر. سوف أبعث الخرساء تأتينا بالعسل. لنقصفنَّ حتى مطلع الفجر!

ابتسم نازار. وقال يسأل:

- أتبقى هنا مدة طويلة؟

- دعني أتسلّى! أسرع فاشترِ لنا فودكا! إليك المال!

ركض نازار إلى عند يامكا طيّعاً على عادته.

وكطائرين من طيور الصيد كان ياروشكا ويارجوشوف قد اكتشفا بما يملكان من حاسة الشم، الأمكنة التي يسقي فيها الناس خمراً، فها هما يدخلان الآن على لوكا ثملين، واحداً بعد آخر.

صاح لوكا ينادي أمه:

- هاتي لنا نصف سطل أيضاً.

وهتف ياروشكا يقول:

- هيّا حدّث أيها الوغد. من أين سرقتها؟ يا للفتى الشجاع! أحبّك كثيراً!

فكرر لوكا قول ياروشكا ضاحكاً:

- «أحبّك كثيراً». ولكنك مع ذلك توزّع على البنات حلوى من اليونكر! يا للشيخ العفريت!

- ليس هذا صحيحاً! هذا كذب!

وانطلق الشيخ يضحك، ثم استطرد يقول:

- هيه لوكا! ما أكثر ما توسل إليّ ضارعاً، ذلك الشيطان! كان يقول لي مستحثاً: هيًا دبّر هذا الأمر، وينفحني غدارة. لا، لا، ليباركه الله! كان يمكن أن أدبِّر الأمر، ولكنني أشفقت عليك. حدِّثنا أين كنت.

وأخذ الشيخ يتكلّم باللغة التترية.

فأجابه لوكا بثقةٍ وحماسة.

فكان يارجوشوف، الذي لا يحسن اللغة التترية، يدسّ جملة باللغة الروسية من حين إلى حين.

- أقول لك إنه سرق خيلاً. أنا أعلم هذا علم اليقين.

وبدأ لوكا يروي ما حدث له فقال:

- ذهبنا مع قيرايكا (كان إطلاقه اسم قيرايكا على قيراي خان يرفع من قدره ومهابته) ذهبنا إلى الضفة الأخرى من النهر. كان قيرايكا يتباهى بأنه يعرف السهب كله، فوعد بأن يقودنا إلى المكان المنشود رأساً. ذهبنا وكان الليل حالكاً. ولكن ها هوذا قيرايكا يرتبك ويحتار. فيجري هنا وهناك، من دون أن يهتدي إلى المكان. لم يقع على «آوول». لا بدَّ أننا انحرفنا في سيرنا يمنةً. وظللنا نضرب في الأرض على غير هدى إلى منتصف اليل. ثم إذا بالكلاب تنبح من حسن الحظ.

قال العم ياروشكا:

- أغبياء. كان هذا يحدث لنا في الماضي. كنا نتنبه في السهب كما تهتم. فكنت أصعد عندئذٍ إلى أكمه، وآخذ في عواء كعواء الذئاب. هكذا!

قال ياروشكا ذلك وكمَّ بيديه فمه، وأطلق عواءً على وتيرة واحدة، فكأن المرء يسمع عواء رتلٍ من الذئاب. واستطرد يقول:

- فكانت الكلاب تنبح فوراً. طيب. أكمل حديثك. هل وقعتم أخيراً على «الآوول»؟

- بسرعة. وكادت نساء النوجاي أن تقبض على نازار. أليس هذا صحيحاً يا نازار؟؟

فأجاب نازار الذي وصل في تلك اللحظة، أجاب يقول مقهوراً:

- صحيح!

وفررنا، وتاه فيرايكاً مرةً أخرى، وكاد يصل بنا إلى الصخور رأساً. كان يدَّعي أننا نقترب من نهر تيريك، ولكن الواقع أننا كنا نسير في عكس الاتجاه.

قال ياروشكا:

- كان عليك أن تستهدي بالنجوم.

وانبرى يارجوشوف يقول مؤيِّداً:

- طبعاً. كان عليك أن تستهدي بالنجوم.

- الكلام سهل! كان الظلام دامساً، وشعرت بإرهاق شديد.

أخيراً أمسكت فرساً أصيلة، فأسرجتها، وأرخيت حصاني. قلت لنفسي: سوف يخرجنا هو من هذا التيه. فهل تصدق ما حدث؟ لقد أخذ يصهل ويتشمّم الأرض ويجري جرياً سريعاً، فما زال كذلك حتى وصل بنا إلى «الستانتسا» من دون أن ينحرف يمنةً ولا يسرةً.

الحمد لله. وكان النهار قد طلع ولم يتسع وقتنا لأكثر من إخفاء الأفراس في الغابة. ورجعت إلى الضفة الأخرى في وضح النهار. ثم بعت الأفراس جميعاً.

هزَّ يارجوشوف رأسه، وقال:

- هذا عمل ممتاز! كم قبضت؟

فأجابه لوكا وهو يخبط جيبه:

- المال كله هنا.

في تلك اللحظة دخلت العجوز. فأمسك لوكا عن إتمام جملته. وصرخ يقول:

- إشربْ!

وأراد ياروشكا أن يحكي قصته فقال:

- في ذات يوم، ذهبنا مع قيرتشيك في ساعة متأخرة...

فقاطعه لوكا قائلاً:

- لن تنتهي أبداً إذا كان علينا أن نصغي إليك... أنا ذاهب.

وأفرغ طاسه، وشدَّ حزامه الجلدي، ومضى.

38

حين خرج لوكا إلى الشارع كان الظلام قد خيَّم. هي ليلة من ليالي الخريف، طرية ساكنة. القمر الذهبي ينبجس من وراء أشجار الصفصاف السوداء التي تسمو باسقةً في جهة من الساحة. الدخان يتعالى من مدافئ الأكواخ فيختلط بالضباب ويبقى معلّقاً فوق القرية. وثمة نوافذ مضاءة متناثرة هنا وهناك. والهواء مشبع برائحة الجلة وسلافة العنب والضباب. والضحكات والأغاني والأحاديث المرحة وطقطقة البذور تترجع واضحة أكثر مما تترجع هذا الترجع الواضح

في النهار. والمناديل البيض والطاقيات تبقّع الغسق عند الأسيجة والمنازل.

في الساحة، أمام الباب المفتوح من الدكان المضاءة، يرى الناظر جماعات القوزاق والبنات، تبرز على صفحة الظلام بياضاً وسواداً. وهؤلاء بنات قد تماسكن بالأيدي، وطَفِقن يدُرنَ على أرض الساحة الغبراء راقصاتٍ، وإذ بفتاةٍ قصيرةٍ نحيلة، هي أقلّهن جمالاً، تشرع في الغناء:

من أعماق الغابة المظلمة

ياليل! ياليل!

من أعماق الغابة،

من الغابة المخضوضرة

جاء شابان جميلان،

شابان جميلان يبغيان الزواج

وصلا، ووقفا،

وقفا وتشاجرا.

فجاءت إليهما فتاة جميلة.

جاءت إليهما وقالت لهما:

سأكون لأحدكما.

وكانت من نصيب الشاب الأشقر.

أمسك يدها اليمنى

وطاف بها على أصحابه

طاف بها وتباهى:

أليست جميلة، ربّة بيتي؟

النساء العجائز تصغي إلى الغناء. الاولاد يركضون في الظلام ويطارد بعضهم بعضاً. القوزاق يحدقون بالبنات وقد يقبضون على واحدة منهن حين تمر، أو يكسرون حلقة الرقص ويدخلون فيها. وبلتسكي وأولنين واقفان في ظلّ باب الدكان بجلباب وطاقية، مسترسلين في الحديث. إنَّ طريقتهما في التخاطب بصوتٍ خافت لكنه متميّز، ليست هي طريقة أهل القرية. وهما يشعران بأنهما يلفتان النظر ويثيران الاهتمام والفضول. وفي إحدى الحلقات، غير بعيدٍ منهما، ترقص أوستينكا بثوبها الأحمر، وماريانا ذات الكبرياء بثوبها الأزرق.

إن أولنين وبلتسكي يتساءلان كيف يمكنهما أن يُخرجا أوستينكا وماريانا من حلقة الرقص. كان بلتسكي يظن أن أولنين لا يخطر بباله إلا أن يلهو ويتسلّى، على حين أن أولنين كان ينتظر القرار الذي يُعيِّن مصيره. إنه يريد أن يرى ماريانا على انفرادٍ مهما يكن من أمر، في هذا المساء بالذات، وأن يقول لها كل شيء، وأن يسألها هل تستطيع وهل تريد أن تصبح زوجته؟ وهو لا يزال يأمل أن يفلح في الإعراب لها عمّا يضطرم في قلبه، ولا يزال يأمل أن تستطيع فهمه، رغم أنه هو نفسه يجيب عن هذا السؤال بالنفي منذ مدة طويلة.

قال له بلتسكي:

- لماذا لم تحدّثني بهذا الأمر قبل الآن؟ لو حدّثتني به لكان يمكنني أن أرتّب كل شيء بواسطة أوستينكا. إنك لغريب الأطوار حقاً!

- ما حيلتي! في يوم من الأيام، قريباً، سأحدّثك بكل شيء. أمّا الآن فأناشدك الله أن تدبّر أمر مجيئها إلى عند أوستينكا.

- حاضر! لن يكون هذا صعباً. هيه ماريانا! هل تكونين أنت أيضاً من نصيب الشاب الأشقر، هه؟ لا من نصيب لوكا؟

كذلك قال بلتسكي مخاطباً ماريانا في أول الأمر حفاظاً على المظاهر. ثم دنا من اوستينكا من دون أن ينتظر جواب ماريانا، وسألها ان تصطحب ماريانا. وما كاد يفرغ من كلامه حتى كانت الفتاة النحيلة قد أخذت تصدح بأغنية أخرى، واستأنفت البنات دورانهنّ راقصات:

وراء البتسان

كان يتجوّل فتًى جميل،

من أوّل الشارع إلى آخره.

حين مرَّ أول مرة

أشار بيده اليمنى.

وحين مرَّ مرة ثانية

رفع طاقيته.

وفي المرة الثالثة توقّف.

توقف وقال:

«أريد أن آتي إليك

يا حبيبتي!

ولكن لماذا لا تخرجين،

لا تخرجين إلى البستان؟

أتراك تتكبرين عليَّ؟

فانتظري إذن يا حبيبتي!

لسوف أجعلك تذرفين دموعاً

حين أتزوّجك!».

كنت أعرف بماذا يجب أن أجيبه،
ولكنني لم أجرؤ أن أكلمه.
وخرجت إلى البستان،
وحييت صديقي.
«سلام عليك، هذا انا، أحيّيك
وأهدي إليك خماراً جميلاً،
فاقبليه مني يا حبيبتي،
خذيه بيديك البيضاوين،
خذيه، وأحبيني.
لجميلتي أريد أن أهدي هدية.
ماذا أهدي لها؟
سأعطيها خماراً كبيراً.
وفي مقابل هذا الخمار، هذه الهدية،
سأطلب منها خمس قبلات!».

لوكا ونازار كسرا حلقة الرقص وانضما إلى البنات. وطفق لوكا يساعد جوقة الغناء بصوت حاد، وجعل نفسه في مركز الحلقة ملوّحاً بيديه. ثم قال:

- هيه! لتخرج إليَّ، تلك التي تريدني! فدفعت البنات ماريانا، ولكن ماريانا رفضت أن تخرج من الدائرة. ومن خلال الأغاني كانت تُسمع صيحات حادة وهمسات وقبلات وربتات.

مرَّ لوكا أمام أولنين، فهزّ له رأسه بتحية فيها مودّة وصداقة، وقال يسأله:

- ديمتري آندرتش! أنت أيضاً جئت ترى؟

فأجابه أولنين بلهجة جافة:

- نعم.

ومال بلتسكي على أذن أوستينكا حين مرّت أمامه، فهمس يقول لها بضع كلمات، وأرادت أن تجيبه، لكن الوقت لم يتسع، فلما مرّت أمامه من جديد قالت له:

- حسناً، سنجيء.

- وماريانا أيضاً؟

ومال أولنين على ماريانا يقول لها:

- هل تجيئين؟ أتوسّل إليك، تعالي ولو دقيقة واحدة! عندي كلام يجب أن أقوله لك.

- إذا جاءت الأخريات جئت!

فألحّ يسألها وهو يميل عليها مرة أخرى:

- وهل تجيبينني عن سؤالي؟ إنك مرحة هذا المساء!

كانت ماريانا قد ابتعدت، فتبعها وسألها من جديد:

- هل تجيبينني عن سؤالي؟

- أي سؤال؟

قال أولنين وهو يقرّب فمه من أذنها كثيراً:

- السؤال الذي ألقيته عليك أمس الأول: هل تقبلينني زوجاً؟

فظهر على وجه ماريانا تفكير. وأجابته قائلة:

- سأجيبك، سأجيبك بعد قليل.

وأحس الشاب بنظرتها المرحة تداعبه في الظلام.

ظلّ يتبعها، سعيداً بالقرب منها ويميل عليها. ولكن لوكا أمسكها بيده إمساكاً قوياً مع استمراره في الغناء، وشدّها إلى مركز

الدائرة. فلم يتسع وقت أولنين لأكثر من أن يقول لها: «أنتظرك عند أوستينكا.». وعاد إلى قرب بلتسكي. وانتهت الاغنية. فمسح لوكا شفتيه، وكذلك فعلت ماريانا، وقبّل كل منهما الآخر. قال لوكا: «لا بل أريد خمس قبلات!». ثم إذا بالصرخات والضحكات والفوضى تحلّ محل الأغاني الموزونة الموقّعة والحركات المرنة المنتظمة. وأخذ لوكا الذي كان يبدو شديد الثمل، يوزع على البنات حلوى. وقال باعتزاز مضحك مؤثر:

- إنني أعطي جميع البنات!

وأضاف يقول فجأة وهو ينظر إلى جهة أولنين نظرة شزراء:

-أما تلك التي تتسلى مع الجنود فليس عليها إلا ان تترك الحلقة.

وتزاحمت البنات متضاحكات تخطف الحلوى. وابتعد بلتسكي وأولنين.

وكأنما خجل لوكا قليلاً مما أباحه لنفسه من حرية، فنزع طاقيته، وجفّف جبينه بكمّه، واقترب من ماريانا وأوستينكا، وقال يسأل مردّداً كلمات الأغنية:

- أتتكبرين عليَّ؟

ثم استطرد يقول مخاطباً ماريانا:

- سأجعلك تذرفين دموعاً حين أتزوجك.

وعانق بذراعيه الفتاتين.

انتزعت أوستينكا نفسها من عناقه ورفعت ذراعها فهوت على ظهره بضربة بلغت من القوة أنها أوجعت يدها.

قال لوكا سائلاً:

- هل ترقصن أيضاً؟

فأجابته أوستينكا:

- اسأل الأخريات. أما أنا فعائدة إلى البيت. وتريد ماريانا أن تصحبني.

كان القوزاقي ما يزال مخاصراً ماريانا، فتنحى بها إلى ركن مظلم عند أحد المنازل. وقال لها:

- لا تذهبي معها. لنتسلَّ معاً آخر مرة. عودي إلى البيت. وسأجيء إليك.

- ما عسى أصنع في البيت؟ إنما وجدت الأعياد للتسلية. سأذهب إلى عند أوستينكا.

- سأتزوّجك مع ذلك.

- طيّب. سنرى.

عاد لوكا يقول بلهجة قاسية وهو يشدُّها إليه ويُقبِّلها على خدها:

- تريدين إذن أن تذهبي إلى أوستينكا؟

- اتركني. ما بالك تلتصق بي هذا الالتصاق؟

وانتزعت نفسها منه وابتعدت.

قال لوكا وهو يهزّ رأسه مؤاخذاً:

- ماريانا! ستسوء الحال بسلوكك هذا... «سوف أجعلك تذرفين دموعاً».

وأشاح عنها، وصرخ مهيباً بالبنات:

- هيَّا ارقصن أنتن!

بدت ماريانا مرتاعة حانقة مما قاله. فتوقفت وقالت تسأله:

- أي سلوك تعني؟

- هذا.

- ما هو؟

- تسليتك مع نزيل داركم، الجندي. لهذا السبب أصبحت لا تحبينني.

- إذا أردتُ أن لا أُحِبّ فلن أحبّ. ما أنت أبي ولا امي! ماذا تريد مني؟ أنا أحبُّ من أشاء.

قال لوكا:

- طيّب طيّب. ستتذكّرين هذا الكلام.

واقترب من الدكان. وعاد يصرخ مهيباً بالبنات:

- هيَّا يا بنات! ما بالكنّ قد توقّفتن؟ رقصة أخرى! غنِّين! يا نازار، أسرع فجئنا بتشيخير!

قال أولنين يسأل بلتسكي:

- هل تظن أنهما ستأتيان؟

فأجابه بلتسكي:

- نعم، ستأتيان حالاً. هيَّا بنا نهيئ الحفلة!

39

في ساعة متأخرة من الليل غادر أولنين بيت بلتسكي بعد ماريانا وأوستينكا. كان المنديل الأبيض الذي يغطي رأس الفتاة يبرز في ظلام الشارع. وكان القمر الشاحب يميل نحو السهب. وكان ضباب بلون الفضة يلفُّع القرية. كان كل شيء ساكناً. فلا يُرى ضوء في أي مكان، ولا يُسمع إلا وَقع خطوات المرأتين وهما تبتعدان. وكان قلب أولنين يخفق خفقاناً شديداً. وأخذ الهواء الرطب ينضِّر وجهه الملتهب. نظر إلى السماء، ثم التفت إلى المنزل الذي غادره منذ لحظات، فرأى أن الشمعة قد أُطفئت فيه. وعاد يلاحق بنظراته المرأتين اللتين كانتا تبتعدان. وغاب المنديل الأبيض في الضباب.

فأحسّ أولنين بخوفٍ من بقائه وحيداً. كان سعيداً أعظم السعادة. وها هوا يقفز عن درج الباب، ويجري ملاحقاً الفتاتين. قالت أوستينكا:

- انصرف. قد يرانا أحد.

- لابأس في أن يرانا أحد.

واقترب من ماريانا وطوَّقها. فلم تمانع ماريانا. وقالت أوستينكا:

- ألم يكف كما ما تبادلتماه من قُبل؟ قبِّلها ما شئت أن تقبِّلها متى تزوجتما، أمَّا الآن فانتظرا!

- أستودعك الله يا ماريانا! غداً آتي إلى أبيك، فأكلّمه بنفسي. أما أنت فلا تقولي له شيئاً.

قالت ماريانا:

- ما عساني أقول له!

وأخذت الفتاتان تركضان. وتابع أولنين سيره في الطريق وحيداً وهو يستحضر إلى ذاكرته كل ما حدث. لقد قضى السهرة كلّها معها في الركن بقرب المدفأة. ولم تخرج أوستينكا من الغرفة لحظة واحدة، ولم تنقطع عن الاهتمام بالفتيات الأخريات وبلتسكي. وكان أولنين يكلّم ماريانا بصوت خافت. سألها:

- هل تتزوّجيني؟

فأجابته مرحةً محتفظةً بهدوئها:

- أتسخر مني؟ إنّك لن تتزوجني!

- ولكن هل تحبينني؟ أجيبيني ناشدتك الله!

- ولم لا أحبك؟ ما أنت بأَعْوَر.

كانت ماريانا تضحك وتضغط يديه بيديها الخشنتين، فأضافت تقول:

- ما أشدّ بياض يديك! إنهما كاللبن الرائب بياضاً ونعومة!

- لست أمزح. أجيبيني. هل تتزوجيني؟
- لم لا، إذا وافق أبي؟
- انتبهي. لسوف أجن إذا كنت تخدعيني. سآتي غداً فأطلبك من أبيك وأمك.
انفجرت ماريانا تضحك فجأة. فقال يسألها:
- ما بكِ؟
- شيء مضحك جداً!...
- أقول لك الحقيقة! سوف أشتري بستاناً ومنزلاً وأصبح قوزاقياً.
- حذار عندئذٍ أن تحب نساءً أخريات. وإلاّ رأيتني أغدو شريرة!
كان أولنين يستعيد في خياله هذا الحوار متلذّذاً. وكان وهو يتذكره يشعر تارةً بألم، ويشعر تارة اخرى بسعادة تبلغ من القوة أنها تخنق أنفاسه. كان يشعر بألم لأنها أثناء حديثها قد ظلّت هادئة هدوءها المعهود فيها، فلم يبدُ أن هذا الوضع الجديد قد بثَّ في نفسها شيئاً من الاضطراب، حتى لكأنها لا تصدِّقه ولا تفكر في المستقبل. أحسَّ أولنين أنها لا تحبه إلا في اللحظة الراهنة، اما مستقبلها فليس في نظرها مرتبطاً بمستقبله. كان يشعر بسعادة عظيمة، لأنه أحسّ أنها صادقة، وأنها وافقت على أن تكون له. فكان يقول لنفسه: «نعم، لن نتفاهم إلا حين تصبح لي تماماً. فمثل هذا الحبّ لا تكفيه الألفاظ، وأنما هو محتاج إلى حياة، إلى حياة بأكملها. غداً يصير كلّ شيء واضحاً. لقد أصبحت لا أطيق أن أحيا هكذا. غداً أخبر أباها بكل شيء وبلتسكي والقرية كلها...».
بعد ليلتين من سهر كامل، كان لوكا قد بلغ من فرط الشرب أنه لأوّل مرّة في حياته سقط على الأرض ونام عند يامكا.

40

استيقظ أولنين في الغد أبكر مما يستسقظ عادةً، وتذكّر منذ اللحظة الأولى ما ينتظره في ذلك اليوم. وتذكر فَرحاً قبلات ماريانا ومعانقات يديها الخشنتين وأقوالها: «ما أشدّ بياض يديك!»، فإذا هو يثب عن سريره ليذهب إلى الليوتنان فوراً فيطلب منه يد ابنته.

لم تكن الشمس قد طلعت. وبدا لأولنين أن اضطراباً غير مألوف يسيطر على الشارع: من مشي إلى كلام إلى مرور خيل. فوضع أولنين رداءه على كتفيه وخرج على درج الباب. إن أصحاب الدار ما زالوا نائمين. وهؤلاء خمسة من القوزاق على ظهور أفراسهم يتناقشون.

كان أحدهم يصيح قائلاً:

- في المخفر الأعلى!

ويقول آخر:

- أسرج حصانك واتبعنا بسرعة!

نخرج من الباب الآخر فيكون الطريق أقصر.

ويصيح لوكا قائلاً:

- ما هذا الكلام الذي تقول؟ بل نخرج من الباب الأوسط.

ويقول قوزاقي يغطّيه الغبار وهو راكب على حصان ينضح عرقاً:

- فعلاً، من الباب الأوسط تكون المسافة أقرب.

كان وجه لوكا محمراً منتفخاً بعد سكر ليلة البارحة. وكانت طاقيته مرتدة على رأسه إلى قذاله. وكان يتكلّم بلهجة مستبدة كأنه رئيس.

قال أولنين الذي لم يستطع أن يلفت إليه انتباه القوزاق، قال يسأل:

- ماذا حدث؟ إلى أين تذهبون؟

- الآبريك! كمنوا في الكثبان. نحن ماضون إليهم حالاً. ولكن عدد رجالنا غير كافٍ.

وابتعد القوزاق وهم ما يزالون يصيحون ويضطربون.

قال أولنين لنفسه إنه يحسن به أن ينضم إليهم. وكان يقدِّر من جهة أخرى أن يرجع في وقت مبكِّر. فارتدى ثيابه، ولقم بندقيته رصاصاً، ووثب إلى ظهر حصانه الذي أسرجه له فانيا كيفما اتفق، وأدرك القوزاق في ظاهر القرية. كان القوزاق قد نزلوا عن خيولهم، وتجمّعوا حلقةً، وأخذوا يصبُّون تشيخيراً من برميل صغير حُمل إليهم، وجعلوا يتناقلون الطاس ويشربون نخبَ نجاحهم في حملتهم. إنَّ بينهم ضابطاً شديد التأنّق، برتبة ملازم ثانٍ، كان في القرية عرضاً فترأس القوزاق السبعة. وكان جميع هؤلاء جنوداً لا أكثر، ولكنهم رغم أن الملازم الشاب قد اصطنع هيئة القائد، كانوا لا يطيعون إلا لوكا. أما أولنين فلم يولّوه أي انتباه. فلما ركبوا أفراسهم من جديد، دنا أولنين من الملازم وسأله ماذا حدث؟ ولقد كان هذا الضابط لطيفاً كيّساً في العادة، ولكنه أجاب أولنين الآن باستعلاء وخيلاء، فلم يستطع أولنين أن يفهم الأمر إلا في كثير من العناء، فعرف ان دورية كانت تستطلع حركات الآبريك، فاكتشفت وجود عدد من الجبليّين في الكثبان على مسافة ثمانية فراسخ من القرية، وقد اعتصم هؤلاء الآبريك في خندق، وأخذوا يطلقون نيران بنادقهم رافضين الاستسلام. وقد بقي المساعد الذي كان يقوم بالاستطلاع مع اثنين من القوزاق، بقي في المكان هو وواحد من الجنديين لمراقبة الآبريك، وأرسل الجندي الثاني إلى «الستانتسا» يطلب تعزيزاً.

كانت الشمس قد طلعت. وعلى بعد ثلاثة فراسخ من

«الستانتسا» يمتد السهب. إن المرء لا يرى إلا سهلاً متشابهاً، حزيناً، يابساً، ومساحات من رمل تخدِّدها آثار سير المواشي، وعشباً أصفر، وأسلاً نحيلاً، وممرات نادرة لا تكاد تُرى، وخياماً للفوجاي تلوح بعيدةً عند الأفق. ويخطف البصرَ خاصةً فقدان الظل تماماً وطابع الوحشية في الطبيعة. والشمس في السهب حمراء دائماً حين تشرق وحين تغرب. والريح إذا هبَّت نقلت جبالاً من رمل. حتى إذا سكن الهواء خيَّم صمت لا يعكّره شيء، صمت له في النفس تأثير قوي. ولقد كان الجو في ذلك الصباح هادئاً أشهب في السهب المقفر، رغم أن الشمس قد طلعت، فلا يُسمع في الهواء الساكن إلا وقع حوافر الخيل التي تحمحم من حين إلى حين، ولكن هذه الأصوات نفسها أصوات بهيمة لا تلبث أن تنطفئ.

كان الرجال يتقدّمون في الصمت. إن القوزاق يعرفون كيف يربطون أسلحتهم فلا تتصادم ولا تكون لها قعقعة. إنَّ تصادم الأسلحة عار في نظر القوزاقي. وهذان رجلان من «الستانتسا» يدركان الكوكبة الصغيرة من هؤلاء الفرسان، ويبادلونهم بضع كلمات. وإنهم لكذلك إذ بحصان لوكا يكبو على صخرة أو يتعثر في عشب فيحثّ الخطى. هذا نذير شؤم عند القوزاق. وينظر القوزاق بعضهم إلى بعض، ثم يسرعون فيشيحون وجوههم متظاهرين بإهمال هذا الحادث الذي تضفي عليه الظروف الراهنة شأناً خطيراً. أما لوكا فقد شدَّ اللجام وقطّب حاجبيه وكزَّ أسنانه وشهر سوطه. وتراقص الحصان الجواد في مكانه كأنه لا يدري بأي قدم يستأنف سيره، وكأنّه يودّ لو يرتفع في الفضاء، ولكن لوكا جلد جنبيه بسوطه مرةً فثانية فثالثة... فكشَّر الحصان عن أسنانه، ونشر ذيله وحمحم وشب، فأبعده ذلك عن مجموعة القوزاق لحظة.

قال الملازم الشاب:

- هذا حصان حقاً!

فقال أحد الرجال مؤيداً:

- إنه لأسد!

وظلّوا يتقدّمون، تارةً خطواً وتارةً خبباً.

ذلك هو الحادث الوحيد الذي عكَّر صمت هذه المسيرة وأبهتها إلى حين. ولم يلتقِ القوزاق أثناء مسيرتهم إلا بخيمة نوجاي واحدة، وكانت خيمة منصوبة على عربة نقل تتقدّم بطيئة على مسافة فرسخ. إنه نوجاي من الرحَّل ينتقل مع أسرته إلى مكان آخر. وقد شاهدوا كذلك امرأتين من النوجاي، ناتئة خدودهما، رثة ثيابهما، تحمل كل منهما على ظهرها سلة وتجمع روث البهائم لتصنع منها جلة. وقد حاول الملازم، الذي كان لا يحسن لغة النوجاي أن يلقي عليهما بعض الأسئلة، ولكنهما لم تفهما منه شيئاً، ونظرت كل منهما إلى الأخرى جزعة.

واقترب لوكا، فأوقف حصانه، وألقى التحية المألوفة، فإذا بالمرأتين تستردان طمأنينتهما، وتأخذان تكلّمانه بحرية كأنه واحد من النوجاي. فقالتا له بصوت شاكٍ وهما تشيران بأصابعهما إلى الجهة التي كان يمضي فيها القوزاق:

- «آي، آي، كوب آبريك».

ففهم أولنين أنهما تقولان: «آبريك كثير!». وكان أولنين الذي لم يسبق له أن شهد حملات كهذه، وكان لا يعرفها إلا من أقاصيص العم ياروشكا، يحرص على أن لا يترك القوزاق، ويحرص على أن يرى كل شيء. كان معجباً بمسيرة هؤلاء الرجال، ينظر بكلّ عينيه، ويصغي بكلّ أذنيه، ويرقب ويلاحظ. ورغم أنه قد اصطحب سيفه

وبندقيته، فإنه وقد رأى أن القوزاق يدعونه جانباً ولا يحفلون به، قرّر أن لا يشارك في العمل أية مشاركة، لا سيما لأنه يعتقد أنه سبق أن برهن على شجاعته أثناء الحملة الأخيرة، ولأنه كان سعيداً أكبر السعادة بوجه خاص.

وفجأة دوَّت طلقة نار في مكان بعيد.

فاضطرب الملازم اضطراباً شديداً، وطفق يصدر أوامره إلى القوزاق: كيف يجب عليهم أن يتفرقوا وكيف ينبغي لهم أن يواجهوا الآبريك؟ ولكن كان واضحاً أن الرجال لا يولّون أوامره أي انتباه ولا يطيعون إلاّ لوكا، ولا تتجه أبصارهم إلاّ إليه. كان وجه لوكا ووضعه كله يعبِّران عن هدوء يفيض وقاراً. وكان يجري بحصانه الكاباردي خبباً، وكانت الأفراس الأخرى لا تستطيع أن تجاري حصانه في عَدْوِه، وكان ينظر إلى أمام مغضّناً جفنيه.

ها هو يقول معلناً وقد لجم حصانه عن الجري حتى يتيح للآخرين أن يدركوه:

- هذا فارس!

حملق أولنين، ولكنه لم يرَ شيئاً. وسرعان ما بصر القوزاق برجلين راكبين، فاتجها نحوهما قُدُماً بخطًى هادئة.

سأل أولنين:

- هل هما من الآبريك؟

فلم يجب القوزاق بشيء عن هذا السؤال الذي كان في نظرهم سخيفاً. إنَّ الآبريك يكونون مجانين إذا هم قطعوا النهر على ظهور الخيل.

قال لوكا وهو يشير إلى الفارسين اللذين أصبحا يُريان الآن رؤية واضحة:

- أظن أنه رودكا يومئ لنا. إنه مقبل علينا.

فما هي إلاّ بضع دقائق حتى عُرف قوزاقيا الدورية فعلاً. واقترب المساعد من لوكا.

41

قال لوكا يسأل:

- هل المكان بعيد؟

وفي تلك اللحظة نفسها دوَّى انفجار قصير على مسافة ثلاثين خطوة. فابتسم المساعد وقال وهو يومئ برأسه إلى الموضع الذي تُطلق منه النار:

- هذا صاحبنا جوركا يُطلق النار عليهم.

تقدّم القوزاق بضع خطوات فأبصروا جوركا مقعياً وراء كثيب من الرمل يعيد لقم بندقيته. لقد كان يتبادل بضع رصاصات، تزجية للوقت، مع الآبريك الذين كانوا متحصنين وراء تلة أخرى. وصفرت رصاصة. كان الملازم شاحب الوجه مضطرباً. ووثب لوكا عن حصانه، ورمى الزمام لقوزاقي آخر، واتجه نحو جوركا. وترجل أولنين أيضاً، وتبعه منحنياً. فما كادا يصلان إلى قرب جوركا حتى صفرت رصاصتان فوق رأسيهما. فالتفت لوكا إلى أولنين ضاحكاً وانحنى وقال له:

- قد يقتلونك يا آندرتش. فخير لك أن تنصرف. ما هذا مكانك!

ولكن أولنين كان مصراً على أن يرى الآبريك.

وبصر على بعد مائتي خطوة طاقيات وبندقيات وراء كثيب. ثم إذا بدخان خفيف يرتفع فوق الكثيب فجأة، وإذا برصاصة أخرى تئز. كان الآبريك مرابطين في مستنقع وراء أكمة. خطف هذا المكان بصر

أولنين. والحق أن ذلك المكان لا يختلف في شيء عن سائر السهب، ولكن وجود الآبريك فيه لا في مكان آخر كان يجعل هذا الجزء من الأرض منفصلاً عن كل ما يحيط به إن صح التعبير، ويضفي عليه طابع السر. حتى لقد بدا لأولنين أن هذا المكان هو المكان الوحيد الذي لا بدَّ أن يحتله الآبريك. ورجع لوكا إلى حصانه وتبعه أولنين.

قال لوكا:

- يجب أن نأخذ عربة التبن، وإلا قتلونا جميعاً. إن وراء الربوة عربة نوجاي محملةً بتبن، فلنأخذها.

أنصت إليه الملازم بانتباه، وأيَّد المساعد رأيه. وجُرت عربة التبن، فاختبأ القوزاق وراءها جاذبين التبن إليهم. وركب أولنين حصانه وصعد إلى هضبة يستطيع أن يرى من فوقها كل شيء.

كانت عربة التبن تتقدّم والقوزاق يتقدّمون وراءها مزدحمين. وكان التشاشانيون، وعددهم تسعة، جالسين جنباً إلى جنب، ملتصقين ركبةً بركبة، ساكنين لا يُطلقون.

كان كل شيء صامتاً. ثم إذا بأصوات غريبة هي أصوات غناء نائح شبيه بغناء العم ياروشكا «آي- واي- دالالاي» ترتفع على حين فجأة في جهة التشاشان.

كان التشاشان يعرفون أنهم لن يفلتوا من هذا المأزق، فمن أجل أن لا يغريهم الفرار، شدُّوا بعضهم إلى بعض بسيور توثق رُكبهم، وأعدوا بندقياتهم، وصدحوا بأغنيتهم النائحة.

والقوزاق ما يزالون يتقدّمون وراء العربة. وأولنين ينتظر انطلاق النيران في كل لحظة. ويتوقف الغناء فجأة، فيدوِّي انفجار، وتصيب العربة رصاصة. وتنهال من التشاشان شتائم حادة. ويتلاحق إطلاق النار بغير توقف، وينهمر الرصاص على العربة. والقوزاق لا يطلقون

نارهم بعد. وها هم يصيرون على مسافة خمس خطوات.

وتنقضي ثانية أخرى، فإذا بالقوزاق يهجمون من جانبي العربة وهم يصيحون صيحات وحشية. وكان لوكا في طليعتهم. لم يسمع أولنين إلا بضع طلقات، وسمع صرخات وأنّات. ورأى دخاناً، ورأى كذلك دماً فيما بدا له. فإذا هو يترك حصانه وقد فقد السيطرة على نفسه، ويهرع إلى القوزاق. لقد ألقى الهول على بصره غشاوة، فلم يستطع أن يميز شيئاً من شيء، ولكنه فهم أن الأمر انتهى كله. وكان لوكا أصفر اللون، قد أمسك قبضتي تشاشاني جريح، وطفق يزأر قائلاً: «لا تقتلوه! سآخذه حياً!». إنَّ هذا التشاشاني هو أخو الآبريك الذي قتله لوكا، أخوه الذي جاء يفتدي الجثمان منذ مدة. وكان لوكا يحاول أن يثني يدي الجريح إلى ما وراء ظهره. ولكن التشاشاني يتملص، فإذا هو يطلق نار مسدسه، وإذا بلوكا يسقط، وإذا ببقعة من الدم تظهر على بطنه. نهض لوكا منتصباً، لكنه سقط مرة ثانية وهو يشتم بالروسية والنترية. وسال الدم من فوقه ومن تحته. وتقدّم القوزاق يحلون حزامه. وقبل أن يحمل القوزاق الجريح، قضى واحد منهم - هو نازار- وقتاً طويلاً من أجل أن يُدخل سيفه في الغمد، لأنه ضلَّ عن الجنب الذي فيه الغمد. وكان نصل السيف يقطر دماً.

أما التشاشان، ذوو اللحى الحمر والشوارب المقصوصة، فكانوا راقدين على الأرض قتلى بطعن السيوف. ولكن الذي أطلق النار على لوكا لا يزال حياً رغم أن الطعنات تملأ جسده. كان مقرفصاً ممسكاً بخنجره متأهباً للطعن، وقد غطاه الدم، وكزَّ أسنانه وشحب لونه واكفهر وجهه وراح يجيل على ماحوله نظرة حانقة من عينيه الواسعتين، فمن رآه رأى نسراً جريحاً (كان الدم ينزف من عينه

اليمنى). تقدم الملازم إليه من جانب كأنه يريد أن يتقيه، ثم ها هو يفرغ رصاص مسدسه في أذنه بحركة سريعة. فانتفض التشاشاني انتفاضة عنيفة، وسقط.

أخذ القوزاق يجرون الجثث لاهثين، وينتزعون أسلحتها. فكان كل واحد من هؤلان التشاشان، المصبوغة لحاهم، إنساناً ما يزال يحتفظ وجهه بتعبير خاص به. وحُمل لوكا إلى العربة. فكان لا ينفك يطلق شتائمه بالروسية والترية، ويصرخ قائلاً وهو يتخبط:

- لا، سأذبحك بيدي. لن تفلت مني!

ثم ما لبث أن صمت وقد خارت قواه.

عاد أولنين إلى بيته. وقيل له في المساء إن لوكا ميت، ولكن تترياً من الضفة الأخرى قد تعهّد أن يشفيه بأعشاب.

ونقلت الجثث إلى مكتب «الستانتسا». وهرعت النساء والصبية لتراها وتتأمّلها.

لقد رجع أولنين إلى بيته في ساعة الأصيل، ولبث مأخوذاً بما رأى. ولكن ذكريات ليلة البارحة عادت تغمره في المساء. وقام إلى النافذة ينظر: فرأى ماريانا مشغولة بأعمال المنزل، تذهب وتجيء بين البيت والحظيرة. كانت الأم في الكرم. وكان الأب في المكتب. فلم ينتظر أن تفرغ من عملها ليلحق بها.

كانت الفتاة في البيت، مشيحةً عنه وجهها، مديرةً له ظهرها. فظن أولنين أنها تحسّ بخجل، فقال يسألها:

- ماريانا، ماريانا، هل أستطيع أن أدخل؟

- فالتفتت إليه بحركة سريعة وقد تلألأت عينيها بدموع لا تكاد تُرى وارتسم على قسماتها ألم زادها جمالاً، ونظرت إليه صامتة رصينة. فكرر أولنين يقول:

- جئت يا ماريانا.

فقالت له:

- دعني.

ولم يتبدّل وجهها، غير أن الدموع انبجست من عينيها.

- لماذا؟ ما بكِ؟

فأجابت تقول بلهجة لاذعة قاسية:

- ما بي؟ قُتل قوزاقي. ذلك ما بي!

- لوكا!

- انصرف! ماذا تريد أيضاً؟

قال أولنين وهو يدنو منها:

- ماريانا!

- لن تفوز مني بشيء في يوم من الأيام أبداً.

قال أولنين ضارعاً:

- ماريانا! لا تقولي هذا!

- اذهب! إنني أكرهك.

قالت ذلك وهي تقرع الأرض بقدميها وتتقدّم نحوه مهدِّدة. وارتُسم على وجهها اشمئزاز يبلغ من الشدّة، واحتقار يبلغ من القوّة، وكره يبلغ من العمق. أن أولنين أدرك فجأةً أنه لم يبقَ له أيُّ أمل. وبدا له من جديد أنها لا يمكن الوصول إليها، وأحسّ أن هذه هي صورتها الحقة.

42

عاد أولنين إلى بيته، فاستلقى على سريره وبقي هنالك ساكناً قرابة ساعتين. ثم مضى إلى منزل قائد السرية وطلب منه أن يأذن له بالذهاب إلى الأركان. وبدون أن يودِّع أحداً، وبعد أن دفع ما عليه

من دين لأصحاب البيت بواسطة فانيا، استعد للسفر إلى القلعة التي يرابط فيها الفوج.

العم ياروشكا وحده جاء يودِّعه. فشربا، ثم شربا، ثم شربا. وكانت عربة ترويكا تنتظره أمام درج الباب، كيوم رحيله من موسكو تماماً. ولكن أولنين لا يحاول هذه المرة أن يحاسب نفسه، ولا يقول لنفسه هذه المرة إن كل ما قاله وفعله «ليس هو هذا»، ولا يَعِد نفسه هذه المرّة بأن يبدأ حياة جديدة، إنه يحبّ الآن ماريانا أكثر مما أحبها من قبل، ويعلم أنها لن تحبه أبداً.

قال العم ياروشكا:

- استودعك الله يا بني. حين تشارك في حملة فاعرف كيف تكون ماكراً. اسمع لما يقوله الشيخ ياروشكا. حين تشارك في هجوم أو في شيء من هذا القبيل (أنا ذئب عجوز رأى كل شيء)، فلا تبقَ حيث يكون احتشاد وتجمهر. إنكم متى خاف أحدكم التصق برفاقه فوراً، وظن أن الخير هو في البقاء مع الجماعة. والحق أنه لا شيء أسوأ من هذا. فالعدو يسدِّد رصاصة إلى حيث يكون التجمّع. أنا كنت أنأى دائماً عن الناس، وأمضي وحيداً. لذلك لم أُجرح في يوم من الأيام، مع كثرة ما رأيت في حياتي!.

قال فانيا معقباً وهو عاكف على ترتيب الغرفة:

- ولكن في ظهرك رصاصة.

- هذه من القوزاق، على سبيل التسلية.

- من القوزاق؟ كيف؟

- هكذا. كنا نشرب. وكان معنا فانيا ستكين، وهو قوزاقي، شرب، فإذا هو يرميني برصاصة مسدس هنا.

سأله أولنين:

- هل تألمت؟

ثم أضاف يسأل خادمه:

- فانيا! هل نكون متأهبين بعد قليل؟

قال الشيخ ياروشكا:

-ما لي أراك تستعجل الرحيل؟ اسمع، سأحكي لك... نعم، لقد وضع لي رصاصة في الجلد. لم تكسر الرصاصة العظم بل بقيت هنا. قلت له أنا: «ما هذا الذي صنعت يا عزيزي؟ لقد قتلتني! لا، لن أعفو عنك، لا بدَّ أن تدفع جزاء ما جنيت سطلاً من خمرة!».

سأله أولنين مرة أخرى، وكان لا يكاد يصغي إلى حديثه:

- هل توجعت؟

قال الشيخ:

- دعني أتمّ. دفع الرجل سطلاً وشربنا. وظل الدم يسيل حتى أغرق البيت. وقال عامل عجوز كان معنا «إن هذا الفتى سيفرقع. هات سطلاً آخر من نبيذ حلو، وإلا حكمنا عليك. وجيء بالنبيذ، فما أكثر ما شربنا.

- سأله أولنين مرة أخرى:

- ولكن أكنت تتوجع أم لا؟؟

- أتوجع؟ لا تقاطعني. لا أحب أن يقاطعني أحد. دعني أتكلم. سقوني وسقوني حتى الصباح ثم نمت على سطح المدفأة. وحين استيقظت، حاولت أن أقوم فلم أستطع.

عاد أولنين يسأله مقدراً أنه سيحصل الآن على جواب عن سؤاله:

- كنت تشعر بألم شديد؟

- هل زعمت لك أنني شعرت بألم؟ إنني لم أشعر بألم. ولكنني كنت لا أستطيع أن أقوم، ولا أن أمشي.

- وهل شُفيت؟

كذلك سأله أولنين حتى دون أن يضحك، من فرط ما كان ما يعاني من حزنٍ ثقيل يجثم على صدره جثوماً.

- نعم، شُفيت، لكن الرصاصة ما تزال في جسمي. امسك. جسّ!

قال الشيخ ياروشكا ذلك وهو يشمر قميصه فيكشف عن ظهره القوي الذي يحسّ المرء تدحرج الرصاصة تحت جلده بقرب العظم. وأضاف متسلياً بالرصاصة كتسلّيه بلعبة:

- هل تحسّ كيف تتدحرج. هي الآن في الخلف.

سأله أولنين:

- أتظن أن لوكا سيعيش؟

- الله أعلم. ليس عندنا طبيب. وقد أرسلوا يستدعون طبيباً.

- من أين؟ من جروزنوي؟

- لا يا عزيزي. أطباؤكم الروس، لو كنت القيصر أمرت بشنقهم. إنهم جزّارون. هكذا بتروا ساق صاحبنا القوزاقي باكلاشيف. يا لهم من بُلَهاء؟ لا شيء يُصلح الآن باكلاشيف؟ ليس هو الآن برجل. لا! إن في الجبال أطباء حقيقيين. لقد جُرح صديقي فورتشيك أثناء حملة في وسط صدره، هنا. فتركه أطباؤكم، فجاءه صاحب من الجبال فشفاه. إنَّ هؤلاء يعرفون الأعشاب.

قال أولنين:

- كفى سخافات! سأرسل طبيباً من الأركان.

قال الشيخ محاكياً لهجة أولنين:

- سخافات! غبي! غبي! سخافات! سأرسل طبيباً! لو كان أطباؤكم يشفون الناس لذهب إليهم التشاشان والقوزاق يلتمسون العلاج، والواقع أن ضباطكم وكولونيلاتكم هم الذين يرسلون في طلب أطباء من الجبل. كل شيء عندكم زيف! لا شيء إلا الكذب!

لم يجب أولنين. كان هو نفسه مقتنعاً بأن كل شيء زائف حقاً في ذلك العالم الذي يعود إليه. وقال يسأل ياروشكا:

- ولوكا؟ هل عدته؟

- نعم، إنه راقد كميت، لا يأكل ولايشرب. لا تقبل نفسه إلا الفودكا. فهو يشرب الفودكا. لا شيء إلا الفودكا. إنني أشفق عليه وأرثي له. هو فتى شجاع. فارس مثلي. أنا أيضاً كنت على شفا الموت ذات يوم، حتى لقد أخذت العجائز تبكي وتعول. كان رأسي يحترق احتراقاً. ووُضعتُ تحت الأيقونات المقدسة. وفيما أنا مسجى هناك خيِّل إليَّ أنني أسمع فوق رأسي، على المدفأة، عدداً من الطبول الصغيرة تُقرع. فصرخت أهيب بها أن تتوقف، ولكن قرع الطبول اشتد.

وأخذ الشيخ يضحك، ثم تابع كلامه:

- كانت العجائز قد أحضرت كاهناً لدفني. كنَّ يقلن له: «كان رجلاً يحب حياة المجتمع، ويتسلى مع النساء، وقد قتَل، وكان يقصف ويلهو، ويعزف على البالالايكا.». قال لي الكاهن: «عليك بالتوبة» فأخذت أعترف. قلت له: «أنا آثم». وكلما سألني سؤالاً قلت مرةً أخرى: «أنا آثم». . ثم سألني عن موضوع البالالايكا قائلاً: «أين هي، الملعونة، أرنيها وحطِّمها!» فأجبته: «ليس عندي بالالايكا». كنت قد خبأتها في الكوخ وراء شباك الصيد، وكنت أعلم أنهم لن يعثروا عليها. وأخيراً تركوني وشأني. فلما أفقت مما كنت فيه، قمت أعزف على البالالايكا.

وتوقف الشيخ لحظة عن الكلام، ثم أردف قائلاً:

- ماذا كنت أقول لك؟ نعم... اسمع نصيحتي. ابتعد دائماً عن مواضع التجمهر في المعارك، وإلا قُتلت قتلاً غبياً. إنني أشفق عليك. حقاً. أنت سكير. فأنا أحبّك. ثم هناك شيء آخر: إنَّ جماعتك يتسلون دائماً بالصعود إلى تلال وهم راكبون خيولهم. كان واحد منهم يسكن هنا. لقد وصل من روسيا، فكان يصعد دائماً إلى التلال، متى رأى تلاً صعد إليه. ففي ذات مرة، صعد إلى تل، فسرَّ سروراً عظيماً، فإذا بأحد التشاشان يسدِّد إليه ويرديه قتيلاً. آ... ما أبرع التشاشان في الرمي! إن بينهم من هو أبرع مني أنا. أنا لا أحب للمرء أن يُقتل قتلاً غبياً. كنت في بعض الأحيان أنظر إلى جنودكم فأدهش. يا للحماقة! إنهم يتقدمون كتلةً واحدةً. جسورون! بل هم يضعون أيضاً ياقات حمراً. فكيف تريد أن يخطئوكم؟ يقتل منهم واحد فيسقط فيُحْمَل، ويحلّ محلَّه واحد آخر. يا للحماقة! (كذلك قال الشيخ وهو يهزّ رأسه). لماذا لا يتفرقون فيمضي كل واحد في جهة، ذلك ما يجب أن يفعله المرء، فلا يُرى. هذا ما ينبغي لك أن تعمد إليه.

- شكراً. أستودعك الله! سنلتقي في المستقبل إذا أراد الله لنا أن نلتقي.

قال أولنين وهو ينهض ويتجه إلى الدهليز. وبقي الشيخ جالساً على الأرض لا يتحرك. ثم قال:

- أهكذا يكون الوداع؟ آه... أحمق! أحمق! ما هؤلاء الناس؟ لقد كنا رفيقين لمدة سنة كاملة، ثم يقول أستودعك الله ويمضي! وما أكثر ما أحبك مع ذلك! وما أكثر ما أشفق عليك! إنك بائس، تعتزل الناس دائماً، وتعتصم الوحدة. كم من مرة لم أنم إذ كنت أفكر فيك وأرثي لحالك. تقول الأغنية:

«يشق على المرء يا أخي
أن يعيش في بلد غير بلده».
إن هذا الكلام يصدق عليك.

عاد أولنين يقول له:

- أستودعك الله!

فنهض الشيخ ومدَّ إليه يده، فصافحه أولنين، وأراد ان ينصرف.

فبادره الشيخ بقوله:

- بل هات خطمك، هات خطمك هنا!

وتناول رأسه بيديه الضخمتين وقبَّله ثلاث مرات بشفتيه اللتين كان شارباهما مبتلين، وجعل يبكي.

- أحبك كثيراً! أستودعك الله!

ركب أولنين العربة. فقال له الشيخ وهو ينشج باكياً بحزن صادق:

- أهكذا تسافر؟ أعطني على الأقل هدية صغيرة تكون ذكرى! أعطني بندقية. لا حاجة بك إلى اثنتين!

تناول أولنين إحدى بندقيتيه ومدَّها إليه.

قال فانيا مدمدماً متذمراً:

- ما أكثر الاشياء التي سبق أن أعطيتها لهذا الشيخ! إنه لا يشبع أبداً. مستجدٍ عجوز!

ثم أضاف يقول وهو يتلفف بمعطفه ويستقر على المقعد الأمامي:

- هؤلاء أناس ينقصهم الأدب!

فصرخ الشيخ يقول ضاحكاً:

- اسكت أيها الخنزير! يا للشحيح!

خرجت ماريانا من الحظيرة، وألقت على العربة نظرة غير مكترثة، وحيَّت ثم دخلت البيت.

قال فانيا وهو يغمز بعينه ويطلق ضحكة بلهاء:

- البنت! (بالفرنسية).

فصرخ أولنين يقول حانقاً:

- امشِ.

وصاح ياروشكا:

- أستودعك الله يا بني! لن أنساك أبداً.

والتفت أولنين فرأى العم ياروشكا يكلم ماريانا. لا شكَّ أنهما كانا يتكلّمان في شؤونهما الخاصة. فلا الشيخ ولا الفتاة نظرا إليه.

ليو تولستوي

القوزاق

حين وصل تولستوي الى القوقاز سنة 1851 شعر أوّل الأمر بخيبة الأمل... لكن سرعان ما أعجبته حياة قوزاق نهر تيريك...

هذه الحياة البدائية التي تحتل فيها الأهواء مكاناً كبيراً، والتي نرى الحب فيها يترقبه الموت، هي عند تولستوي نغمة أساسية. يقرر تولستوي أن يكتب شيئاً عن القوزاق. ولكن الغريب أن الكاتب سيظل يجرِّب ويتلمّس طريقه مدة طويلة. حتى لقد احتاج إلى عشر سنين ليفرغ من كتابة قصّة صاغها اثنتي عشرة صياغة مختلفة. حتى إن الصياغة الأولى - ويرجع عهدها إلى شهر سبتمبر من سنة 1852 - قد نظمها تولستوي شعراً.

لقد كتب تولستوي: "..أخذت أحب القوقاز حباً متأخراً لكنه قويّ جداً. حقاً ما أجمل تلك البلاد المتوحّشة التي يتحالف فيها تحالفاً غريباً، طافحاً بالشعر، أمران متعارضان أشد التعارض: الحرب والحرية"

الكسندر سولوفييف

ISBN 978-9953-582-14-6

9 789953 582146

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ القاهرة ـ تونس
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar_altanweer.com